الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة وهران 2

كلية العلوم الاجتماعية

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الفلسفة

الموسومة بـ:

فلسفة اللامعقول عند فيرابند

- دراسة تحليلية نقدية -

من إعداد الطالب: شادلي هواري

تشكيلة لجنة المناقشة :

اسم و لقب الاستاذ	الرتبة	الصفة	مؤسسة الانتماء
أ.د.دراس شهرزاد	أستاذ التعليم العالي	رئيســا	جامعة وهران 2
أ.د.موسى عبد الله	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة سعيدة
أ.د.الزاوي حسين	أستاذ التعليم العالي	مناقشــا	جامعة وهران2
د.الزاير أبوالدهاج	أستاذ محاضر -أ-	مناقشــا	جامعة وهران2
د.عدالة عبد القادر	أستاذ محاضر -أ-	مناقشــا	جامعة معسكر
د. بوصالحيح حمدان	أستاذ محاضر -أ-	مناقشــا	جامعة الجلفة

الموسم الجامعي

2018 / 2017

إهـــــــداء

إلى روح الفقيد الأستاذ بن نحي زكرياء

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله

إلى العائلة الكريمة

الزوجة و الأبناء:

علي، محمد، الحاجة سلامت، بشير ، أمينة

إلى كل الأصدقاء والأحباب

إلى كل من علمني حرفا

أهـدي هذا العمـل المتواضع

شادلي هواري

كلمة شكر

موسى عبد الله أتقدم بأسمى عبارات الشكر و التقدير إلى الأستاذ الدكتور على إرشاداته السديدة، و نصائحه القيمة التي كانت لنا سندا في إنجاز هذا العمل المتواضع.

ولا يفوتني أن أشكر كذلك أعضاء لجنة المناقشة، الذين تفضلوا بقراءة هذا العمل، وكذا كل أساتذتنا الكرام الذين نهلنا من علمهم النافع وأخلاقهم الرفيعة.

"المعرفة الكلية غير ضرورية وغير متاحة وكل ماهو متاح

مختلفة، تكون صادقة من بعض الجهات فقط، وجهات نظر

بتقليد معين" ولا وجود لأي أراء لا ترتبط

بول فيرابند

مقدمـــــة

مقدمــة

إن الهدف الأساسي من البحث العلمي هو السعي لبلوغ المعرفة و تذليل الصعاب التي تواجه الناس وتنوير العقول من خلال البحث عن الحقيقة وتأمين حياة أكثر رخاء وسعادة، فتتابعت الإنجازات العلمية الواحدة تلوى الأخرى في شتى الميادين العلمية والمعرفية، وما صاحبها من تأثر في الحياة العقلية والاجتماعية بتلك الإنجازات، وإسهام العلماء والباحثين في تقدم المعرفة العلمية وتطويرها لخدمة الإنسان، فسخرت الطبيعة وأخضعت لمشيئته وتغيرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فازداد إيمان الناس بالعلم إلى درجة التقديس وحسبوا أن فيه العلاج الشافي لألام الإنسانية ومشاكلها، ومناصا لما يتهددها من أخطار جسام.

قدم العلم فوائد عديدة للبشرية جعلت الحياة سهلة ويسيرة في جانبها المادي، ومن جانب أخر أدى إلي ظهور منظومة فكرية تنظر للحقيقة من جانب واحد،عمادها العقل والتجربة ترى الكون مجرد مادة متغيرة باستمرار تسير بطريقة آلية، هذا التصور العقلاني للمعرفة الذي بلوره الفكر العلمي الحديث، سرعان ما تعرض للمراجعة والنقد، مما أدى إلى ظهور خط فكري معاكس جعل من المعرفة الإنسانية معرفة متشعبة، تخضع لحتمية البنيات المختلفة الاجتماعية والثقافية، الخارجة عن نطاق المعقول لتفتح مجال اللاّعقل والوهم والمتخيل.

فالمتتبع لتاريخية العقل يكتشف أنه لا يوجد نمط واحد للعقلانية، بل تعددت العقلانية بتعدد أنماط الاتجاهات الفكرية، مثل الديكارتية والهيجلية والماركسية والوضعية، وهذا التعدد هو نتاج لصيرورة العقل في سياق حركة التاريخ.

لقد قدمت العقلانية الكلاسيكية طوال تاريخها مفهوماً واحداً للعقل، واعتبرته نموذجاً يؤخذ به في كل أنماط التفكير حتى يكتسب صفة العقلانية، ويحتوي على كل المعاني الصادقة

الشاملة، وأي فهم خارج إطاره لا يكتسب صفة المعقولية بشكل كامل، وبينت الدراسات الجينالوجية عن العلاقة بين مفهوم العقل ونمط من العقلانية تدعي تمثيلها وتلبّسها لهذا العقل بشكل كامل، جعلت من الأنظمة العقلانية تعبر عن نظرة نمطيّة لمفهوم العقل، ينتج أشكالا وصيغا متعددة من العقلانيات في خط متواصل طوال تاريخ فكره الفلسفي والعلمي، ويرى أن هناك اتجاها أخر بخط مناقض له لاعقلاني يفتقر للموضوعية قائم على العشوائية بعيد عن النسقية يعمل دائماً على إزالته وبصورة نهائية.

هذه العقلانية رسمت دروبا يسلكها التفكير بميكانيزمات آلية ونسقيه صارمة، يتحدد من خلالها التفكير العقلاني عن غيره من أساليب التفكير اللاعقلاني، هذه النظرة نتجت عن تصور تعسفي تجاه أنماط التفكير الإنساني المختلفة التي لا تلتزم بقواعد الصرامة العقلية مؤججة صراعا وهميا بين العقلاني واللاعقلاني، معتقدةً بعقلانية تمتلك الحقيقة واصفةً فلسفات الشك بالعدمية، هذه العقلانية تتبنى مفهوماً واحداً للعقل، هي العقلانية العلموية التي فهمت منطق العقل، على أنه يمثل اتجاها مادياً وضعياً واضحاً يمحص المعرفة وفق آلياته ويرفض كل تقليد لا يتماشى مع هذه الآليات، مثل الدين والفن والأسطورة.

أصبح اللامعقول في نظر التوجهات العقلانية غير مرغوب فيه، لأنه يمثل النكبة اتجاه العلم الذي عمل طوال تاريخه على إزالة كل تقاليد اللامعقول من المسار المعرفي، هذه العقلانية أعطت لنفسها صفة الحكم الذي يصدر أحكاماً قيمية، يصف بها بعض الفلسفات بأنها غير عقلية لأنها لا تخضع لشروط العقلانية المتعارف عليها، هذا الحكم لا يخرج عن إطار دائرة الفهم الكلاسيكي للعقل المطلق الشامل و الثابت الذي يستبعد كل ما لا يتوافق مع تناسباته و معطياته مما يضيّق و يفقر مفهوم العقل ذاته، ومن نتائج العكسية لهذا الحكم تلك الدراسات التي قام بها "ميشال فوكو" في كتابه "الكلمات والأشياء"، و"حفريات المعرفة" مبيناً إدعاء هذه العقلانية امتلاكها لامتداد مسار التاريخ بشكل متصل و تكاملي، مبرزاً الانفصال بين أنظمة الفكر في سياق اختلاف مراحل التاريخ، وأهم القطائع في أسس أبنية

العقل. كما كشف "دولوز" في بحثه "ألف سطح وسطح" عن منطق جديد يكسر مركزية العقل، أما "فرويد" بكشفه منطق اللاوعي يكون قد فتح مجال العقل عن عالم خفي لم يكن معروفاً ووضع أسسا للتحليل النفسي مبرزاً المؤثرات الفاعلة في حقيقة فهم منطق الوعي و محاولة تعقيل ما لم يكن معقولاً، مبيناً أن الهدف من اللامعقول ما هو إلا إمكان عقلي يعيد بناء مفهوم العقل و دلالاته.

لم يقتصر هذا الطرح على المجال الفلسفي بل تجسد أكثر في القطائع الإبستمولوجية داخل سياق النظريات العلمية ذاتها، وإظهارها لعجز هذه العقلانية و محدوديتها التفسيرية، لقد عجزت فيزياء "نيوتن" عن تقديم تفسير مطابقٍ لبعض الظواهر الطبيعية مما أدى إلى حصول أزمة في الفيزياءِ، أحدثت القطيعة والانفصال مع الفيزياء الكلاسيكية، وطرحت على إثرها أسس ومفاهيم جديدة ذات تفسير أشمل مع النظرية النسبية، إنها أزمة الأسس والأصول والمقومات لنمط معين من العقلانيات التي يعتقد أصحابها أن تفسيراتهم أشمل وأعم في تفسير الظواهر، نتج عن هذه الأزمة تغيرات بسبب تقهقر مجال العقلانية نتيجة عجز العلم عن تفسير الكثير من الوقائع بطريقة عقلية، وعدم قدرته على حل بعض المسائل التي مازالت مستعصية على الحل.

هذه التغيرات التي عرفها العلم وانعكاساتها على الإنسان والمجتمع والبيئة، شكلت إحدى الاهتمامات الرئيسية في فلسفة العلم المعاصرة مما أدى إلى ظهور حركة فكرية نشيطة تساءلت عن حقيقة العلم وآليات عمله، وطبيعة المناهج المتبعة فيه ومشروعية النتائج المتوصل إليها، فتزعزعت الكثير من المفاهيم العلمية وبدأ الاعتقاد السائد في كون العلم مؤسسة عقلانية يتلاشى يوما بعد يوم ولم يعد الخطاب العقلاني العلمي يتسم بالرسمية على حساب خطابات أخرى، وظهرت إمكانية الشك في الحقائق التي تدعي العلمية.

من المؤكد أن العلم أحدث تغيرات ملحوظة على حياة الشعوب والمجتمعات ولا يبرر ذلك نفيه لأشكال معرفية أخرى، بل على العكس من ذلك فتقدم العلم يحدث نتيجة لتداخلات و تفاعلات بين العلم و المعارف الأخرى التي توصف باللاعقلية، ومن بين الصيحات التي نادت بضرورة هذا التفاعل بين أنماط الفكر الإنساني والتفتح أكثر على اللامعقول في مجال البحث العلمي ما طرحه "**بول فيرابند**" في فلسفته الفوضوية من أفكار تنبذ كل ما هو ذوغماتي مغلق، رافع من خلالها ضد العقلانية التي يعتقد أصحابها أنها عقيدة لا تتغير، حيث اعتبرها سبباً في إقصاء الكثير من المعارف بحكم أنها ليست عقلانية، فالحقيقة والقيم متعددة الأبعاد لا يمكن حصرها في اتجاه معين أو عند جماعة بذاتها، فالعالم اليوم طوائف وأحزاب وأمم وكل منها يريد فرض عقلانية معينة على الجماعات والطوائف الأخرى.

إن العقلانية لا يمكنها أن تنحصر في خطاب محدود يدعي أنه العلم ولا في معرفة معينة تدعي لنفسها التفوق عن باقي المعارف الأخرى، فهي مجرد تقليد تختلف دلالته من اتجاه إلى آخر تجعل أصحابها يصدرون أحكاما متباينةً مما يؤدي إلى اعتبار بعض المذاهب صحيحة و أخرى خاطئة، فكل توجه علمي أو فكري يدعي عقلانية معينة، لذا يجب على العقلانية أن تكون متفتحة بطبيعتها على الحوار الدائم مع الواقع والحياة والأفكار في حركة ديناميكية من التبادل الحر تفتح مجال التحاور مع اللامعقول.

لذا يرفض "**فيرابند**" السلطة المعرفية باسم العقلانية ويدعو في المقابل إلى التعددية المعرفية والمنهجية التي تعني عنده الفوضوية واللاسلطوية المعرفية فسميت فلسفته بالعقلانية الفوضوية، وغرضه في ذلك ضرورة إتاحة الحرية داخل أسوار العلم المحصنة بنمط معين من العقلانية و بالقوالب المنهجية الجاهزة مسبقاً التي تقف عائقاً أمام ضروب من المعارف الأخرى، الثقافية و الاجتماعية و كل ما يتعلق بالإنسان من معتقدات وأفكار.

هذا الطرح الجريء في مهاجمة العقلانية والدفاع عن اللامعقول، قد يدفع بالكثير للحكم على "**فيرابند**" بأنه يبحث في هوامش الفكر العلمي، لا في جوهره، ويضعه في خندق واحد مع اللاعقليين.

غير أنني أعتقد أن القراءة المتأنية والفهم العميق لأفكار "**فيرابند**" سوف تظهر لنا مدى قدرة هذا المفكر في استخدام الحجج والبراهين والتوضيحات خلافاً لما هو شائع عن هذا الفيلسوف، فالمعروف عنه أنه لا يقبل أية قواعد منهجية ولا مكان للأفكار المنهجية التقليدية كالموضوعية والعقلانية في فلسفته، لكن ومن جهة أخرى فإنه يدافع عن بعض القواعد المنهجية التي يأخذ بها ويدعونا إلى تبنيها، وأهم هذه القواعد مبدأ وفرة النظريات العلمية والتعددية المنهجية مما يتيح الفرصة أمام النظريات العلمية وغير العلمية بالتنافس دون إقصاء لمعارف أخرى قد تساهم في تقدم العلم وتشجيع روح الإبداع،ورفض السلطوية التي يمارسها البعض بحكم أنهم يمتلكون الحقيقة ويمارسون العقلانية، هذه العقلانية مارست الإقصاء في كل صورها على اللامعقول دون بدل أدنى جهد في معاينته وفحصه والتفكير به أو على الأقل التنقيب داخل أعماقه قصد استحضار دلالاته وإعادة بنائها.

لقد تجهزت العقلانية بمقولات متعالية عبر تاريخها المتواصل وتسلحت بقواعد المنطق التي جعلت منها معياراً قطعياً تفصل من خلاله بين العقلي واللاعقلي، العلمي واللاعلمي دون أن تولي اهتماما لتلك التحولات الإبستمولوجية التي رفضت هذه المعايير، وبينت مزالق العقلانية وتجاوزاتها في تفسير الكثير من القضايا ووضعها على محك المساءلة في ما إذا كانت تدعي أنها التعبير الوحيد عن حقيقة مطلقة لمفهوم العقل، حتى يصل إلى إكتشاف وجود أنماط عديدة من المعقولية لا تمثل أي منها حقيقة نهائية أو مقياس لكل تعقل، وعلى حسب "ريكور" فإن الكثير من الأنساق الفكرية التي تعتبر ممثلة لمعنى المعقولية، ما هي إلا منظومات تأويل كبرى، حولتها لمجرد تقليد كباقي التقاليد الأخرى، فلا يمكن أن تكون حَكَماً

عليها، بل هي ذاتها تقليد، وقد تؤدي إلى النجاح من خلال تفسيرها للوقائع، وتفكيكها للكثير من الألغاز التي عجز العلم بعقلانيته المتعالية عن توضيحها.

أدى العجز الذي عرفته التصورات العقلانية، في عقلنة الظواهر الطبيعية إلى تراجعها وفي المقابل نمت تصورات قائمة على النقد والتي بينت مدى قصور الآليات المنطقية ودورها في الفعالية العلمية، هذا الأمر فتح المجال أمام الخيال والحدس والتخمين والتداعي الحر في بناء العمل المعرفي بصفة عامة والعلمي بصفة خاصة. لقد ذهب جل الفلاسفة ما بعد الحداثيين إلى نقد مهمة الإبستمولوجية في بناء نظرية علمية، قائمة على صرامة العقل ومنزهة عن كل الاعتبارات الظرفية التي تخترق قواعد المعقولية المتعارف عليها في زمن ما.

يمكن القول أن العقلانية بمفهومها الكلاسيكي هي نتاج مركب حاصل بطرح إيديولوجي لمفهوم العقل، تم تشكيله طبقاً لتصورات مسبقة مثلتها عقلانية عصر التنوير والعقلانية العلماوية الدوغمائية التي سادت القرن التاسع عشر برسمها حدود فصلت وبشكل قاطع بين المعقول واللامعقول.

أمام الانتقادات المتواصلة للعقلانية بمختلف صورها، ومع تبدل الفهم وتطوره أصبح من الضروري على العقل أن ينفتح على اللامعقول، ولا يوصد الدروب لعقلنته ويعيد بناء الفكر من خلال اللامفكر فيه لتوسيع مجال العقل، ويضعه أمام مهمة المراجعة الدائمة لأسسه ومقولاته وأطره المعرفية التي تتبدل باستمرار، فكل توسع لمجال العقلنة هو انفتاح على ما لم يعقل بعد، فلا يمكن اعتبار العقل بناءا عام له شكل تام ونهائي ولا يوجد عقل تصنيفي واحد ذو مركزية منطقية، قائم في مرحلة تاريخية معينة يتحول أو يتبدل في مرحلة لاحقة لا يقبل المقايسة كما يشير إلى ذلك "توماس كون"، مما يجعل كل مرحلة فكرية من مراحل التاريخ تتميز بمعقولية تختلف عن الأخرى لا تخلو كلها في قمة تجريداتها من الخيال.

في ظل هذه التطورات جاءت فلسفة "**فيرابند**" و تفتحها على اللامعقول كرد فعل لتلك الاعتقادات القائلة بأن الفلسفة العلمية المعاصرة ممثلة في التجريبية المنطقية والفلسفة التحليلية تشكل أرقى نموذج معرفي فلسفي باعتمادها النزعة الاستقرائية النابعة من الواقع والحس والتجربة، جاعلة من التطور الفيزيائي في العلوم الطبيعية نموذجاً لتطور الخطاب الفلسفي العلمي المعاصر، بحيث اتخذت من مبدأ التحقق معياراً للحكم على مشروعية النظريات العلمية وباستخدام الاحتمالات لتحديد درجة يقينها، وبالرغم مما بينه "كارل بوبر" من تهافت المنهج الاستقرائي، وزعزعته لأسس الوضعية المنطقية التي تبنت هذا المنهج واستبداله لنموذج العلم الفيزيقي الاستقرائي الحتمي المغلق، بنموذج العلم البيولوجي الاستنباطي اللاحتمي، معتمداً في ذلك على مبدأ القابلية للتكذيب كمعيار للتميز بين العلم والعلم المزيف، فالنظرية تعتبر علمية حقاً إذا كانت قابلة للتفنيد، فالماركسية و نظرية التحليل النفسي لفرويد علم زائف لأنها غير قابلة للتكذيب في نظر كارل بوبر.

إن الاتجاه "البوبري" لم يسلم بدوره من النقد خاصة مع ظهور النزعة النسباوية بدءاً من"توماس كون" مروراً "بلاكاتوس" ووصولاً إلى "**فيرابند**"، الذي يمثل الحلقة الأخيرة من هذه النزعة واصفاً منهج بوبر بالتكذيبية الساذجة مبيناً أنه من الصعوبة وضع حد نميز من خلاله ببن العلم واللاعلم وكل فصل بينهما هو فصل اصطناعي يضر بتطور المعرفة الإنسانية وتقدمها، فعمل على تقويض كل ما هو مطلق في المعرفة الإنسانية بما فيها المعرفة العلمية التي لا تنبع من قواعد مضبوطة. فرفض المنهج الصارم بكل قوة واعتبره معيقاً للتقدم العلمي، والمبدأ الوحيد الذي تبناه معتبراً إياه عاملا أساسيا في التقدم العلمي هو"**كل شيء جائز**"، هذا المبدأ يبعد الطابع الاحتكاري للنزعة الوضعانية والتفنيدية ويدافع عن تعدد وتنوع المناهج مؤكداً على وجودها وتوافقها مع سياقات علمية اجتماعية ثقافية متباينة، بالإضافة إلى ذلك فقد وضع موضع الشك القيمة التي تعطيها التصورات الإبستمولوجية للعلم، فوقف ضد كل محاولة تسعى إلى بناء نظرية تستهدف عقلنة الممارسة

العلمية لأنه يرى أن هذه الممارسة مصاغة على نحو معقد، تختلط فيها الأحكام العرفية الجمالية مع التصورات الميتافيزيقية والرغبات الذاتية، فدعا إلى عدم تقبل الظواهر والقوانين والأحكام ببساطة دون فحصها ونقدها ومناقشتها جيداً ومحاولة تغييرها.

هكذا تبدأ محاولة "**فيرابند**" الرافضة لكل التصورات والنزعات الدوغماتية في مجال المعرفة العلمية القائمة على فكرة الحتمية والمطلقية والتعميم، فاستيعاب الواقع في نظره لا ينشأ من خلال النماذج المغلقة الصارمة التي يضعها العلماء بل يفهم الواقع بالتفتح على كل إمكانيات التخمين المسترسل غير المقيد، لهذا شكل شعار "كل شيء جائز" عنصراً مركزياً في تصوره الفوضوي للفعل العلمي، وفي مقابل حرص العقلانيين على التماسك المنطقي وحرص التجربيين على التحقق، وحرص التكذيبين على عنصر الدحض يدعو "**فيرابند**"إلى معاكسة المبادئ العقلية بمختلف أشكالها ومعاكسة تقارير التجارب، ويرى في هذه المعاكسة عامل ابتكار وإبداع مشيداً بدور كل البناءات الفكرية الإنسانية سواء كانت بناءات دينية أو فنية أو أسطورية في تطوير المعرفة، فالتعدد ظاهرة صحية تفيد التقدم العلمي.

إن العلم في نظر "**فيرابند**" لا يمثل أرقى أشكال المعرفة، فالمفاهيم التقليدية كالعقلنة والاستدلال والموضوعية التي أعطت للعلم صفة التميز، تجاوزت الغرض الذي وضعت من أجله وأصبحت عديمة الجدوى في ظل دعاوي لفلسفات مفتوحة فرضها واقع الممارسة العلمية.

إن فوضوية "**فيرابند**" وبخلاف الفوضوية السياسية* تدعو إلى تقبل كل شيء، وترفض العقل الداعم لموقف معين على حساب مواقف أخرى دون أدنى مشروعية، لأنه يرى في ذلك عرقلة للتقدم العلمي، وكل محاولة لجعل العلم أكثر عقلانية ومنطقية يسيء للعلم في حد

*- الفوضوية مذهب سياسي قائم على أساس رفض كل أنماط السلطة، بينما الفوضوية الإبستمولوجية عند فيرابند قائمة على تقبل كل شيء، متفتحة على كل أنواع التقاليد و القادرة على تفعيل حركة تقدم العلم.

ذاته، وفي مقابل ذلك يشيد "**فيرابند**" بالتقاليد التي لا تستند لسلطة العقل، مؤكداً على ضرورة تفعيلها داخل المنظومة المعرفية والعلمية مع تبيان دورها في تحقيق النجاح.

يدافع "**فيرابند**" عن الأسطورة، الفن والدين، ويعتبرها بناءات مهمّة تحمل هماً وجودياً قادراً على تقديم مجموعة من التصورات حول الإنسان، الكون، المعرفة والقيم، فهو يضع جميع التقاليد بما فيها التقاليد العلمية على قدم المساواة، فهي تقدم لنا أنساق تفسيرية قائمة على التأويل مما يفتح مجالاً واسعاً أمام الفكر العلمي والفلسفي للاتصال بجميع الأنشطة الإنسانية المتشابكة في علاقاتها التفاعلية بكل جوانب الحضارة الإنسانية "فن_ دين_أخلاق...إلخ، لتستفيد من كل المنجزات المعرفية الإنسانية دون إقصاء أو تهميش يمارس من طرف دعاة العلمية والعقلانية.

هذا الطرح الفريد من نوعه والمتميز عن غيره والجريء في أفكاره والثائر على كل النظريات العقلانية السابقة، هو الذي كان وراء رغبتنا في اختيار هذا الموضوع لماله من أهمية ذات طابع استفزازي شاذ خرج من خلاله عن كل ما هو مألوف في الدراسات الإبستمولوجية باقتحامه قضايا يعتقد أنه تم الفصل فيها بسبب وضوحها كقضية الموضوعية والعقلانية مع إثارته لمسائل حساسة وخطيرة في الوقت نفسه، كجعله السحر في المرتبة نفسها التي تحتلها الدراسات العلمية، وتمجيده للأسطورة والدين والفن على حساب العلم.

يتمثل غرض "**فيرابند**" من هذا الطرح المتميز إلى ضرورة إتاحة الحرية داخل أسوار العلم المحصنة بالقوالب الجاهزة، التي فرضتها العقلانية العلمية الواقفة عائقاً أمام ضروب من المعارف المتعددة للتراث الإنساني، هذا التراث عملت الفلسفة منذ القدم على تبيانه وتحديد مختلف الوجهات الفكرية عن الإنسان والحياة باعتبارهما موضوعاً للمعرفة، من نتائجها الحصول على معرفة واسعة تشمل جميع الأنشطة الإنسانية، ولمّا انفصلت المعرفة العلمية ونسبت لنفسها الموضوعية والدقة والعقلانية لاعتمادها التجريب، اختزل العقل ذاته

وضيّق من مجال المعرفة وحصرت مغامرة الاكتشاف وتم تجاهل الكثير من المعارف المتعلقة بالنشاط الإنساني.

من هنا جاءت أهمية هذا البحث ليسلط الضوء على فلسفة اللامعقول عند "**فيرابند**" باعتبارها فلسفة مجددة نقدية من أولوياتها الدفاع عن حرية الإنسان وإبداعه، لها رؤية ثاقبة غير تقليدية في تاريخ العلم وفلسفته، التي لم تنل حقها الوافر من النقاش العلمي والفلسفي، فلا يمكننا أن نتجاهل أفكار هذا الفيلسوف الثائر التي شكلت أعماله إسهاماً علمياً وفلسفياً ذات أهمية كبيرة لم تقتصر على الفلسفة العلمية فقط، بل له رؤيته الفلسفية العامة وقد كانت جديرة بالتوقف عندها، كما أن نقص الدراسات الإبستمولوجية في الموضوع، كانت محفزاً لنا لإبراز هذا البحث، ولفت الانتباه إلى أهمية الحركة الفكرية الكبيرة التي شهدتها الدراسات المعاصرة في فلسفة العلم والتي أصبحت تهتم بالإنسان وبقدراته الذاتية في دفع عجلة التطور.

تفرض علينا ضرورة البحث تحديد الملامح الإبستمولوجية لفلسفة "**فيرابند**"، ومعرفة مواصفاتها وتناولها من خلال إبراز الإشكالية المحورية، وحصرها في التساؤلات التالية:

إلى أي حد يمكن للامعقول أن يفيد التقدم العلمي؟

هل فكرة التفتح على اللامعقول كفيلة بضمان حرية الإنسان و إبداعاته خارج إطار العقلانية العلماوية؟

هل مبررات رفض اللامعقول مشروعة علمياً وفلسفياً؟

هل يمكن تقبل فكرة اللامعقول لما تحمله من ضبابية والتباس داخل أوساط العلماء؟

هل هي قادرة على تحقيق مسعى إيجابي لا يعرض أبجديات العلم وأولياته للخطر؟

إلى أي مدى يمكن اعتبار أفكار "فيرابند" مشروعة؟.

لغرض معالجة هذه الإشكاليات بمختلف استفهاماتها، حاولنا تنظيم هذا العمل من خلال توزيع مواد هذا البحث وفق خطة واضحة، تتضمن مقدمة حاولنا التطرق من خلالها إلى الأسباب التاريخية والعلمية التي دفعت "**فيرابند**" إلى طرح فكرة اللامعقول، يليها أربعة فصول.

يتضمن الفصل الأول بـ "منطلقات وخلفيات فلسفة اللامعقول عند "فيرابند"، وتطرقنا فيه إلى تحليل نفسي لشخصيته قصد الكشف عن الدوافع النفسية لفكرة اللامعقول، وتوقفنا عند مختلف المواقف القاسية في حياته إلى جانب ذكر الخلفيات الفلسفية والعلمية لفلسفته في اللامعقول.

أما الفصل الثاني احتوى على الحدود الإبستمولوجية للعقلانية العلمية المعاصرة في ظل المشروع النقدي لـ "**فيرابند**"، وذلك لغرض الوقوف على تصوره النقدي لمختلف الاتجاهات الإبستمولوجية المعاصرة، سواء تعلق الأمر بنقده للعقلانية الوضعانية ذات النزعة الاستقرائية التي ترى أن المعرفة العلمية لا تنبثق من أفكار قبلية مسبقة، بل وفق معطيات حسية يشكل الواقع فيها معياراً للصدق محددةً موقفاً سلبياً من الميتافيزيقا، الأمر الذي شكل محور النقد لدى "**فيرابند**"، إلى جانب الإشارة إلى العقلانية النقدية التفنيذية "لكارل بوبر" ذات النزعة الاستنباطية التي تنطلق من نظريات عامة عبارة عن تخمينات تفندها ملاحظات جزئية، يكون فيها معيار القابلية للتفنيد معياراً أساسياً للتميز بين العلم واللاعلم، فهو يتحدث عن الموضوعية بمعزل عن الأشخاص والمجتمع، في حين أن تاريخ العلم يمدنا بتحليلات مفادها أن العلم دائم التفاعل مع المجتمع والثقافة العامة، كما تطرقت في هذا الفصل إلى بعض التصورات ما بعد التفنيدية كمحاولة "توماس كون" ضمن ما أطلق عليه مصطلح "البراديغم"أو"النموذج"، ومحاولة "إمري لاكاتوس" ضمن ما يعرف "بالبرنامج البحث العلمي" ودفاعه عن العقلانية بالاستناد إلى تاريخ العلم، هذا التاريخ الذي يستند إليه كذلك "**فيرابند**" ولكن مدافعاً عن اللاعقلانية.

أما الفصل الثالث يتضمن فكرة "التفتح على اللامعقول" وفيه تناولنا جوهر فلسفة "**فيرابند**"، التي حاول من خلالها التنبيه إلى أهمية التقاليد المختلفة ذات الطابع الاجتماعي كالدين والفن ودورهما في تطوير المعرفة بصفة عامة، والمعرفة العلمية بصفة خاصة. إلى جانب تحديد أهم معالم الفوضوية الإبستمولوجية المتمثلة في التعددية والحرية الفكرية، وأنسنة المعرفة.

الفصل الرابع وضعت فيه تصور "**فيرابند**" في محك النقد موضحاً طبيعة المشاكل التي يطرحها اللامعقول على المستوى العلمي والفلسفي، مبيناً أهم الاعتراضات المنهجية لتصوره غير العقلي من العلم، مع طرح أهم الآراء المشككة في نزعته الفوضوية. هذه الفصول الأربعة تلتها خاتمة، تضمنت تلخيصاً عاماً لأهم نتائج البحث، محاولاً الإجابة عن الإشكالية المطروحة من خلال تبيان مكانة المقاربة "الفيرابندية" وحضورها في قاموس فلسفة العلوم.

أما فيما يخص صعوبات البحث فهي كثيرة أهمها فلسفة "**فيرابند**" في حد ذاتها لما تحمله من غرابة، فهو يهاجم فكرة العقلانية كما يهاجم المنهج العلمي، ويدافع عن الفوضوية واللاعقلانية ويضع السحر والتنجيم في المرتبة نفسها للعلم، وهذا من الصعب أن يتقبله باحث مبتدئ يبحث عن المعرفة من منطلق عقلاني، كما أن موقفه السلبي من المنهج العلمي ومخالفته لكل النظريات السابقة وانفراده بالتصور الرافض للعقلانية العلمية جعلت الدراسات في الموضوع قليلة، فأفكار "**فيرابند**" لم تحظ بالدراسة الدقيقة لخطورة مواقفه القائمة على الحط من قيمة العلم، ورفضه لكل بناء علمي، ونتيجة لذلك واجهت صعوبات ذات طابع تقني تمثلت في قلة المصادر خاصة باللغة العربية، حيث ترجم عدد قليل منها أهمها"ضد المنهج" "العلم في المجتمع الحر"،"ثلاث محاورات في المعرفة" إلى جانب قلة المراجع التي تعالج فكر "**فيرابند**"، وحتى ما توفر منها لدينا على قلته فهو بالإنجليزية والفرنسية وبأسلوب متميز صعب.

أما فيما يخص الدراسات السابقة التي عالجت فلسفة "**فيرابند**" فهي قليلة بالرغم من أهمية الإشكاليات التي تطرحها، وقد اطلعت على بعض الأبحاث التي تناولت جوانب فلسفته من بينها الدراسة التي قام بها "بناصر البعزاتي" المهمة التي أنجزها في كتابه" **الاستدلال والبناء: بحث في بنية العقلية العلمية**" وضح من خلالها بنائية الإستدلال العلمي في علاقته بالأطر الاجتماعية. إلى جانب دراسات "عادل عوض" أنجزها في كتابين "**منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي**" و"**الأبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز**"، وهناك دراسة قام بها "ألان شالمرز" في كتاب له" **نظريات العلم**" كما قام الأستاذ "**هنري غينين**" من جامعة باريس بمحاولة لتحليل كتاب فيرابند"ضد المنهج" بعنوان

(Esquisse d’une théorie anarchiste de la connaissance)

هناك بعض الدراسات لباحثين عرب كتلك التي قام بها الدكتور" محمد أحمد السيد" حول **المعرفة العلمية عند فيرابند**، وهي قراءة تحليلية لكتاب **فيرابند** "**محاورات معرفية**"، بالإضافة إلى دراسات الدكتور "ماهر عبد القادر محمد علي"المتمثل في ترجمته لنصوص ومقالات "**فيرابند**" خاصة مؤلفه المشهور"ضد المنهج"طبعة 2005م، ودراسات أخرى كتلك التي قامت بها الباحثة"عزيزة بدر محمد" من جامعة عين شمس تقدمت بها لنيل شهادة الدكتوراه سنة 2006 بعنوان" طبيعة المعرفة العلمية عند كل من توماس كون و فيرابند"، والدراسة التي قام بها الدكتور "خالد قطب"من جامعة الفيوم ضمن سلسلة كراسات علمية التي جاءت تحت عنوان:"العقلانية العلمية دراسة نقدية".

هناك دراسات أخري قام بها باحثين في الجامعات الجزائرية من بينها الدراسة التي قام بها الباحث " طاهر مشقف"من جامعة قسنطينة، لنيل شهادة ماجستير سنة 2006، والموسومة ب :"مناهضة المنهج عند بول فيرابند"، وهناك دراسة أخري للباحث "سمير حسنة"من جامعة

الجزائر، تقدم بها لنيل شهادة ماجستير سنة 2010 تحت عنوان"إشكالية المنهج العلمي من التفنيدية إلى الفوضوية" حيث عالج مشكلة المنهج من منظور "فيرابند" في الفصل الأخير من الرسالة، كما نشير إلي العمل الذي قام به الباحث "بوصالحيح حمدان" من جامعة وهران بعنوان العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها" بول فيرابند نموذجا، لنيل شهادة الدكتوراه تطرق فيها إلى مختلف التوجهات في فلسفة العلم المعاصرة مبيناً موقف "**فيرابند**" النقدي منها. وكانت كل هذه الدراسات عوناً لنا في إتمام هذا العمل و توضيح جوانب فلسفة اللامعقول عند "فيرابند".

الفصل الأول

منطلقات و أسس فلسفة اللامعقول عند فيرابند

المبحث الأول

الأبعاد النفسية والفكرية لظهور فكرة اللامعقول

المبحث الثاني

الخلفية الفلسفية للامعقول عند فيرابند

المبحث الثالث

الخلفية العلمية لفكرة اللامعقول عند فيرابند

مدخل: يوصف اللامعقول في أبجديات الفكر العقلاني بذلك النمط من التفكير الساذج الخارج عن النسق العقلاني المنطقي، والذي لا يتفق مع مبادئ العقل، فهو يشكل في نظر أنصار العقلانية مظهر من مظاهر انتكاس العقل والعلم معاً، والتفلسف عندهم لا يكون عقلانياً إلا بإتباع البناء الشكلي المتماسك.

لقد ترسخ هذا الطرح عبر تاريخ الفكر الفلسفي، ووضع ثقة كاملة في العقل ومقولاته ونصب نفسه حكماً لكافة أشكال اللامعقول، فأصبحت العقلانية مفهوماً أساسياً حظيت باهتمام الفلاسفة والمفكرين، فالفلسفة اليونانية ومند بداياتها الأولى عرفت توجهاً عقلانياً في الفكر والخطاب والفعل على امتداد تاريخ هذا الفكر، واستمر هذا البحث في الفلسفة الحديثة ليقدم لنا تفسيرات شاملة قائمة على أساس المعقولية التي كانت دليل على وجودها، واعتبرت العقل عنوان الحقيقة الوحيد الذي يكشف المجهول وينير طريق العلم في فهم الطبيعة والإنسان وتسخير هذا الفهم لصالح البشرية.

لقد مست العقلانية كل نماذج الفهم ومقولات التفكير خاصة تلك التي صاغتها عقلانية الحداثة مع لحظة التأسيس الديكارتية وتوابعها المعرفية، لكن ومن جهة أخرى يكشف لنا تاريخ الفكر الفلسفي تعدد دلالات وصيغ العقلانية وتنوعها داخل مجال المعقولية نفسها، ويفتح مجال أمام اللامعقول ويعيد بناء علاقة بين المعقول واللامعقول وفق تصور يضع المعقول في محك التساؤل الفلسفي النقدي، ويحوّلنا من الحديث عن العقل الظافر المنتصر كما عبرت عنه تيارات العقلانية الكلاسيكية إلى العقل المنكسر المحدود كما صورته الاتجاهات المعاصرة التي أسست لمعالم فكر فلسفي مختلف تبدلت فيه النظرة إلى نماذج العقلانية، وتم إعادة الاعتبار لمقولات التعددية والاعتراف بالخصوصية الفكرية لمجالات توصف عادة باللامعقول كالدين والفن وجميع التقاليد المختلفة، والظفر بالمساءلات النقدية لنماذج العقل بمعناه الحداثي ولقيم التنوير الفلسفي ونظرياته في التقدم الحضاري، ومن بين هذه المحاولات ما قدمه "**فيرابند**" من تصور أسس من خلاله مرحلة أخرى من مراحل التفكير الفلسفي المعاصر، لذا سوف نحاول في هذا الفصل، أن نبين أسس ومنطلقات فلسفة

اللامعقول **عند** "**بول فيرابند**"(paul feyerabend) سواء تعلق الأمر بشخصيته المتقلبة التي تعكس المأساة والتراجيديا ،التي جعلت منه شخصية متشائمة إلى درجة أنه وصف العلم بالمزيف والشاذ، وهذا في المبحث الأول أما في المبحث الثاني نعالج فيه التصورات الفلسفية التي تأثر بها "**فيرابند**" كالشك عند السفسطائية والحرية عند "جون ستوارت مل" وصولاُ إلى عدمية "نيتشه"(Nietzsche)، أما في المبحث الثالث نتطرق إلى دلالات فهم اللامعقول في المجال العلمي من خلال بعض النماذج التي ناقشت قضايا تتعلق بمواضيع الفيزياء المعاصرة كنظرية الكوانتم والنسبية والتي تطرقت بالنقد للمسائل المركزية في العلم كالحتمية مع مقاربتها بالطرح فيرابند.

المبحث الأول: الأبعاد النفسية والفكرية لظهور فكرة اللامعقول

وقع اختياري على هذا المبحث المتعلق بحياة "**فيرابند**"، عندما شعرت من خلال بعض القراءات في الموضوع أن هناك علاقة بين الواقع المأسوي في مسار حياته الخاصة وفلسفته في الفوضوية واللامعقول، متسائلاً عن سبب رفضه لقيم العلم ومبادئه والشك في كل المبادرات الفلسفية والعلمية، فهل فلسفة "**فيرابند**" الفوضوية انعكاس لتجربة حياة قاسية جعلته يرفض كل ما هو نسقي منهجي صارم يدعي أنصاره امتلاك الحقيقة أم ناتج عن قناعة فكرية وعلمية؟

1- تراجيديا الأحداث:

كثيراً ما يندفع الباحث في تفسيره للظواهر وتحليلها من منطلقات تقربه من معرفة الحقيقة، لكن أحيانا تكون هذه المنطلقات ذاتية تتعلق بمسار حياته وتكوين شخصيته خاصة إذا كانت الأحداث التي يمر بها صعبة ومؤلمة، فتؤثر عليه لدرجة أنها تستحوذ على أفكاره وتحدد طريقة تفلسفه في التعامل مع المشكلات المعرفية، فينطلق في التأسيس لها من خلال كتاباته، قد يكون ذلك ممكن في مجالات الأدب والرواية لكن إذا تعلق الأمر بالدراسات العلمية يكون الأمر أكثر صعوبة، وهذا ما حدث مع " **بول فيرابند**"(**1924-**

1994)* الذي أسس لإيبستمولوجيا فوضوية يرى فيها حلاً لكل الصعوبات التي تعرفها فلسفة العلم، هذا الحل لا يكون إلا من خلال التفتح على كل المحاولات وتقبل كل التقاليد دون أي إقصاء.

إن الظروف القاسية التي مرة بها "**فيرابند**" منذ طفولته أورثته حساً ناقداً وولدت شخصية متشائمة من جهة وحالمة وجامحة بالخيال من جهة أخرى، فالتشاؤم انعكس على كل انتاجاته الفكرية، والعناوين التي اختارها لكتبه توحي بذلك "ضد المنهج""وداعاً للعقل""العلم في المجتمع الحر".

---

* –ولد فيرابند سنة 1924 بفينا من أب موظف وأم تمارس مهنة الخياطة لم يتمتع بطفولته بسبب حجبه عن الأقران نتيجة الظروف القاسية الناتجة عن حرب، فقد كان يقضي جل وقته داخل البيت المتكون من ثلاث غرف يتحرك بين جدرانه في عزلة تامة، كثير النوم "فخلال خمس سنوات الأولى من حياته كان ينام ثلاثة عشرة ساعة في اليوم."

« Pendant mes cinq premières années, je faisais une sieste à 13 heures tous les jours. Voir - Feyerabend Paul. Tuer le temps ; tra de l'anglais par Baudouin jurdant <<seuil ; 1996 ;>>p26 ».

كانت النافذة بالنسبة إليه المنفذ الوحيد الذي يطل من خلاله على العالم الخارجي، هذا العالم المبهم المظلم مصدر الخطر كما وصفه أبويه، هذه الفترة من حياته وقبل التحاقه بالمدرسة تميزت بالاكتئاب والحزن والخوف من الأخر نتيجة الانغلاق،.

إلتحق "**فيرابند**" الطفل بالمدرسة سنة 1930 "كان يبلغ من العمر ستة سنوات بدأ يكتشف العالم الخارجي ويتعرف على أزقة المدينة وعلى حياة الناس، وجد صعوبة في التأقلم مع هذا العالم الجديد بالنسبة إليه، لم يكن يعرف كيف تعيش الناس وكيف يجب التعامل معهم."

« J'ai commencé l'ècole à six ans. Ce fut une expérience étrange. Ayant été tenu à l'écart des rues, je n'avais aucune idée de la manière dont les gens vivaient ou de ce qu'il fallait faire Avec eux » - voir- Feyerabend Paul. Tuer le temps ; Op.cit.p27.

تعرض في صغره لكثير من المرض ونادراً ما كان يعرض على الطبيب للكشف عليه لأن أمه كانت تستعمل وسائل طبيعية فعالة في إزالة الأعراض، كان لذلك أثر على أطروحاته من خلال إشادته للطب البديل في معالجة الكثير من الأمراض المستعصية عن الحل في الطب الرسمي، "وفي السن العاشرة من عمره عرضته أمه على طبيب نفساني أظن بسبب التبول اللاإرادي."

« je devais avoir dix ans-ma mère m'emmena chez un psychiatre et la raison en était, je pense que je faisais pipi au lit. voir – .tuer le temps. p27».

بدأت قدرات "**فيرابند**" تظهر في مرحلة الثانوية التي كانت بالنسبة إليه منعرج في شخصيته العلمية، متفوق في الرياضيات والفيزياء مدمن على القراءة له خيال واسع دفعه للاهتمام بالفلك والمسرح للهروب من الواقع الصعب الذي كان يعيشه، مارس أدوار رئيسية على خشبة المسرح في الثانوية، فاتصاله بعالم الفلسفة كان صدفة أثناء تصفحه كتب المسرح تعرف على بعض كتب أفلاطون وديكارت بدافع فضوله القوي وشغفه للقراءة.

بعد إتمام دراسته الثانوية وحصوله على شهادة البكالوريا سنة 1942 رحل "**فيرابند**" إلى ألمانيا، والتحق بخدمة العمل العسكري الإجباري التي أنشأها "هتلر" لينخرط فيما بعد في صفوف الجيش النازي كانت التدريبات شاقة ومتعبة، إلتحق بفرقة المهندسين المتخصصة في الكشف عن القنابل وتفكيكها أو وضعها تارة، وفي سنة 1943 وأثناء الخدمة تلقي نبأ انتحار والدته المفجع خلف الحدث صدمة نفسية قوية وعميقة أثرت على حياته، حضر مراسيم الدفن رفقة أبيه وأعضاء من العائلة في جو مليء بالحزن، وبعد عودته للخدمة العسكرية ترقى الجندي "**فيرابند**" إلى رتبة ضابط، ونقل بعدها إلى جبهة القتال ليجد نفسه مرة أخرى في جو من الخوف والقلق وفي سنة 1945 أثناء الحرب العالمية الثانية وبإحدى المعارك أصيب بثلاث رصاصات استقرت إحداهما في عموده الفقري فشلت أطرافه السفلى وأصبح غير قادر على السير إلا بواسطة العكاز، فالحرب انتهت بالنسبة إليه[1].

كل هذه الأحداث المؤلمة جعلت "**فيرابند**" ينظر إلى الحياة بنظرة تشاؤمية، فكان ملاذه الوحيد الموسيقى والغناء فالتحق بـ "فيمار"(Weimar)، حيث درس الإنتاج

المسرحي وتاريخ المسرح والغناء،"أشرف على كتابة وتحرير حوارات ومقاطع مسرحيات وشارك في نقاشات بريخت لليساريين التي تعقب العرض المسرحي.[2]

2-المسار الفكري الأكاديمي وظهور فكرة اللامعقول :

[1] -Voir-Feyerabend Paul ,tuer le temps, tra de l’anglais par Baudouin jurdant « seuil,1996 ».p69.

[2] - انظر، فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص06.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قرر"**فيرابند**" العودة إلى فيينا لمتابعة دراسته الأكاديمية، دخل الجامعة لدراسة التاريخ وعلم الاجتماع لكن سرعان ما طلب من العميد تغيير التخصص شطر الفيزياء سمحت له هذه الفرصة بمقابلة الفيزيائي "فليكس إهرنهافت*"(Flix Ehrenhaft) اهتم بالفلسفة وتأثر بأفكار حلقة فيينا، انضم لتيار الوضعانية المنطقية، وفي سنة 1948 شارك في الملتقى الدولي الأول الخاص بمجتمع المدارس في النمسا، وعين أميناً للنشاطات العلمية هذا المنصب كان بالنسبة له اللبنة الأولى في مشواره المهني والعلمي، تعرف حينها على شخصيات فلسفية وعلمية من بينهم

كارل بوبر(karl popper) صاحب النزعة التكذيبية إلى جانب المفكر الماركسي "ولتارهوليستشار"(walter hollitscher)،" شارك في برامج "دائرة كرافت"**والتقي برواد الوضعانية أمثال"فون رايت"(von wright) ولودفيغ فتشتاين(L.Wittgenstein) والفيلسوفة الإنجليزية اليزابث أنسكومب (elisabeth anscombe) التي ترجمت بعض أعمال فتنشتاين، تناول فيها التغيرات الجوهرية التي تحدث في المبادئ العامة من جيل إلى جيل بسبب الاختلاف في اللغة والثقافة[1].

تأثر "**فيرابند**" بهذه الفكرة التي تدعو إلى تقبل الاختلاف الثقافي بين المجتمعات وأهميته في التقدم العلمي، داعياً إلى احترام التعددية التي تعني عنده الفوضوية واللاسلطوية المعرفية، فسميت فلسفته "باللاعقلانية الفوضوية"، إنها عقلانية متفتحة ترفض أن يؤسس العلم على قواعد صارمة والغرض من ذلك فتح مجال البحث أمام أنماط وأساليب أخرى من التفكير تساهم في عملية بناء العلم والقول بالمنهج الواحد الصارم الذي يدعي اليقين يعيق

---

*- فيزيائي نمساوي كان له الفضل في تطوير الفيزياء النووية حيث تمكن من تحديد مقاييس الضغط الإلكترونية.

**- - نادي فلسفي أسسه فكتور كرافت (Victor kraft) تبني الوضعانية،هدفه تأسيس فلسفة قائمة على الاكتشافات العلمية، و مناقشة واقع و حقيقة النظريات،و فصل الفلسفة عن كل ميتافيزيقا

1- Voir–Feyerabend Paul ;contre la méthode ;esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ;Henri guènin paracini ; université de paris IX Dauphine ; DEA n 124 séminaire de recherche :philosophie et management professeur responsable :Yvon Pesqueux 2002 ;p21.

العمل ويثبط العزائم ويكون سبباً في عرقلة التقدم العلمي "فكل القواعد التي يدافع عنها علماء و فلاسفة العلم باعتبارها شكلاً تنظيمياً للمنهج التعليمي إما عديمة النفع...أو ضعيفة."[1]

تبلورت هذه الأفكار لدى "**فيرابند**" عندما بدأ يشك في مبادئ الفيزياء، والسبب في ذلك هو عدم قدرته على إيجاد حل لحساباته حول الإلكترو ديناميكا، فلم يتمكن حينها من إتمام رسالة الدكتوراه في مجال الفيزياء فغير وجهة دراسته نحو الفلسفة، واتخذ موقف من المبادئ الفيزيائية التي تقوم على افتراضات منهجية يتم تجاوزها مع تقدم علم الفيزياء، فالفيزياء في نظره وإن كانت تستمد سلطتها من الأفكار، غير أنها تتلاشى أثناء البحث الفعلي التجريبي.

في عام 1951 تقدم "**فيرابند**" بأطروحة لنيل الدكتوراه في الفلسفة يتعلق موضوعها بمسألة "المنطوقات البروتوكولية" عوض دكتوراه في الفيزياء، وبعد فترة قصيرة قضاها في دراسة فلسفة العلم في "كوبنهاجن" و"ستوكهولهم" و"أوسلو"، قرر الرحيل إلى انجلترا رفقة "فتغنشتاين" ليلتحق بجامعة كامبردج سنة 1952، لكن وفاة هذا الأخير حالت دون ذلك.

التحق بجامعة كامبردج سنة 1952 فالتقى بـ "كارل بوبر" في مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة فانبهر بأفكاره[2] وتبنى مبدأ "القابلية للتكذيب"* ودافع عنه طويلاً ضد النزعة الاستقرائية حيث أصبح يؤخذ بهذا المبدأ في دائرة "كرافت" التي كان ينتمي إليها "**فيرابند**" كمبدأ مسلم به دون نقاش غير أن هذا الانبهار بفلسفة "بوبر" لم يستمر طويلاً بل تعرض لتغيير درامي أضحى يتعلق بدحض أفكار "بوبر" التي شكلت في نظره عائق أمام تقدم

---

[1] – فيرابند بول،العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي و سمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر(ب–ط)2000م،ص113.

[2]-Voir- Thierry Hoquet « Feyerabend anarchiste des science » la vie des idées,7avril 2015,Issn :2105-3030,url :http://www.laviedesidèes, fr/Paul-Feyerabend-anarchiste-des sciences html. P4

*–يستعمل كارل بوبر مصطلح القابلية للتكذيب(Falsification)كمعيار يشير إلى الخاصية الأمبريقية لنسق من القضايا العلمية أو لقضية واحدة:بمعني مدي إمكانية حمل النظرية المنطقية لمكذب محتمل أو ممكن.انظر كتاب لخضر مذبوح، فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر ص123.

العلم، فعارض "منهج التكذيب"** ووصفه بالساذج، وجد "فيرابند" في هذا الرد فرصة لتبيان توجهه الفلسفي القائم على الفوضوية الإبستمولوجية ومبدا وفرة النظريات. وهذا ما سوف نفصل فيه لاحقاً.

بدأ ينشر مقالاته الأولى عام 1954 حول ميكانيكا الكم التي انتقد فيها مدرسة "كوبنهاجن"***ورغم إشادته إلى قوة البراهين العلمية والعقلية التي قدمها كل من "ويرنرهايزنبارغ"(werner heisenberg) و"نيلزبور"(niels bohr) في الدفاع عن وجهة نظرهم، إلا أن هذه البراهين في نظر "فيرابند" لا تحمل الحقيقة المطلقة المطابقة للواقع طالما لم تنافسها نظريات أخرى، فالحقيقة لا يمكنها أن تتجسد في تصور واحد دون الأخر بل تتحقق من خلال تعدد النظريات ووفرتها

بمساعدة بوبر تحصل على إجازة من جامعة "بريستول" (Bristol) عام 1955 م بإنجلترا قدم فيها دروساً عن فلسفة "فتغنشتاين"وميكانيكا الكم، كان ذلك منصبه الأكاديمي الأول، فتقرب أكثر من الفلسفة الإنجليزية وأثناء زيارته إلى مدينة ألباخ(Alpbach) بألمانيا تعرف على "فليب فرانك" *(Philippe Frank) فأعجب بأفكاره وسعة ثقافته وقوة ذكائه وطريقته في تحليل القضايا،"حتى أن الكثير من الأطروحات التي تبناها "فيرابند" فيما بعد ترجع إلى حواراته مع "فلييب فرانك"الذي ألهمه المعلومة حول اكتشافات "غاليلي"(Galilèe) ويؤكد بأن فصول كتابه "ضد المنهج" التي عالج فيها أبحاث غاليلي مدينة إلى "فلييب فرانك."[1]

**–التكذيب(Falsification) هو الحكم على نسق ما بالرفض، فنحكم على النظرية العلمية بالتكذيب إذا تناقضت التنبؤات المستنبطة منها مع الواقع التجريبي.

***– من أهم روادها ويرنر هايزنبارغ، ونيلز بور،تنطلق من فكرة أن التفسيرات المقدم الخاصة بميكانيكا الكم لا تقدم تفسيراً موضوعياً للظواهر الطبيعية بل أي تفسير يقدم لا يخرج عن إطار الاحتمال و الرصد القياسي.

* - فيزيائي و رياضي وفيلسوف ولد بالنمسا (1884–1966) ذو نزعة وضعية وأحد أعضاء جماعة فيينا،انتقل إلى أمريكا ليدرس الفيزياء و الرياضيات بجامعة هارفارد.

1 - Feyerabend Paul. Tuer le temps ; Op.cit ; p133

في سنة 1958م رحل "**فيرابند**" إلى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ليعمل أستاذ بجامعة بيركلي (Berkeley)، وهناك اكتسب شهرته الأولي المبكرة عن أعماله في فلسفة الفيزياء خاصة ميكانيكية الكوانتم، "كان من الأوائل الذين عالجوا مفهوم "التتمة"**الخاصة بتحديد طبيعة الضوء كما تصورها "نليز بور."[1]

اهتم بمعالجة الكثير من القضايا كعلاقة النظرية بالملاحظة والتي كانت تعتبر من المسلمات لذى أنصار الوضعية، فالنظرية عندهم تمثل الإطار الفكري الذي يربط بين الوقائع والفروض وتضفي عليه نوع من الانتظام والترابط، فتتخذ صورة علاقة تماثلية لكن "**فيرابند**" ميز بين حدود النظرية وحدود الملاحظة، مؤكداً أن ما تحمله النظريات من حقائق ليست هي الحقائق نفسها التي تحملها الوقائع في ذاتها، كما عالج مشكلة العقل والجسم، وتبلورت لديه مجموعة من الأفكار حددت توجهه الفلسفي المبني على النقد فنشر مقال له في عام 1962 يتعلق بمفهوم "اللامقايسة"* إذ أن جانب كبيرا من الأفكار التي سادت عن هذا المفهوم في فلسفة العلم المعاصرة، يرجع الفضل فيه في واقع الأمر لأطروحات "**فيرابند**" المبكرة في هذا الموضوع والتي لم تخلوا من الطابع النقدي.

هذا الطابع النقدي الذي لم يسلم منه المشروع الغربي في مجال التعليم فهو يقول في هذا الصدد "لقد كانت وظيفتي تتلخص في أن أنفذ السياسات التعليمية لولاية كاليفورنيا، وكان ذلك يعني أن أقوم بتلقين الناس ما تعتقد شرذمة من المثقفين أنه معرف، ولم أفكر بعمق في مهام تلك الوظيفة التي ما كنت آخذها مأخذ الجد لو علمت بها."[2]

**- مبدأ التتمة أو التكامل يقصد به استخدام النظريتين الموجية و الجسيمية معا، مع التأكيد على أن صدق إحداهما لا يؤدي بالضرورة إلى كذب الأخرى.

[1] – فيرابند بول،ثلاث محاورات في المعرفة،مرجع سابق،ص08.

*–تشير الكلمة من الناحية اللغوية إلى عدم القدرة على تقدير شيء بمثاله، أما اصطلاحاً فهي عدم إمكانية المفاضلة بين النظريات بطرق موضوعية،أو عدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ للحكم عليها بالمعايير نفسها.انظر البعزاتي بناصر،الإستدلال والبناء،ص317.

[2] -how to be a good empiricist aplea for tolerance in matters èpistemological.In nidditch.p.h.ed.the philosophie of science.oxford university press.p.118.

هذه العبارات تبين إصرار "**فيرابند**" على رفض كل ماهو رسمي بما فيها تلك البرامج التعليمية التي يعتقد واضعيها أنها قادرة على تلقين المعرفة، مشيراً إلى أهمية التنوع والتعدد في العملية التكوينية، بل يذهب لفتح المجال أمام تقاليد أخرى حتى تلك التي توصف باللاعقلانية.

تولدت هذه القناعة لديه من خلال التجربة التي اكتسبها في ميدان التعليم بالجامعة فمع نهاية الستينات بدأت العروض تتساقط على "**فيرابند**" فتقلد حينها عدة مناصب علمية وعمل بأماكن كثيرة منها على سبيل المثال "مينابوليس"(Minneapolis)"ويل"(yale) بالولايات المتحدة، وأوكلاند (Auckland)"بنيوزيلاندا"، برلين وكسل(Kassl) بألمانيا انتقل إلى"لندن"ودرس بمعهد الاقتصاد، مقاييس تتعلق بتاريخ الإلكتروديناميكا ونظرية الكوانتم. وتعرف حينها على "امري لاكاتوس"* (Imre lakatos).

شرع "**فيرابند**" بعد ذلك في كتابة عدة أبحاث يروج من خلالها فكرة وفرة وتعدد النظريات، وهي أحد الأفكار المركزية في فلسفته. نشر مقال عام1969 بعنوان "العلم بدون تجربة" بين فيه تهافت النزعة الإختبارية التي تستند إلى أهمية التجربة في بناء النظرية، موضحاً أن الحقائق العلمية لا تستند إلى الخبرة المباشرة، ثم نشر مقال أخر عام1970 "ضد المنهج" كان بمثابة إعلان صريح تخلى فيه نهائياً عن النزعة البوبرية التكذيبية، تبعه بعمل هام تمثل في "أول كتاب له عام 1975 يحمل نفس العنوان"ضد المنهج" ترجمة إلى حوالي سبع عشرة لغة، وقد كان في نية "**فيرابند**" أن يقوم بعرض أفكاره الأساسية قي مجال فلسفة العلم، ثم

« my function was to carry out educational policies of the state of california which means, i had to teach people what a small groups of white intellectuals has decided was khowledge »

* - ولد ببودابست 1922–توفي في لندن1974.فيلسوف علم انجليزي من أصل مجري،رياضي و فيزيائي،درس بمدرسة لندن للاقتصاد رفقة فيرابند وتحت إشراف كار بوبر،أسس ما يعرف في فلسفة العلم "ميثودولوجيا برامج البحث العلمي" وناشط سياسي في الحزب الشيوعي عرف بمقاومته للنازية.

يقوم "لاكاتوس" بالرد عليه في نفس الكتاب، غير أن الوفاة المفاجئة "للاكاتوس"عام 1974 أحالت دون إتمام ذلك المشروع."[1]

اكتسب هذا الكتاب أهمية بالغة في فلسفة العلم لأنه قدم طابعاً جديداً غير مألوف عبر فيه "**فيرابند**" عن توجهه "الفوضوي"** القائم على رفض فكرة المنهج العلمي الصارم بكافة صوره بدءا بالاستقراء الذي تبنته الوضعية المنطقية وجعلت منه المنهج الوحيد في الكشف عن الواقع، كما وجه نقداً لاذعاً للمشروع البوبري صاحب النفوذ الواسع في الحقل الإبستمولوجي واصفاً بوبر وأتباعه وجميع العقلانيين بأقبح النعوت.

هكذا استهل "**فيرابند**" فلسفته في العلم بالهجوم على مناهج البحث مهما كان نوعها ومصدرها، فالقول بمنهجية علمية تكون بمثابة المعيار الشمولي الذي تستند إليه العلوم، أمر لا يتماشى مع الممارسة العلمية الواقعية ولا تؤكده الأبحاث التاريخية في العلم إذ يقول:"إن فكرة المنهج التي تحتوي على مبادئ صارمة لإدارة العملية العلمية تلاقي صعوبة كبيرة عندما تواجه نتائج الأبحاث التاريخية، ونجد إذاً أنه لا توجد قاعدة واحدة معقولة قابلة للتفنيد مهما كانت مؤسسة ابستمولوجيا، لا يتم انتهاكها في وقت ما."[2]

تعرض "**فيرابند**" إلى عدة انتقادات من طرف معاصريه خاصة بعد صدور كتابه ضد المنهج، فاعتبرت أطروحاته في الفوضوية مجرد أراء خالية من أي معنى، فجاء رده سريعاً على منتقديه من خلال مقال نشره عام1976 يبين فيه أهمية تعدد الخبرات في الأبحاث العلمية، مشيراً إلى أن الفوضوية هي معرفة وصورة جديدة من صور النزعة النسبية.

---

1 - فيرابند بول،ثلاث محاورات في المعرفة،مرجع سابق،ص09..

** - الفوضوية(Anarchisme)مصطلح استخدمه فيرابند في فلسفته العلمية للتعبير عن التعددية المنهجية،فليس هناك منهج وحيد يمكن أن نقول عنه بكل يقين أنه أحسن المناهج و أفضلها، إنما هناك ما يطلق عليه فيرابند 'كل كل 'كل شيء يصلح'وهو المبدأ الذي اعتمد عليه لرفض المنهج الذي يدعي أصحابه اليقين.وهي تختلف عن الفوضوية في المجال السياسي التي ترفض كل شيء.

2 – فيرابند بول، ضد المنهج،ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي، طبعة للطالب،الإسكندرية،2005م ص 33.

لقد طور "**فيرابند**" آراءه التي أوردها في كتابه ضد المنهج، في أعمال أخرى أهمها "العلم في المجتمع الحر"والذي نشر عام1978 تضمن توضيحات أكثر حول النظرية الفوضوية ودورها الفعال في تحرير المجتمع من سلطة العلم المطلقة، وفتح المجال أمام التقاليد الأخرى والتأكيد على النزعة النسبية باعتبارها عنواناً للحقيقة العلمية.

قام بكتابة "أوراق فلسفية" عام 1981 في ثلاث أجزاء، نشر الجزء الأول باللغة الألمانية وجزأين باللغة الإنجليزية حيث استند في تحليله للنظريات العلمية إلى تاريخ العلم واستقى جميع حججه سواء في النقد أو في التأييد من هذا التاريخ، وبين أهمية الشواهد التاريخية في الممارسات العلمية،"فأي فكرة أو مبدأ أو نظرية ترتبط بالظروف التاريخية التي أثمرتها"[1]، فتاريخ العلم بالنسبة لـ"**فيرابند**" ركيزة أساسية لتقدم العلم ووسيلة لمعرفة
النشاط المعرفي عامة والعلمي على وجه الخصوص.

واصل "**فيرابند**" إنتاجه الفكري بنشر كتاب أخر لا يقل أهمية عن الكتب الأخرى
بعنوان "العلم من حيث هو فن" عام1984 بين فيه التفاعل الموجود بين مختلف مكونات الحياة الذهنية ودور الأنشطة الاجتماعية سواء كانت علمية، سياسية، فنية، ثقافية في عملية التطور دون إقصاء أي جانب عن الأخر، هذا التداخل يعبر عن أبعاد حياة الإنسان المترابطة حيث يصعب الفصل بين عناصر الذوق والإدراك، وعلى حسب "**فيرابند**" "الفنون والعلوم تتفق على وجود عالم واحد يستدعي طريقة واحدة لإعادة إنتاجه، وغرضهما من وراء ذلك إعطاء صورة حقيقية عن هذا العالم دون تزيف أو إضافة."[2]

---

[1]- عوض عادل،الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز،دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر،ط 2004م،ص19

[2] - Feyerabend paul.la science en tant qu’art ;tra ;Françoise perigant édition Albin Michel s.a paris 2003p109.

« Les arts et les science avaient donc en commun l’idée qu’il existait un seul monde et un seul moyen de le reproduire, et leur propos était de répéter ce monde de manière exacte, sans y ajouter quoi que ce soit »

يتابع "**فيرابند**" سلسلة كتاباته ليصدر عام1987، مؤلفه"وداعا للعقل" عبارة عن مجموعة من المقالات، مثل هذا الكتاب مرحلة هامة من مراحل الإبستومولوجيا المعاصرة، هاجم من خلاله العقل والعقلانية، كما هاجم فكرة الموضوعية التي يحتمي من وراءها العقلانيون لتبرير مواقفهم وتوجهاتهم السياسية.

تساءل "**فيرابند**" عن مشروعية نتائج العلوم المعاصرة وعن شمولية المعرفة العلمية إلى جانب وسائل تطبيقاتها، في مقابل ذلك دافع عن القيم الإنسانية وعن التنوع الفكري والثقافي وتعدد وجهات النظر واختلافها في تفسير الواقع والسماح لأكثر قدر ممكن من الأفكار والتقاليد الأخرى بالظهور والتعبير عن إمكانياتها، لأن في ذلك مساهمة في تقدم العلم وتشجيع روح الإبداع وفتح المجال أمام أنماط التفكير الأخرى وإتاحة الحرية داخل أسوار العلم المحصنة بالقوالب المنهجية الجاهزة مسبقاً.

رفض السلطوية التي يمارسها البعض بحكم أنهم يمتلكون الحقيقة ويمارسون العقلانية يقول "**فيرابند**" "إن قنوات العقلانية المستخرجة من قبل الفلاسفة تعتبر جد محددة ولا تسمح للعلم بأن يكون نشاطا مبدعا، ومن ثم فإن محاربة العقل الكلي اللاتاريخي يصبح مسألة مشروعة هنا ويفقد العقل مفهومه المطلق إذا علمنا أن: التجذر السوسيو–ثقافي للعقل يجعل العلم نسبيا، إن تعقيد الواقع والتنوع الإنساني يسمح بأنواع أخرى من العقلانية، أليست الطرق المؤدية إلى الحقيقة مختلفة؟"[1].

قدم "فيرابند" كتاب أخر عام1991 بعنوان"ثلاث محاورات في المعرفة"عبر فيه عن أخر آراءه في فلسفة العلم، بكل جوانبها المعرفية والمنطقية والاجتماعية والسياسية، اختار طريقة المحاورة لعرض حججه الفلسفية بصورة مباشرة عن لسان المتحاورين، مستخدماً أسلوب الرواية المسرحية التي تضفي على العمل جواً من الألفة والتشويق.

[1] –بول فيرابند، وداعا للعقل،نقلاً عن عبد السلام بنعبد العالي،العقلانية وانتقاداتها،(ط 1) دار توقبال:دار البيضاء،2004 ص49.

أصيب "فيرابند" بسرطان في الرأس دخل على إثره إلى المستشفي وقبيل وفاته بفترة قصيرة أنهى سيرته الذاتية في كتاب عنونه بـ"قتل الوقت"، صرح في أخر صفحاته "ما أريد أن أتركه هو ليس ما كتب من مقالات وكتب أو تصريحات فلسفية، لكن ما يجب أن يترك هو الحب."[1] بعدها تدهورت صحته بسبب نزيف في الدماغ وبعد صراع مع الموت غادر "**فيرابند**" الحياة في 11 فيفري 1994، سنة بعد وفاته صدر هذا الكتاب.

شكلت محطات حياته القاسية أحد أهم منطلقات فلسفته، فالاغتراب والوحدة والترحال الدائم ومواجهة المواقف الصعبة والحزينة، جعلت "**فيرابند**" يشك في كل ما هو صارم يدعي أصحابه اليقين والمطلقية، فكان مدافعاً عن الإنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنى فاقتحم مجال اللامعقول والفوضوية، وقد يكون سببه تلك المعانات النفسية وصعاب الحياة وانتكاس رغبته في الحصول على السعادة بالطريقة العقلانية، فبحث عنها في عالم اللامعقول الصامت.

معروف عن شخصية "**فيرابند**" أنه كثير الإثارة شديد النقد مثير للجدل والسجال، كما عرف بشكه الكبير لكل حقيقة مهما كان نوعها أو مصدرها، وذلك ضمن نظريته الفوضوية التي عاش طوال حياته يدافع عنها، ويعتبرها أساس تقدم العلم، اكتسب شهرة فائقة بسبب نزعته الإنسانية وفكره القائم على النسبية وجرأته القوية في مواجهة دعاة العقلانية، إلى جانب أهمية سيرته الذاتية وانعكاسها على توجهه الفلسفي وهناك توجهات فلسفية أخرى تأثر بها "**فيرابند**" اعتبرت كمرجعيات في صقل فكرة اللامعقول لديه، وهذا ما سوف نعالجه بالتفصيل في المبحث الثاني.

المبحث الثاني:الخلفية الفلسفية للامعقول عند فيرابند

إن فلسفة اللامعقول عند "**فيرابند**" ساهمت في تأسيس توجهه النقدي، وضعت المعرفة الموضوعية العقلانية موضع التساؤل، وفتحت مجال البحث الفلسفي والعلمي أمام مختلف

[1] - Feyerabend Paul. Tuer le temps ;Op. cit ;p228.

التقاليد الأخرى، وجعلت من الإنسان مصدراً للمعرفة، هذا التصور الذي يمجد حرية الفكر في النقد كان وراءه خلفية فلسفية تأثر بها "**فيرابند**" بدءاً "بأرنست ماخ"* (Ernst Mach) الذي يعتبره مثله ونموذجه الأعلى في الإبستومولوجيا، قرأ كل أعماله وهو لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، كما تأثرب "ألبارت أنشتاين"(Albert Einstein) و"كارل بوبر" وأعجب بفلسفته أيما إعجاب قبل أن ينقلب عليه بشكل تراجيدي في المرحلة اللاحقة من حياته، كما لا يخفى تأثره ببعض المدارس والتوجهات الفلسفية، من أهمها المدرسة "السفسطائية" ونزعتها الشكية، فهو يمدح نسبية "بروتاغورس" لأنها تدعو إلى تنمية النزعة الفردية وتهتم بالتعدد، ويشيد بفلسفة "جون ستورات مل" في الحرية وما

دعت إليه من تفتح فكري وقبول لتعدد الآراء، كما تأثر وبصورة قوية بعدمية "فريدريك نيتشه" إلى جانب ذلك تأثره بالنزعة "الددائية"* (dadaisme).

1- الشك السفسطائي واللامعقول الفيرابندي:

لقد تأثر "**فيرابند**" بالنزعة السفسطائية وبصورة واضحة، ويظهر ذلك جلياً من خلال النتائج التي انتهت إليها فلسفته حيث شك في كل ماهو مطلق ورفض كل قوانين العقل والعقلانية التي تدعي تحقيق اليقين، فكل إسهاماته الفلسفية والعلمية تذوب في صالح النزعة الشكية، وتعود إرهاصاتها الأولى للفكر اليوناني مابين القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، فالشكية كعقيدة فلسفية انبثقت من أزمة المجتمع وجاءت كرد فعل على المذاهب الفلسفية السابقة التي حاولت أن تفسر العالم الحسي عن طريق المجادلات التأملية التي دارت بين

* - فيزيائي و فليسوف نمساوي درس حركة الأجسام بسرعتها القصوى خلال الغازات،يعد الأب الروحي للوضعية المنطقية، وضع مبدأ عرف في أوساط الفيزيائيين بمبدأ ماخ،يبين فيه صعوبة الاختبار التجريبي، ناقداً بدلك إسحاق نيوتن، تأثر "أينشتاين" "بقوة تفكيره، وقام بإدراج مبدئه كوحدة من الركائز الثلاثة في نظريته النسبية.

*- الددائية حركة ثقافية في الفن و الأدب، ظهرت في سوسيرا، أثناء الحرب العالمية الأولى، ترفض كل ما هو تقليدي،وتتبنى الفوضى و الرفض، ذات طابع احتجاجي نقدي، من أهم مبادئها القول بأن الفن والأدب لا يعتمد على أية قواعد،والحقيقة الوحيدة المقبولة هي المخيال.

المذاهب في تحديد حقيقة الوجود، "إن كانت تتجلى في الثبات عند"برمنيدس"(Permènidos)أوفي الصيرورة والكثرة عند"هرقليطس"(Hèraclitos)وفي ذرات ذات الحركة الذاتية أزلية عند"ديمقريطس"(Dèmocratos)وفي العقل كعلة محركة قائمة بذاتها عند"انكساجوراس(Anaxagoras)هذه التناقضات وغيرها هي التي أثارت شك رواد هذه النزعة على بناء موقف معاد لكل معرفة يعتقد أصحابها أنها يقينية."[1]

لقد شك السفسطائيين في كل المعارف ومهما كان مصدرها وجعلوا من الإنسان المقياس الوحيد لكل معرفة، فقد نقل عن بروتاغورس(Protagoras) عبر الجملة المأثورة عنه "إن الإنسان هو مقياس كل الموجودات بالنسبة إلى وجودها وغير الموجودات بالنسبة إلى عدم وجودها."[2] هذه العبارة القصيرة تمثل الثورة الفكرية للسفسطائيين في مختلف ميادين الفكر وتعني بالنسبة للنظرية المعرفة أن الفرد هو مقياس أو معيار الوجود فإن قال عن شيء إنه موجود فهو موجود بالنسبة له، وإن قال عن شيء إنه غير موجود فهو غير موجود بالنسبة له أيضاً، فالمعرفة هنا نسبية أي تختلف من شخص إلى أخر بحسب ما يقع في خبرة الإنسان الفرد الحسية، فما أراه بحواسي فقط يكون الموجود بالنسبة لي، وما تراه أنت بحواسك يكون هو الموجود بالنسبة لك، فالوجود بالنسبة لهم ينطلق من الذات ولا يكون موضوعياً بل هو في تغيير مستمر، يقول "غورجياس"(Gorgias)لاشيء موجود" وحتى لو كان موجوداً فهو غير خاضع للمعرفة وحتى وإن كان خاضعاً للمعرفة، فإن هذه المعرفة غير خاضعة للتناقل."[3]

يتبين من خلال هذا الطرح أن الحقائق ليست مطلقة بل متغيرة وتختلف تبعاً لطابعها الزماني والمكاني، وبذلك تتنكر المدرسة السفسطائية لكل المحاولات التي قامت بها الفلسفة

---

[1] - زيتوني الشريف،مشروعية الميتافيزيقية من الناحية المنطقية،تصدير محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر،(ب ط)،2006م، ص110

[2] – كونزمان بيتر وآخرون أطلس الفلسفة،تر جورج كاتورة، المكتبة الشرقية،ش.م.ل، ط1، بيروت لبنان،2001م ص35.

[3] - المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

"الإيلية"* القائمة علي محاولة إيجاد وجود موضوعي يكون بمثابة المرجع الحقيقي الذي تستند إليه المعرفة وتأخذ منه مشروعيتها، وتتفق حوله العقول، بينما المرجع الحقيقي عند السفسطائيين هو الإنسان الذي يحدد المعرفة من منطلق ذاتي وباستخدام منهج الشك، فالشكية كعقيدة فلسفية انبثقت خلال أزمة المجتمع، وجاءت كرد فعل على المذاهب الفلسفية السابقة التي حاولت أن تفسر العالم الحسي عن طريق المجادلات التأملية، وهذا التصور تجسد في فلسفة "**فيرابند**" فكل إسهاماته الثورية في فلسفة العلم تنبعث من النزعة الشكية، فأعلن بكل جرأة أنه ضد المنهج ورفض كل القوانين العلمية والاتجاهات العقلانية التي تقيد حرية الإنسان.

هذا التصور الشكي عند "**فيرابند**" كان نتيجة لعيوب التصورات العقلانية السابقة خصوصاً التصورات الوضعانية التي كانت ترى أن العلم صارم والمعرفة فيه معرفة يقينية وإلحاحها الشديد على نقاء لغة العلم والتركيز على الشروط الصارمة لمتطلبات العقلية العلمية، والاحتكام إلى معايير جاهزة يتحدد من خلالها مشروعية القوانين العلمية. رفض "**فيرابند**" هذا النوع من التصور ووصفه بالدوغمائي ودعى إلى النزعة الشكانية التي لا تقتنع بأي معيار يدعي أصحابه امتلاك الحقيقة، فاختزال العلم في قوالب جاهزة يعيق التطور العلمي، يتساءل "**فيرابند**":" لماذا يجب أن تتقيد الأيديولوجية بمشكلات قديمة ذات مغزى فقط في مضمون المهجور، وهذا يبدو سخيفاً وغير طبيعي الآن؟ لماذا يجب أن تضع في اعتبارها"حقائق" تثير مشكلات من هذا النوع أو لعبت دوراً في حلها؟ لماذا لا يجب أن تتقدم في طريقها الخاص، وتنفذ مهامها الخاصة وتمثل مجالها الخاص من الحقائق؟ على

---

*- نسبة إلى إيليا إحدى مدن أيونية بجنوب إيطاليا، تزعمها بارمينيدس الإيلي، وزينون الإيلي، وتقول بالعلم الواحد، له طبيعة لا تتغير ، وهو إن كان واحد في والعقلنة هو كثير في الحس.

أية حال، من المفترض أن تحتوي النظرية الشاملة على انطولوجيا تحدد ما يوجد، وبذلك تخطط مجال الحقائق الممكنة والأسئلة المحتملة، ويتفق تطور العلم مع هذه الاعتبارات."[1]

يفهم من هذا القول أن "**فيرابند**" يؤكد على دور المجهودات الفردية في دفع عجلة التطور وأن العلم لا يمكنه أن يختزل في نموذج صارم واحد يمتلك اليقين والصدق، وأن المعرفة متشعبة ومتعددة المصادر وأي نتيجة مهما كان نوعها لا تحمل الحقيقة وهي قابلة للنقد المستمر.

من هنا تتضح النزعة الشكية عند"**فيرابند**" القائمة على تنمية النزعة الفردية التي تتخذ من حرية الأفراد أساساً لعملية الإبداع، حتى وإن كان ذلك يفتقر إلى النظام والمنهجية، فتنوع المعايير واختلافها تتيح الفرصة لعملية الاختيار أمام شتات متنوع من الأطروحات، وهذا هو السبيل إلى التقدم الذي يتحقق من خلال تحرر الأفراد من كل القيود تفرضها المؤسسات والمناهج الرسمية على عقولنا، والسماح لأكثر قدر ممكن من الأفكار والتقاليد الأخرى بالظهور والتعبير عن إمكانياتها لأن في ذلك مساهمة في تقدم العلم وتشجيع روح الإبداع، ورفض السلطوية التي يمارسها البعض بحكم أنهم يمتلكون الحقيقة ويمارسون العقلانية، وعليه فإن فلسفة "**فيرابند**" يغلب عليها الطابع النقدي الشكي الداعي إلى فحص الظواهر والقوانين المحيطة بنا ونقدها ومناقشتها والعمل على تغييرها، فهو يرفض كافة الأطروحات والمشاريع التي عرفتها فلسفة العلم، هذا الطرح جعل من فلسفته امتداد لتراث الشكاك من الفلاسفة فهو لا يخفي إعجابه بفلسفة "بروتاغورس"حينما جعل من "الإنسان مقياس كل شيء" بل يمكن القول أن جل فلسفته ترتكز على هذه المقولة، فالإنسان بالنسبة إليه هو مصدر كل إبداع وأساس كل تطور، فهو يمدح شكية "بروتاغورس" "لأنها تهتم بفكرة تعدد القيم والتقاليد دون أن يفرض أن رؤية الفرد الذاتية، أو عاداته وتقاليده هي الوحيدة الصادقة."[2]

---

[1] – فيرابند بول،ضد المنهج، مصدر سابق، ص265.

[2]- فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص25.

إن العقلانية الجديدة في فلسفة العلم المعاصرة رفضت الانقياد للقواعد الصارمة التي حصرت المعرفة في حدود التجربة والمنطق، وأصبحت أكثر انفتاحاً على كل التقاليد والأعراف فالعلم لا يشكل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية بل هو تقليد اجتماعي دائم التغيير، هذا الطرح "الفيرابندي" يستمد أصوله من التراث الشكي عند اليونان في مواجهتهم للفلاسفة إذ دائماً نجده يعيد ويكرر بإلحاح أنه لا يمكن أن نحصر المعرفة في إطار منهج معين أو عقلانية محددة بعينها، فلا توجد قاعدة واحدة يمكن أن يتخذها العلم معياراً للحكم، بل هناك معايير متعددة، وأن لكل القواعد حدوداً كما لا توجد عقلانية شاملة ذات سلطة.[1]

يقدم "**فيرابند**" صورة عامة عن مذهب النسباوية على أنه مذهب يمارس في الحياة العلمية والحياة العملية والثقافية فما هو صادق بالنسبة للفرد أو جماعة أو ثقافة ليس بالضرورة صادق لفرد أو جماعة أو ثقافة أخرى مخالفة، فهو يبرز فكرة التعدد والتغير رافضاً بذلك العقلانية المتطرفة ومؤكداً على النزعة الإنسانية القائمة على تمجيد حرية الفرد، وهنا لا يخفي "**فيرابند**" تأثره بفلسفة الحرية عند "جون ستيوارت مل".

2- فلسفة الحرية عند جون ستيوارت مل واللامعقول الفيرابندي:

جل أطروحات "**فيرابند**" لا تخلوا من دفاعه عن "الموقف ألأنسي" الذي يقر من خلاله على حرية الكائنات البشرية بالمعني الذي نجده عند "جون ستيوارت مل" في كتاب له حول الحرية نشره عام1859 يبين فيه أهمية الحرية في الحياة الاجتماعية ودورها في عملية التنمية، فلا يمكن لأي مجتمع أن يتمتع بالحرية دون أن يكفل هذه الحريات بوجه عام وبدون قيد أو شرط، فالثابت لدى "مل"أنه لا يوجد ما يسمى بالحقيقة المطلقة ولا يمكن وصف رأي

---

[1] - voir Feyerabend Paul. Adieu la raison ; tra de l'anglais par Baudouin jurdant ; édition du seuil.1989 p93.

« Les théories, les arguments, les bonnes raisons font leur entrée sur scène à cause de la situation historique au sein de la quelle les sceptiques ont avancé leur point de vue : ils s'opposaient aux philosophes qui avaient tenté de prouver que le raisonnement conduirait à des conclusions uniques : mais selon les sceptiques, le raisonnement n'avait pas ce pouvoir »

ما بأنه مؤكد، فهو يرفض الاستبداد العقلي ويعتبره عائق أمام حرية الرأي والتعبير ويمنع الأفكار من الخضوع للنقاش، ويكرس التطرف الفكري معتبراً الفكرة السائدة هي الحقيقة المطلقة، كما رفض الاستبداد السياسي وبين حدود صلاحيات السلطة السياسية التي تمارسها على الأفراد ووضع حد للطغيان السياسي، إذ يقول"فليس في حاجة للتدليل على أنه لا يجوز للسلطة التشريعية أوالتنفيذية التي تحدد مصالحها مع مصالح الشعب، أن تفرض أراء معينة على الناس، وأن تحدد لهم ما يجوز لهم سماعه من المناقشات."[1]

الحرية تقتضي مراعاة مصالح الناس وحماية حقوقهم ليس فقط من الطبقة السياسية بل كذلك من طغيان الأغلبية أو طغيان الشعب، والذي يعتبره أشد قوة من القمع السياسي لأنه ينفد بشكل عميق إلى تفاصيل الحياة الاجتماعية، "لذا فإن الحماية من طغيان الحاكم ليس بالشيء الكافي، بل هناك حاجة للحماية أيضاً من طغيان الرأي، إذ هناك فاصل بين التدخل الشرعي للمجتمع وبين استقلالية الفرد، حيث أن أي فاصل بينهما يعد صيانة وحماية من الانتهاكات، ولا غنى عنه من أجل وضع جيد للشؤون الإنسانية، شأنه شأن الحماية من الاستبداد السياسي."[2]

فالمجتمع وإن كان يستطيع منع أي فرد وبطريقة مشروعة من إلحاق الضرر بالآخرين، لكن لا يجبره أن يفعل ما يفرضه الآخرون أنه خير بالنسبة له، فمقتضيات الحرية تشترط عدم فرض ما نراه نحن حقيقة على الغير، فكل فرد من أفراد المجتمع يجب أن يتمتع بحرية ضمير تامة، تجعله قادراً على التعبير عن آراءه العلمية والعملية والأخلاقية والدينية، وأن يبرمج لحياته الخاصة وفقاً لذوقه واهتماماته وأن ينتمي لأي جماعة سياسية تخدم أغراضه شريطة عدم إلحاق الأذى بالآخرين، فلا يمكن للأفكار أن تكتسب مشروعية الصدق بمجرد

---

[1] - جون ستيوارت مل،أسس الليبرالية السياسية،تر،إمام عبد الفتاح إمام وميشيل ميتياس، مكتبة مدبولي، القاهرة، (ب ط) 1996م،ص135.

[2] - جون ستيوارت مل،عن الحرية،تر هيثم كامل الزبيدي، مكتبة الإسكندرية، (ب ط)(ب ت) ص09

أنها تلاقي قبولاً عاماً، بل هذه المشروعية مرهونة بحق اعتراض الأفراد عليها في أي وقت من الأوقات، ولا بد على الجميع سواء كانوا حكام أم راعية أن يتقبلوا ذلك، و حتى الذين يعتقدون أن أفكارهم ومشاريعهم الإصلاحية هي الأنسب للمجتمع يجب أن يتقبلوا كذلك كل النتائج العكسية، سواء تعلق الأمر بمحاكمة من طرف الحكومة أو مقاطعة من طرف المجتمع،" أثبت التاريخ على أن الكثير من الأفكار الجديدة التي تمسكت بها أقلية صغيرة كانت صحيحة في بعض الجوانب على الأقل، وليس من المحتمل أن يحصل رأي خاطئ على ثقة عامة إذا سمح لخصومه ومناصريه أيضاً بمناقشته بحرية تامة، فعن طريق تنوع الآراء فقط تكون هناك فرصة لأن تلاقي كل جوانب الحقيقة تقديراً وإقراراً."[1]

هذه الحرية التي أسس لها "جون ستيوارت مل" كانت مصدر إلهام بالنسبة لـ"**فيرابند**" الذي يدافع عن مجتمع حر تتعايش فيه كل التقاليد جنبا إلى جنب دون إقصاء، فهو يمجد الحرية ويجعل منها أساس كل تقدم، حيث دعى للعمل على الحد من سيطرة العلم على المجتمع، ملتزماً بموقفه "الأنسي" القائم على ضرورة تحقيق أكبر قدر من الحرية والسعادة للإنسان، وإلغاء كافة الالتزامات التي يفرضها العلم والعلماء باسم العقلانية فالمجتمع الحر الذي ينشده "**فيرابند**" يمنح الفرص لكافة المعارف والتقاليد والقيم قصد النهوض بالعلم والمجتمع معاً، فلا فرق بين سيطرة رجال السياسة ورجال العلم فكلاهما يستعمل طرق غير شرعية لتحقيق مصالحهم، فالحرية عند "**فيرابند**" تكمن في التحرر من سيطرة المؤسسات ومناهج التعليم على عقولنا والسماح لأكبر قدر ممكن من الأفكار والتصورات من الظهور، والتحرر من الأفكار والبرامج السلطوية التي تمارس إكراهاً على الأفراد باسم القوانين المنطقية والعلمية.

يؤكد "**فيرابند**" على أهمية الحرية الفكرية لأنها السبيل الوحيد في تطوير العلم، ويقول "علينا أن نحرر المجتمع من القيود الخانقة التي تفرضها المؤسسة الإيديولوجية للعلم وذلك

1– كلي رايت وليم، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر، محمود سيد أحمد،تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام، دار الفارابي، بيروت، لبنان (ط 1) 2010م، ص429

تماماً كما حررنا أجدادنا من قوة خنق العلم، وذلك تماماً كما حررنا أجدادنا من قوة الخنق التي تحملها الديانة– الصحيحة– الوحيدة."[1]

هذه النظرة التشاؤمية التي تبلورت لديه اتجاه العلم، تعود إلى كون هذا الأخير أصبح إيديولوجية تحمل خصائص دين جديد قائم على مسلمات غير مؤسسة، من بينها اعتبار العلم معياراً للحقيقة إلى جانب الثقة المطلقة في ما يقوله المختصين في مختلف فروع العلم، ضف إلى ذلك الاعتقاد المطلق في قدرة العلم والتكنولوجيا على حل كل المشاكل الإنسانية، هذه المسلمات تغلغلت في النسيج الثقافي للمجتمع وكونت إيديولوجية إقصائية لكل المعارف غير العلمية.

من هنا جاءت دعوة "**فيرابند**" للتحرر من القيود التي فرضتها التصورات المنغلقة والتي اعتبرت العلم حقيقة مطلقة لا ينتابه الشك، كما دعى إلى تحرير العلم نفسه من أيدي المتخصصين الذين يعتقدون أن الحلول تقتصر عليهم دون غيرهم، وفتح المجال للمواطنين في المشاركة في اتخاذ القرار، فهم لا يحتجون إلى وصاية عليهم ويدركون ما يسعون إليه ولا ينبغي فرض أي تقليد مهما كان نوعه، فهو يؤكد على أن المجتمع الحر لن يكون مفروضاً، وإنما سينهض فقط حينما يكون في مقدور الناس أن يحلوا مشكلات خصوصية بروح تعاون يدخلون فيها بنيات حمائية...فإبداعات المواطن على مستوى صغير، إنما هي تعاون بين دول على مستوى أكبر، وهي التطورات التي أسعى إليها."[2]

---

[1]-Feyerabend Paul ; Contre la méthode. Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ;tra, de l'anglais par Baudouin jurdant et Agnès Schlumberger, éditions du seuil ; 1979 ; p 348.
« Libérons la société du pouvoir d'étranglement d'une science idéologiquement pétrifiée, exactement comme nos ancêtres nous ont libères du pouvoir d'étranglement de la vraie-et unique-religion! »

[2] - فيرابند بول، العلم في مجتمع الحر،تر، السيد نفادي وسمير حنا صادق، المجلس العلى للثقافة، مصر(ب ط) 2000م، ص43.

من خلال هذا الطرح يدعو "**فيرابند**" إلى تنمية النزعة الفردية مؤكداً أن الإنسانية وحتى العلم سيستنفع من كل شخص يقدم عمل ما، وعلى كل باحث أن يتبع الطريق الذي تمليه عليه ذاته دون أن يقلد المناهج التي يعتقد أصحابها أنهم يمتلكون الحقيقة، فلا يوجد معايير أو مقاييس ترشد العلماء خلال مراحل نمو النظريات العلمية وعلى العلماء أن يتبعوا خيالهم وكل ما يبدو لهم هاماً ومثيراً لصالح المجتمع والإنسانية.

من خلال ما سبق يتضح مدى تأثر "**فيرابند**" بـ "جون ستيوارت مل" في القول بالتنمية الفردية والزيادة في الحرية التي تنتج لنا كائنات بشرية مكتملة النمو، فرفض مركزية العقل وانفتح على اللامعقول وفي هذا الصدد نشير إلى خلفية فلسفية أخرى كان لها تأثير قوي على فلسفة "**فيرابند**" تتمثل في العدمية التي طرحها فيلسوف المطرقة "فريدريك نيتشه"(Frédéric Nietzsche).

3- من لاعقلانية نيتشه إلى لاعقلانية فيرابند:

يعد نيتشه من الفلاسفة أوائل الذين أسسوا وبصورة واضحة لنزعة جديدة تفكيكية رافضة لمشروع التحديثي الغربي القائم على العقلانية العلمية في صورتها المادية، فنشأت تيارات حاولت إعادة الاعتبار للأسطورة واللاعقل لإيمانها بأن هذا هو المخرج الممكن لأزمة الإنسان المتعطش إلى الخروج من أسر النسق، الذي فرضه العقل والعقلانية"[1]، التي شكلت واجهة المشروع العلمي في العصر الحديث، وأصبح العلم يشكل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية بسبب قوانينه الموضوعية والدقيقة، التي جعلت من مجتمع الحداثة فضاءاً خالياً من كل غائية وصار العقل المعيار الأساسي في ضبط النشاط العلمي والتقني، بل امتد أيضاً إلى النشاطات الثقافية والاجتماعية وإلى أنظمة الحكم والتسيير الإداري وإلى التحكم في السلوك والعواطف، فصيغت أنساق ثابتة وأسست أنظمة معرفية تستند إلى نقطة ثبات غير قابلة للتغيير، بل أصبحت هذه الأنظمة معياراً أساسياً للعلمية،

---

[1] - مجدي عبد الحافظة، "موقع العقل في الفلسفات ما بعد الحداثة"، مجلة عالم الأفكار، العدد2 المجلد14 أكتوبر ديسمبر 2012، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –الكويت، ص162.

في ظل هذا التصور الغربي الذي رسمته الفلسفة الغربية الحديثة ممثلة في التيار العقلاني، سواء في جانبها الثوري الإيجابي الذي أدى إلى التقدم العلمي الحضاري وما ترتب علية من ثورات تكنولوجية مهمة أسهمت في خدمة البشرية، ودورها السلبي الذي دفع بالعقل إلى التحول لمجرد أداة أنتج ما يسمى بأزمة الحداثة وتداعياتها الراهنة من أحداث دامية أصبحت تهدد البشرية، إضافة إلى تداعيات أكثر خطورة سجلت على مستوى الفكر تتمثل في انحصار الذات وسجنها داخل إطار نسقي جامد، جاءت فلسفة "نيتشه" لتمثل لحظة تبلور وتحول كبير وضعت كل معارف وقيم الفلسفة الغربية وتصوراتها موضع الشك، موجهاً مطرقته النقدية لمختلف المفاهيم الكبرى كالمعرفة والعقلانية والموضوعية حيث قام بتمزيق الحجج والأقنعة عنها ليفتح مجال اللامعقول، ويعبد طريق النقد الفلسفي لكثير من الفلاسفة من بعده أمثال ميشال فوكو(Michel faucault) و"جاك ديردا" (Jacques derrida) جيل دولوز (Gilles deleuze) ووصولاً إلى "بول فيرابند".

لقد انتبه نيتشه لخطورة الثوابت التي وضعها فكر الحداثة على الفكر الإنساني الحر وعلى إرادة الإنسان في الخلق والإبداع، فيقدم مساءلات نقدية للتخلص من هيمنة العقل ويفتح مجال اللاعقل واللانظام واللاحقيقة مقتحماً فكرة مركزية العقل الأوربي مزعزعاً أركانه ممهداً الطريق نحو اللاعقلانية، التي يرى فيها خلاصاً للإنسان من أصنام وأوهام المقدس مؤكداً "أن كل ما ينتجه العقل من مفاهيم وأنظمة فلسفية وعلمية هو مجرد تأويلات وأوهام سرعان ما تتحول إلى أصنام، فإن الحقيقة هي شيء أخر لا يمكن لكل هذه المنظومات والأنساق الإبانة عنها بل على العكس، فإنها تتكاثف لتضع دون الحقيقة حججاً صلدة يصعب إزاحتها أو زحزحتها بغير هدمها."[1]

كل المفاهيم التي يدعي أصحابها أنها يقينية بحكم العقل مثل العلية والحتمية لا تخلوا من المصلحة والتحيز، فهي مجرد أوهام وأساطير ابتدعها البعض لتمكين سيطرتهم

[1] - البكاري كمال، ميتافيزيقا الإرادة، أرخياء المعني في الذات والسلطان، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2000م، ص75.

وسلطتهم على الغير، وقبولنا لأفكار الآخرين هو مجرد خضوع "لإرادة القوة"* وليس انتصاراً لمنطق العقل، هذا التصور له ما يشابهه في فلسفة "**فيرابند**" الذي يهاجم العقلانية ويعتبرها وسيلة من وسائل الإقصاء لكل المحاولات المعرفية التي تقوم بها التقاليد الأخرى والتي توصف باللاعقلانية كالأسطورة والفن والدين، إذ يقول:"إن الذين يتباهون بالعقلانية والموضوعية اخترعوا مبررات لتفضيل ما يعتقدون به، من خلال وضع إجراءات لغرض إقصاء كل التجارب الإنسانية."[1]

إن الحقائق والتفسيرات العقلية تخضع لتوازن القوى والحقيقة التي يدعيها أصحاب العقلانية لا تماثل الواقع ولا تقترب منه وإنما هي انعكاس لإرادة القوة، فالمعرفة عند نيتشه هي أداة للقوة وكلما تزداد هذه القوة تزداد معها المعرفة، هكذا يتخذ نيتشه من إرادة القوة مبدأ لسن شريعة التأويل الفاعل وأساس لتوكيد الحياة و تقويمها، خاصة وأن الحياة هي المبدأ الذي من أجله تقوم إرادة القوة بمنح العالم والأشياء مدلولاتها فحيثما تتغير شروط الحياة والوجود تتغير معها الدلالة المعرفية "فالمعرفة عملية تفسيرية تقوم على احتياجات حيوية وتعبر عن إرادة السيطرة وعلى فيضان الصيرورة المبهم، ويذهب نيتشه إلى أن المعرفة النافعة خليط لا شكل له من الانطباعات والعلاقات فإذا تصورنا أن هذا الخليط يمثل الواقع الحقيقي أو الصيرورة نكون قد جانبنا الصواب"[2] إن الوجود الحقيقي الذي نسعى لمعرفته يتجسد على مستوى المظاهر لا على مستوى الجواهر،

---

*- مبدأ كوني يحدث التناهي في الأشياء، ويبرز ذلك موجودية الوجود بمعني أن قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول اعتبار الموجد، فالشيء يتخذ معني مغاير كلما غير المؤول من الزاوية أو المنظور الذي يؤول من خلاله.

- انظر أويغن فنك، فلسفة نيتشه، ص220.

1- Feyerabend Paul. Adieu la raison.tra de l’anglais par baudouin jurdant édition – seuil. paris 1996.p341.

«Ils vantent la rationalité et l’objectivité de la science sans se rendre compte qu’une procédure dont le but principal est de débarrasser de tout élément humain »

2 –عبد السلام صفاء علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، مصر(د ط) 1999م، ص294.

وهو تعبير عن أوهام واعتقادات مختلفة، فحقيقة الشيء في ذاته تختلف عن تصوراتنا له فما نعتقد أنه معرفة هو مجرد تأويلات محمل بخلفيات ثقافية واجتماعية وسياسية، فالحقائق العلمية والفلسفية وهم وزيف لا تعكس المعرفة الخالصة بقدر ما هي وسيلة للتأقلم فرضتها الحاجة "إن العقلنة الفلسفية والعلمية للواقع هي وسيلة ذرائعية لتيسير الحياة الإنسانية، وتدل العقلنة على الكشف عن حقائق مطلقة أو جوهرية للعالم."[1]

تجسد هذا التصور لدى العلماء المعاصرين حيث بين "هانسون"* (HANSON) أن تجاربنا ومعطياتنا الحسية إنما محملة بالنظرية، وهي مجرد تأويلات تشكلت بواسطة الخلفية الثقافية للباحث، فلا وجود على الإطلاق لمعطيات ثابتة محايدة، فما يكون ملحوظاً لا يمكن ملاحظته كواقعة مفردة، بل يمكن ملاحظته فقط من خلال ارتباطه بوقائع أخرى وكما يقول فتجنشتين(Wittgenstein)"فكما لا نستطيع تخيل الأشياء المكانية خارج المكان ولا الأشياء الزمانية خارج الزمان كذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً معزولا عن ارتباطه بأشياء أخرى."[2]

يؤيد "**فيرابند**" تصور "هانسون" فكل ما يتم إدراكه لا يخرج عن إطار الحمولة الثقافية والاجتماعية التي تشكل الخلفية العامة لمفاهيم النظرية العلمية، فكل تصوراتنا المتعلقة بتفسير الظواهر هي نتاج لاعتقادات سابقة حددت رؤيتنا للعالم.

إن العقل مهما بلغ من درجة اليقين غير قادر على إدراك المعارف بالصورة التي هي عليها وما ندعيه معرفة هو مجرد وهم لا يحمل الحقيقة، هذه الأفكار شكلت نقاط تداخل بين فلسفة "نيتشه" وفلسفة "**فيرابند**" ما يبين مدى تأثر هذا الأخير "بنيتشه" الذي يؤكد من جهته أن معارفنا تزّور الواقع ولا تقدمه على حقيقته، فهو يرفض موقف الفلاسفة الذين يفسرون العالم على أنه مظهر مطلق ثابت، فلا يوجد أشياء تحمل الحقيقة في ذاتها وإن

---

[1] –العتيري رجاة، جدلية المعقول واللامعقول، دار سحر للنشر، تونس، (د ط)2001م، ص49

* -الاسم الكامل نوروود راسل هانسون، فيلسوف علم أمريكي ذو نزعة براغماتية (1967–1924).

[2] – لدفيج فتجنشتاين، رسالة منطقية فلسفية، ترجمة د عزمي إسلام، مكتبة لأنجلو المصرية(د ط)1968م، ص64.

وجدت هذه الحقيقة يتعذر عنا معرفتها، والعالم الحقيقي ما هو إلا عالم ظاهري تم صياغته وتنظيمه حسب متطلبات المنفعة والحياة، والصورة التي نضيفها للعالم هي صورة خلقتها وسائلنا الخاصة في المعرفة من تكوين الذهن الإنساني المشبع والمحمل بخلفيات ثقافية اجتماعية.

جعل "نيتشه" المعرفة تخضع لإرادة القوة،ومقياس الرغبة في المعرفة يعتمد على هذه الإرادة التي تجعل الموجود في متناول التفكير، لغرض الحفاظ على الحياة "فأداة المعرفة بأسرها هي أداة للتجريد والتبسيط وهي موجهة من اجل السيطرة على الأشياء والإستلاء عليها وعلى هذا لا يوجد إدراك إلا بمقدار ما يكون نافعاً."[1]

يتضح أن المعرفة عند "نيتشه" لا تعكس حقيقة الواقع بل تعكس إرادة معينة مدعمة بقوة تجعلها قادرة على تغيير المسار المعرفي حسب النفع والمصلحة، فالإنسان هو الذي يصوغ المعايير التي يقرر من خلالها قيمة الأشياء ويضع أنساق يسميها بقواعد الفكر والمنطق فيصف بعضها بأنه حقيقة والبعض الأخر بأنه زيف، فالمبادئ التي تعتمد عليها المعرفة مجرد أوهام وأساطير وعقائد واستراتجيات ابتدعها البعض ليبرر فشله وعدم قدرته على مسايرة حالات الصيرورة والتغير الدائم التي تعرفها الحياة.

يرفض "نيتشه" كل الأفكار والمفاهيم التي يدعى أصحابها بأنها أزلية ثابتة ومثالية "فيصف أفلاطون بمحنط الأفكار والمفاهيم المجردة البعيدة عن متغيرات الحياة والزمن والتي فقدت معناها وأصبحت بدون جدوى مشبهً هذا الأسلوب بطريقة الفراعنة في تحنيط الكهنة والزعماء قصد تخليدهم."[2] فلا وجود لمعرفة حقيقية حسب المفهوم الأفلاطوني، كل المعارف من اختراعنا واللغة المستخدم في المعرفة مجرد خداع، وكل المفاهيم المطلقة "المثل""الجوهر""الهيولي""الله" في نظر "نيتشه" غير موجودة في حد ذاتها وما هو موجود

---

[1] –عبد السلام صفاء علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، مرجع سابق، ص294.

[2] – بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه ومهمة الفلسفة، قلب تراتيب القيم و التأويل الجمالي للحياة،دار العربية للعلوم ناشرون، ط1 2010م، ص130.

تشكل من خلال تلك الشظايا المختلفة والمتفرقة من شتات المعطيات والتخيلات والتفاسير الفوضوية التي نقوم نحن بتشكيلها وترتيبها حسب إرادتنا ونسميها في الأخير بالمعرفة، فالأشياء لا توجد لها قيمة في حد ذاتها لكن قيمتها تنتج عن فعل التقويم الذي يعبر به الإنسان عن رغباته وغرائزه يعني عن إرادته للقوة، فالإنسان هو الذي يحدد ما هو صحيح وما هو خاطئ وهو الذي يعطي الأشياء معناها ويقومها ويجعلها إنسانية تابعة له، فالصيرورة هي الواقع الوحيد ولكنها غير قابلة للإدراك أو المعرفة، ولا يمكن التعبير عنها بصدق لأنها تحمل التناقض ومنافية للواقع الحقيقي الذي لا يدركه أحد، فلا يوجد وقائع معطاة لنا مباشرة وإنما توجد تأويلات، يقول "نيتشه"لا يجب أن نبحث عن الظاهرتية في غير موضعها، فليس هناك شيء أكثر ظاهرية، وبتعبير أدق ليس هناك وهم أكبر من هذا العالم الخارجي الذي نراقبه بذلك الحس الباطني الشهير."[1]

هذه النزعة الشكية النقدية وجدت بكل معانيها في فلسفة "**فيرابند**" الذي يدعوا إلى إعادة التفكير فيما نعتقد أنه صحيح وعدم الإيمان بالظواهر والقوانين المحيطة بنا دون فحصها ونقضها والسعي لتغييرها، لأنها لا تحمل الحقيقة فالعلم باعتباره معرفة يمارس نوع من الاستبداد عندما ينصب نفسه معياراً للتمييز بين ما هو مشروع وما هو ممنوع، لكن في الأصل هو مشروع فوضوي فلا وجود لنظرية علمية متماسكة خالية من شوائب الزيف واللاعلم، بل أن العلم يتطور في ظل التعدد والاختلاف يعنى الفوضوية" فالعلم من الجهود الفوضوية الأساسية، و تعتبر الفوضوية أكثر إنسانية وأكثر قدرة على تشجيع التقدم مقارنة بالبدائل ذات القوانين و النظم."[2]

إن النقد الذي وجهه نيتشه للمعرفة لا يخلو من نقده للعقل وهنا يبدو تأثير "نيتشه" على "**فيرابند**" جلياً من خلال رفض مركزية العقل والتفتح على اللامعقول، فالفكر الفلسفي

---

[1] – نيتشه فريدريك، إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة و تقديم محمد الناجي، أفريقيا الشرق،المغرب، (د ط) 1991م ، ص202.

[2] – فيرابند بول، ضد المنهج، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي، طبعة للطلبة،2005 م، ص21.

طيلة تاريخه آمن بقدرة العقل في التحكم في العواطف والسلوك والسيطرة على الطبيعة وإعطاء الأولوية في تحقيق الوعي والتمييز بين ما هو حقيقي وما هو زائف وجعل بعض القدرات الأخرى كالإرادة والرغبة أفعال لاحقة بالعقل، ووضع تقاليد المجتمع وثقافته وفنونه ومعتقداته في خانة اللامعقول، هذا التصور الذي رسخته النزعة العقلية التي تبنت مركزية العقل مع "ديكارت"(Descartes) و"سبينوزا"(Spinoza) وغيرهم من دعاة العقلانية الذين تبنوا مركزية العقل، رفضه الكثير من الفلاسفة ابتداء من "شوبنهاور"(Schopenhauer) الذي أسس لتراتيب جديدة وضع الإرادة في قمة الهرم وجعل العقل تابع لرغباتها، "فالعقل في الفلسفات السابقة، مثل القدرة التي يتجوهر بها الإنسان في الكون، وبه اعتبر غاية الوجود وجوهره وبأن الكون بأسره خلق من أجله فإن المعادلة ستنقلب مع "شوبنهاور " الذي لم يتوان في الانقلاب عن العقل، وثانياً على الإنسان، ككائن ظل طويلاً يتوهم أنه حيوان عاقل."[1]

هذه الإرادة التي تحدث عنها "شوبنهاور" تبناها "نيتشه" ليفتح جبهة جديدة من الفلسفة، ويشق لنفسه حقلا معرفيا جديدا قوامه النقد لكل الثوابت والقيم، ومن أهم انتقاداته تلك التي وجهها لمبادئ العقل، فينزع عنها صفة الحقيقة ويعتبرها قوانين ذاتية خالصة تخضع لحركة الحياة وصيرورتها المتغيرة، "فمبدأ الهوية الذي ينص على بقاء الشيء على حاله ومطابقته لذاته دوماً، فإن هذا الأمر لا يتماشى مع حالات الصيرورة، فمبدأ الهوية وسيلة يصنعها العقل للاهتداء إلى نقطة واضحة خلال تيار الصيرورة الذي لا ينقطع."[2]

يعتبر "نيتشه" أن مبادئ العقل مجرد أوهام يستخدمها الإنسان ليبرر نفعه من الناحية العملية، وهي لا تخرج عن إرادة القوة وأكبر وهم آمن به الناس هو العقل فلا نحتاجه في حياتنا، إذ يشكل خطراً باعتماده الإقصاء الذي يمارسه على التقاليد الأخرى بحكم أنها لا تتماشى مع العقل ومبادئه، كما أنكر "نيتشه" الكثير من المفاهيم واعتبرها مجرد صيغ

---

[1] – بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه و مهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص39.

[2] – عبد السلام صفاء على جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، مرجع سابق، ص299.

اصطلاحية، فالذات والموضوع والعلة والمعلول والجوهر والكينونة، كلها معاني لا وجود لها وهي من نتائج اللغة لا غير، ومجرد مقولات نحوية بعيدة عن الواقع وليست عقلية أو وجودية.

أما بالنسبة لمقولة "الضرورة التي تعتبر الركيزة الأساسية للعقل العلمي فهي مجرد تعبير عن قوة ما، والغائية ما هي إلا نشاط من التفاعلات تعبر عن نظام القوة، ولا يوجد ما يسمى بالعلة، إنها مجرد خوف من الأمور غير المألوفة، إنها مجرد بحث عن المألوف، والقول بالعلة والمعلول ليس إلا محاولة لتنظيم العالم على نحو يجعله معقولاً ومقبولاً."[1]

إن حقيقة الوجود وجوهره يتناقض مع العقل الذي يدعي معرفة كل شيء فلا يمكن معرفة العالم المتنوع والمتعدد بواسطة العقل المحدود، لأن معطيات الحياة ليست على نمط موحد مما يجعل العقول تختلف في تأويلاتها إزاء الأمر الواحد، والتأويل المشروع الذي يفرض منطقه وتفسيره هو التأويل الذي يمتلك مؤوله القوة، فيحقق نجاحاً يوصف بالحقيقة، لا يوجد عقل إنساني واحد وإنما توجد عدة عقول تتمايز بتمايز الظروف والأحوال والإرادات، فتختلف الآراء باختلاف العقول، فالحقيقة الثابتة ليست في متناول إدراكات العقل، بل هو مجرد تعبير عن عناصر متلاطمة في الواقع، فكثير من الدوافع المظلمة لا يدركها العقل رغم ما يدعيه من عقلانية في تفسير الظواهر، فالواقع يشهد حركة دائمة يسميها "نيتشه" بالصيرورة التي لا يستطيع عقل الإنسان احتوائها بصفة شاملة، فما يعرف بأنه حقيقة فهي من منظور معين لا تعكس حقيقة الواقع في ذاته، بل تعكس حقيقة منطق القوة أو كما يسميها "نيتشه"الحقيقة "الديونزية."*

يرى "نيتشه" أن اللاعقلانية تمثل البديل لعلاج كل التصورات المنغلقة التي يعتقد أصحابها أنها تمثل الحقيقة "فالاعتقاد السائد بأن العقل الإنساني قادر على التوصل إلى

1 – المرجع نفسه، ص 300

*-هي الحقيقة التي يؤمن بها الرجل الأعلى المتفوق.

علم يستطيع أن يزوده بمعرفة يقينية وانساق أخلاقية (أي أن يوسع العلم والعقل أن يحل محل الدين) هو وهم ليس إلا."[1]

يتخذ "**فيرابند**" موقفاً مماثلاً إذ يبين أن العقل غير قادر على إدراك المعارف بالصورة التي هي عليها والعقلانية ما هي إلا قناع يستخدم من طرف أصحاب المذاهب والأيدلوجيات يجسدون بها مواقف خفية ويمارسون السلطة لإقناع الآخرين ويستخدمون البراهين العقلية حسب الحاجة،إذ يقول:"إن الحجج العقلية التي يدعي أصحابها أنها عقلانية لا يمكنها أن تكون مقنعة إلا بالنسبة للأشخاص الذين هيئوا للاقتناع بها مسبقاً."[2]

يقترح "**فيرابند**" بدائل ضد الدوغمائية التي يمارسها العقل على أنماط التفكير المختلفة، ليثبت أهمية اللامعقول في تقدم العلم وتحرير الفكر من قيود العقلانية، لأن ذلك يفتح مجال التنافس أمام مختلف التقاليد الفنية والدينية والثقافية للمشاركة في عملية التطور، ويؤكد على أهمية انجازات الحضارات القديمة في ميدان علم الفلك والهندسة والطب كما يشير إلى"حقباً مشهورة في العلم يفخر بها علماء وفلاسفة، بل عامة الناس لم تكن عقلانية فهي لم تحدث بطريقة عقلانية حيث أن العقل لم يكن هو القوة المحركة لها و لم يتم الحكم عليها بصورة عقلانية."[3]

فالعلم ليس نظاماً معرفياً مقدساً ولا يشكل أرقى أشكال المعرفة إنما هو ينمو ويزدهر وسط شتات من الأنظمة المعرفية الأخرى التي تحيط بنا، وتحركها عوامل الوعي الحضاري للمجتمع عبر مراحل الزمن المتواصل وصيرورة الحياة، فإذا كان الفكر الحداثي ينظر إلى الحداثة على أنها انتصارا للعقل، فإن "نيتشه" يرى فيه انتكاس بسبب الاغتراب لقوى النفس

---

[1] -عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت،(ط 1)،2010م، ص173.

[2]- Feyerabend Paul adieu la raison ; Op.cit. p 341.

« Les arguments ne marchent pas avec tout le monde, ils ne marchent qu’avec les gens qui ont été préparés à les recevoir de façon appropriée »

[3]- فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، نشر منشأة المعارف الإسكندرية (د ط)(د س) ص208.

و الطاقة الإنسانية، فالعلم لا يمتلك السلطة العقلانية المطلقة التي توجه باقي الأنشطة الاجتماعية، لأنه نتاج لتضافر نشاطات كثيرة إنسانية واجتماعية.

لذا يجرد "**فيرابند**" العلم من سلطته المطلقة على المجتمع ويدعو إلى تحريره وفتح المجال مع مختلف التقاليد وهذا تماشياً مع النزعة الفوضوية التي يرى فيها حلاً لتجاوز الأطروحات المنغلقة التي عرفتها الاتجاهات المعاصرة في فلسفة العلم، سواء تعلق الأمر بالنزعة الاستقرائية التي جعلت من الخبرة الحسية المصدر الوحيد للمعرفة واختزلت العلم في حدود معطيات الواقع متخذتا مبدأ "التحقق"* معياراً لتحديد مشروعية النظريات العلمية، فالقضايا لا يكون لها معنى إلا إذا كان من الممكن التحقق من صدقها أو كذبها، وهذا ما دعت إليه جماعة "حلقة فينا"* في حين تبنى'كارل بوبر"(karl popper.) المنهج الاستنباطي متخذ من النزعة التكذيبية معياراً لبناء النظريات العلمية.

إن العالم الذي دعى إليه "نيتشه" هو نفسه العالم الذي تبناه "**فيرابند**" عالم بدون مركزية ولا سلطوية، فلا يوجد عقل إنساني واحد متكامل وشامل يصدر أحكام كلية على حقائق الوجود، إن العقل ليس مستقلاً عن العناصر المحيطة به في الواقع والمنطق والأفكار الثابتة لم تكن ثمرة رغبة في المعرفة الحقيقية، وإنما الدافع الحقيقي من وجودها هي السيطرة والامتلاك.

يقدم "**فيرابند**" تفسيراً مشابهاً فهو يدعو إلى تحرير العلم من سيطرة السلطة وفصل السياسة عن العلم، لقد تم تقديس العلم إلى درجة أنه أصبح الوسيلة الوحيدة لحل كل

---

*هو جملة العمليات التي تضع بها فرض من الفروض موضع الفحص التجريبي وينصب بوجه عام على حالة معينة.انظر المعجم الفلسفي مدكور إبراهيم، ص170

*- نشأت حلقة في فيينا عام 1922م، لغرض مناقشة الأفكار العلمية والفلسفية،مبدأها العام ما أقره العالم أرنست ماخ،ومؤداه أن العلم أساسه وصف للتجربة والخبرة،ترأس هذه الحلقة موريس شلينك،أستاذ العلوم الاستقرائية بجامعة فيينا، سميت فيما بعض بالوضعية المنطقية،حيث لعبت دوراً بارزاً في تشكيل طابع التفكير العلمي والفلسفي، من أهم روادها كارل ناب، فتجنشتاين، نيرات، فيكتوركرافت

مشاكل الإنسان وفك كل أسرار الكون، فأصبح العلم عقيدة قوية أدت إلى إقصاء أنساق معرفية أخرى وصفت باللاعقلانية، ومن تم أصبح العقل العلمي هو المصدر الوحيد للتطور المادي والتشريع الاجتماعي والأخلاقي، وتعالت صيحات تدعو إلى علمنة السلوك البشري وثقافة المجتمع كمحاولة لمراقبة النشاط الإنساني والاجتماعي كما هو الأمر في ميدان الطبيعة، فالعلم هو نتاج لجهد اجتماعي يشارك فيه جميع أفراد المجتمع يقول"فيرابند":"فعندما يتولي الرجل العادي الإشراف على العلم، يضحى العلم والعلماء خاضعين للمجتمع وليسوا أسياداً عليه."[1]

يرفض "**فيرابند**" القول بالمنهج الصارم الوحيد في المعرفة العلمية ويشيد بالتعدد والاختلاف الذي يمكن الفرد من إبراز طاقاته ويسمح له بالمشاركة في أي انجاز علمي أو معرفي، وهذا ما أشارة إليه "نيتشه" من قبل إذ يلح على ضرورة اكتساب معاني جديدة وأطروحات غير مألوفة تحل محل الثابت المقدس وتخترق مجال اللامعنى واللاعقل وتسقط جميع التأويلات التي أصبحت تلف العالم والوجود، فالقول بالحقيقة المطلقة وبالمنهج الصارم هو ضرب من ضروب التعصب، يقول "نيتشه" لقد تم استعمال وتشجيع الحقيقة، أعني المنهج العلمي، من طرف أولائك الذين خمنوا فيها أداة حرب عملاً هداماً... ولكي يتم الاعتراف بهم كخصوم احتاجوا فضلاً عن ذلك إلى أداة شبيهة بتلك التي استخدموها:-كانوا يظهرون فكرة الحقيقة بشكل مطلق مثلما يفعل خصومهم-أصبحوا متعصبين."[2]

لا يعترف "نيتشه" بالحقيقة الموضوعية ويعتبرها مجرد اختراعات من إبداع العلماء والفلاسفة لأسباب ذرائعية ونفعية، فلا يمكن اعتبارها نموذجاً للمعرفة الحق فهي لا تعكس الواقع على حقيقته فلا علاقة بين استنتاجات العقل الفلسفي والعلمي وبين الواقع، إن العقل

---

1 - عوض عادل، الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (ط 1)2004م، ص55.

2 - نيتشه فريدريك،إرادة القوة، مرجع سابق، ص195.

حسب "نيتشه" سواء في شكله الفلسفي أو في شكله العلمي الرياضي، غير قادر على استيعاب المظاهر المختلفة للوجود والحياة ولا الإحاطة بها ولا تفسيرها موضوعياً يقول "نيتشه":"إن الإنسان الموضوعي مرآة متعود على الرضوخ لكل شيء يريد أن يعرف."[1]

ففهم الوجود لا يكون على المستوى النظري بل يستخلص من معايشة المظاهر وهي تختلف باختلاف الاعتقادات والتصورات، فالعقل لا يمكنه فهم كل مستويات الحياة خاصة تلك المرتبطة بالرغبة والعاطفة، فالإنسان يحيا مستوى أخر مغاير لمستوى العقل الموضوعي، يتمثل في مختلف التقاليد الأخرى فدراسة الفن والموسيقي والمسرح، وكل مظاهر الحياة المتعددة التي يعيشها الإنسان لاتخضع بالضرورة للتفسير العقلي.

تجسد هذا الطرح في فلسفة "**فيرابند**" من خلال رفضه للموضوعية التي يرى أنها جردت الإنسان من إنسانيته، "فالقول عن فكرة بأنها موضوعية صادقة، اتجاه يتجاهل ويدعو إلى تجاهل التوقعات والأفكار والتوجهات والرغبات الإنسانية"[2] وفي المقابل يقترح الفوضوية كبديل لها لأنها تقدم الفرص لكل الأفكار والتقاليد لكي تنموا على قدم المساواة دون تعطيل إحداها بداعي الموضوعية، فلا يمكن أن ننقل الواقع بصورة موضوعية كما هو بل نصفه من خلال تصوراتنا الخاصة المحمل بالطابع الثقافي والاجتماعي، لذا فالقول بالموضوعية لا أساس له من الحقيقة لأن الباحث لا يمكنه أن يتجرد من هذه التصورات ومن طابعه الذاتي، فأصحاب التصورات المختلفة يقولون بالموضوعية لإطفاء صفة الشرعية على أفكارهم لا غير، فكل تصور أصبح يصف ما يقوله بالموضوعية ويصفون أفكار غيرهم بالذاتية.

إن تطور العلم يقتضي عدم التمسك بفكرة الموضوعية لأن ذلك سوف يؤدي إلى إقصاء الكثير من النظريات بحكم أنها غير موضوعية، فالعلم في نظر "**فيرابند**" ذو طابع إنساني فمن الطبيعي أن تؤثر فينا الذاتية الإنسانية، فالإنسان لا يستطيع أن ينقطع عن ميولاته

---

[1] - نيتشه فريدريك، ما وراء الخير والشر،تباشير فلسفية للمستقبل،دار الفارابي،(د ط)1885م، ص161.

[2] - عوض عادل، الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص17.

ورغباته ويتجرد منها بصفة مطلقة، فعناصر الشخصية تعكس تجربة اجتماعية ثقافية تلعب دوراً هاماً في تكوين ملكة الحس المشترك لدى الفرد.

إن الممارسة العلمية لا يمكنها أن تكون موضوعية، فالعلماء يتعاملون مع الواقع من خلال النظرية العامة التي تحدد الطابع الفكري الناتج عن تداخل مجموعة من القيم الاجتماعية، وأي محاولة لفرض نمط يدعي أصحابه موضوعية ما سوف يؤدي ذلك إلى فقدان القيم الإنسانية، "إن العلم يلاقي حالياً مشاكل ذات طابع تقني، تتعلق بمراقبة التسلح، والتي لم تعالج بطريقة موضوعية، وهذا بسبب تدخل عناصر الذاتية المتعلقة بثقافة الفرد".[1]

لكن ومن جهة أخرى فإن "**فيرابند**" يرفض أن نربط العلم بالإرادة الإنسانية القائمة على المصلحة، "أصبح أساس العلم المصلحة الإنسانية، وبذلك فقد العلم عقلانيته الموضوعية في الطبيعة وصار تابعاً لقرارات الإرادة الإنسانية ومصالحها، فهي كأية إيديولوجية تصدر عن الإرادات الإنسانية."[2]

من خلال التحليل السابق يظهر مدى قوة تأثير فلسفة "نيتشه على أفكار"**فيرابند**" فإن كان "نيتشه" قد وجه مطرقته على كل القيم الاجتماعية والأخلاقية، فإن "فيرابند" استعارة منه هذه المطرقة لوجهها وبنفس الطريقة على العقل والعلم والمنهج ليشق طريق البحث اتجاه مساءلة العقل وفتح مجال اللامعقول ووضع كل الممارسات العلمية موضع الشك.

المبحث الثالث:الخلفية العلمية لفكرة اللامعقول عند فيرابند:

سيطرت الفيزياء الكلاسيكية على الفكر العلمي لفترة طويلة، واستندت في ذلك إلى الإيمان الشديد بالحتمية والانتصار للعقل وقدرته على الإحاطة بكل ما في الكون علماً واعتقد العلماء بأن قوانين الطبيعة ليست اكتشاف لما هو موجود من قبل، بل هي نتاج

---

[1]-Dissaké Emmanuel mallalo. Feyerabend. Épistémologie anarchisme et société libre ; paris : puf .2001 ; p66.

[2] - حاج إسماعيل، حيدر، بنية الثورات العلمية، دراسة منشورة في مجلة الاعرب والتفكير العلمي، العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون، بيروت،2008م، ص112.

لعبقرية العقل الذي يفرض مبادئه على الطبيعة حيث استخدمت الرياضيات في معالجة القضايا التجريبية والتوفيق بين النتائج والمشاهدات، لكن هذه مفاهيم الرياضية التي ابتدعتها الفيزياء الكلاسيكية لم يكن الهدف منها التعبير عن المعطيات التجريبية بل إعطاء النظرية العلمية قوة تفسيرية أكبر، هذا التفسير أوهم الكثير بأن النظريات تصور الواقع تصوراُ حقيقياً وبطريقة أولية سابقة عن التجربة، واستقر في وجدان العلماء شعور عام بأن العلم قد كشف عن كل الحقائق حتى أنه لم يعد أمام الأجيال التالية من العلماء سوى تنقيح التجارب السابقة دون أدنى أمل في تحقيق كشف جديد.

لكن سرعان ما تبددت هذه الثقة المفرطة وفوجئ العالم بنظريتين جديدتين هزت ركائز الفيزياء الكلاسيكية، ويتعلق الأمر بالنظرية النسبية ونظرية الكوانتم اللتان أبدعهما القرن العشرون كمخرج من الأزمة، فانهارت حقيقة الحتمية الميكانيكية"[1] فلم يعد النموذج الفيزيائي الكلاسيكي وحده مثالاً للعلمية مع الأبحاث المنطقية، فظهور اللاتعيين واللاحتمية وميكانيكا الكوانتم وحركة الإلكترونات وتطور البيولوجيا المعاصرة التي أظهرت صعوبة الدفاع عن الحتمية والعقلانية العلمية أدت إلى ضرورة معالجة الفكر الإنساني ونشاطاته بصورة عامة وبدون إقصاء لأي جانب سواء كان العقلي أو اللاعقلي، وهذا ما دفع "**فيرابند**" لمحاولة تحليل النظريات العلمية المعاصرة والكشف عن الجوانب اللاعقلية فيها.

1- الفلسفة العلمية لأرنست ماخ:

يعد العالم الفيزيائي "أرنست ماخ" من بين الشخصيات العلمية التي أثرت على فلسفة "**فيرابند**" من خلال معالجته للمسائل العلمية معالجة ابستمولوجية مستنداً في ذلك لتاريخ العلم، فمعظم النقاشات التي دارت بين الوضعيين الجدد حول دور وقيمة التجربة في بناء النظرية العلمية تعود إلى الطرح "الماخي" القائم على النقد الإبستمي الذي ارتقى إلى مستوى النظرية الإبستمولوجية، فهو يرى "أن مهمة العلم ليست الإطلاع على حقيقة العالم الواقعي

---

[1] - يمني طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول- الحصاد- الأفاق المستقبلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط1، 2009م، ص131.

كما هي، بل فقط اقتصاد الفكر، أي تجميع الانطباعات الحسية في صور ومركبات ذهنية، وإدماج هذه الصور الذهنية بواسطة القوانين."[1]

عالج "ماخ" الكثير من المسائل الفيزيائية وبحث عن كيفية نشأتها وما هي الوسائل التي اتخذتها في تطورها العلمي، وكان لهذه الدراسة فائدة علمية بينت أثر المنهج واختلافه في تطور العلم ومعرفة الطرق التي كانت دليل العلماء في بحوثهم، وهو التصور نفسه الذي ألح عليه "**فيرابند**" من خلال رفضه للمنهج، إذ يقول"إن فكرة المنهج التي تحتوي على مبادئ صارمة لإدارة العملية العلمية تلاقي صعوبة كبيرة، عندما تواجه نتائج الأبحاث التاريخية فلا يوجد قاعدة واحدة معقولة قابلة للتفنيد مهما كانت مؤسسة إبستومولوجيا، إلا ويتم انتهاكها في وقت ما."[2]

فالقواعد المنهجية في نظر "**فيرابند**" لابد وأن تستمد من الممارسة الواقعية المرتبة بحياة الناس والمجتمع ولا وجود لقواعد جامدة خارجة عن هذا الإطار وهو في ذلك ينطلق من موقف إنساني يتمثل في الحث على الإبداع، وذلك بفتح مجال البحث أمام مختلف الأفكار والتصورات، فالإنسان هو مصدر العلم الوحيد وما المناهج إلا وسائل محددة سلفاً، والعلم هو محصلة لعملية البحث الإبداعي التي تحتاج إلى توفر مناهج متعددة.

هذا الموقف النسباوي في فلسفة "**فيرابند**" أشار إليه "ماخ" من قبل، فالمعرفة الإنسانية بالنسبة إليه غير ثابتة وهي دائمة التطور والصيرورة تتغير وتتسع كلما أمدتنا الخبرة بأشياء جديدة، ولا يمكن أن يستمد العلم حقائقه من الطبيعة فقط لأن القوانين الطبيعية لا تمثل حقائق نهائية بل يستمدها كذلك من الفكر، فالمنهج العلمي الذي اعتمده "ماخ" في بناء نسقه الفكري يجمع بين الفكر والتجربة، فالفكر له دور هام في صياغة القوانين وتوسيع نطاق تطبيقها، "العلم بالنسبة لماخ ليس إلا مقارنة أو ترتيب الخبرات تبعاً لوجهات نظر وطرق

[1] - علي حسين كركري، الإبستمولوجيا في طور الفكر العلمي الحديث، المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، (د ت)،ص33.

[2] – فيرابند بول،ضد المنهج،مصدر سابق، ص33.

معينة نرتضيها، وبذلك نحصل على الأفكار المجردة والقوانين نتيجة لهذه الفعالية في الترتيب ويصبح للأفكار معنى في حالة إشارتها إلى الأشياء."[1]

إن ما يميز فكر "ماخ" تفتحه على مجالات المعرفة المتنوعة، فهو وإن كان يعالج المسائل الفيزيائية المحض كالحرارة والحركة، فإنه ومن جهة أخرى درس العلم دراسة ابستمولوجية، حيث اهتم كثيراً بالعلاقة بين علم النفس والفيزياء، واعتبر العلم مجرد فعالية تتكون تدريجياً من خلال ترتيب الخبرات الفردية الأولية، لذا لم يفصل بين عالم الخبرة الحسية والعالم العلمي، مؤكداً على ضرورة استبعاد الأفكار الخالية من المعنى التجريبي، فمشروعه العلمي قائم على محاربة التصورات الميتافيزيقية التي تعرقل تطور العلم ومن بينها وجود فكرة المكان المطلق والزمان المطلق، وهو التصور الذي تبنته الفيزياء الكلاسيكية، ويرى فيه ماخ تصوراً مثاليا ميتافيزيقياً بعيداً عن معطيات التجربة حيث يعتقد "نيوتن" أن المكان وعاء خال توضع فيه الأشياء بينما يرى "ماخ" أن المكان يتمثل في مجموعة العلاقات المكانية للأشياء، بذلك يكون أول من أدرك نقاط الضعف الموجودة في فلسفة "نيوتن" العلمية ممهداً الطريق للظهور النظرية النسبية.

تأثر"أينشتاين" بفلسفة "ماخ" خاصة مساهمته وفضله في نشأة نظرية النسبية وهذا راجع لمواقفه اتجاه المفاهيم التقليدية الميتافيزيقية المغلقة، فالنقد الإبستمولوجي الذي قدمه "ماخ" شكل ثورة في تاريخ الفيزياء، فظهرت مفاهيم وتصورات جديدة حولت مسار العمل الفيزيائي من المنهج الكلاسيكي إلى منهج الفيزياء الحديثة، ورغم المجهودات التي قام بها بعض الباحثين أمثال "ماكسويل" "هوتر" من قبله قصد تجاوز إطار الميكانيكا الكلاسيكية إلا أنهم لم يتمكنوا من الخروج عنها بسبب انغلاقهم داخل العمل الفيزيائي المحض"[2].

---

[1] – خليل ياسين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دراسة تحليلية ونقدية للاتجاهات العلمية في فلسفة القرن العشرين، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان_الأردن/راما لله_فلسطين، 2012 ص244.

[2] - انظر،المالكي علي، الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند "ألبار أينشتاين"مرا جعة وتقديم أ د عبد القادر بشته، الدار التونسية للكتاب، الطبع الأولى تونس،2013م، ص110.

إلا أن الحس الفلسفي لدى "ماخ" مكنه من معالجة القضايا الفيزيائية معالجة ابستمولوجية، فكان له السبق في وضع اللبنة الأولى للفيزياء المعاصرة، يقول "أينشتاين: "رغم كون "ماكسويل" و"هرتز" قد شككا في الإيمان المطلق بنظرية أن الميكانيكا فكرة تمثل الأساس النهائي لكل فكر فيزيائي، فإنهما قد انضما بوعي منهما لفكرة أن الميكانيكا هي أساس العلم، قلب ماخ في كتابه تاريخ الميكانيكا هذا الاعتقاد رأسا على عقب، ولقد تأثرت كثيرا بأعمال ماخ عندما كنت طالبا، ففي نظري إن الحجم الحقيقي لماخ يتمثل في استقلاليته وريبيته..."[1]

إن الطابع النقدي الذي تميزت به فلسفة "ماخ" كانت تمثل مصدر إلهام بالنسبة لـ"**فيرابند**" حيث استمد أطروحته حول الفوضوية الإبستمولوجية من دراسته لتاريخ العلم كما فعل "ماخ" مبينا الفرق بين النظريات العلمية التي تدعي امتلاك الحقيقية وتريد حصر الثراء الكبير لتاريخ العلم في قوالب منطقية ومنهجية جامدة وبين الواقع التاريخي للعلم الذي يؤكد على تعدد الطرق واختلافها في المعرفة.

من هنا حاول "**فيرابند**" ردم الفجوة بين الإبستومولوجيا وواقع العلم باعتماده الفوضوية القادرة على احتواء العوامل المتعددة والمتشابكة للعلم، يقول "فيرابند""إن العلم ماهو إلا محصلة لعملية البحث وليس لإتباع قواعد معينة ومن هنا لا نستطيع الحكم على العلم باستخدام قواعد ابستمولوجية مجردة إلا إذا كانت القواعد نتاجا لممارسات ابستمولوجية دائمة التغيير."[2]

يشيد "**فيرابند**" بأهمية النقد الإبستمولوجي الذي قدمه "ماخ" حيث رفض كل الحقائق القبلية الخالدة التي تدعي الثبات، معتبراً المعرفة ظاهرة بيولوجية دائمة التغيير وقابلة للتطور المستمر، فالعلم لا يقف عند حد معين وجميع القوانين تتغير حسب طبيعة الخبرة فاللجوء إلى التجربة في البحث العلمي أمر ضروري، فالعقل لا ينتج معرفة من تلقاء نفسه بل ينتجها

[1] –المالكي علي، الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند "ألبار أينشتاين" مرجع سابق، ص111.

[2] – فيرابند بول، ثلاث محاورات حول المعرفة، مرجع سابق، ص88.

في علاقته مع التجربة، فلا يمكن صياغة القوانين الطبيعية بطريقة منطقية مجردة بعيداً عن ملابسات الواقع التجريبي، وفي نفس الوقت ينفي إمكانية اكتشاف القوانين الثابتة أو الحقائق العلمية، "لأنه يرى أن جميع القضايا المتصلة بالعالم الخارجي سواء كانت على هيئة قوانين فردية أو عامة أو قوانين طبيعية ونظريات هي موضوع لتغيير وضبط مستمرين من جانب الخبرة."[1]

من خلال ما سبق يتضح أن "ماخ" أسس لنظرية في المعرفة تتضافر فيها كل من معطيات الفكر والطبيعة مخالفاً بذلك التوجهات الكلاسيكية التي تعطي أولوية للعقل في إنتاج المعرفة التي اعتبرت أن العلم ينمو داخل أسوار الميتافيزيقا، فحسب "أرسطو" هي العلم الأول الذي تتفرع منه جميع العلوم ووفقاً لذلك تم الفصل بين عالم العقل وعالم الطبيعة، فأصبحت الحقائق العقلية تتميز بمطلقيه كاملة لا ينتابها الشك.

رفض "ماخ" هذه المطلقية بكل صورها سواء كانت مطلقية الفكر كما أسسها "ديكارت" أو المطلقية المثالية كما أسسها أفلاطون مؤكداً على ضرورة التحام الفكر مع التجربة، فهو يتغذى من معطياتها بواسطة الحدس، لذلك يقول "إن الحدس قاعدة لكل معرفة."[2]

يريد "ماخ" أن يضع ضوابط تربط الباحث بالواقع التجريبي وتجعل العقل قادراً على التخلص من كل ماهو متعال خارج عن إطار قدرته، وتمكنه من التفاعل المستمر مع معطيات التجربة، ليحد من التصورات الميتافيزيقا الوهمية التي تشكل عائق أمام تطور العلم.

إن النقد الذي وجهه"ماخ" للميتافيزيقا بصفة عامة والمفاهيم المطلقة بصفة خاصة مكنته من أن يؤسس لرؤية فلسفية جديدة قائمة على عدم التسليم بفكرة الثبات، فالطبيعة دائمة التحول والتغيير والظواهر ليست منعزلة عن بعضها البعض بل هي تشكل علاقات متبادلة

---

1 - خليل ياسين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص245.

2 -Feyerabend Paul .Adieu la raison .op.cit. p231
« L’intuition est la base de toute connaissance »

بين أجسامها المنتشرة، والمعرفة عنده تبدأ من خلال الربط بين هذه الأجزاء وباستخدام طرق مختلفة تتداخل فيها العوامل الذاتية النفسية وعوامل الإحساس الفيزيائية. فتطور العلوم الفيزيائية مرهونا بارتباطها بالعلوم النفسية وعلم الإحساس، فالذات العارفة لا يمكنها أن تقبع في موقع متعالي مثالي بعيدا عن الطبيعة، فالمعرفة الحسية تمثل الواسطة بين الأنا والطبيعة، وهذه العلاقة التي يحددها"ماخ" بين الذات والموضوع تسير في اتجاه واحد مما يساعد على الاقتراب من الحقيقة العلمية نسبياً، ذلك أن الإنسان برغبته يسعي دائماً لبلوغ الحقيقة والوصول إلى الاكتمال الذي لا يتحقق، فالعلم في تقدم مستمر لا يعرف الانقطاع.

إن التوجه النسبي في فلسفة "ماخ" تجسد في الفلسفة الفوضوية لدى "**فيرابند**" إذ يقول:" أما نظريتي فتتمثل في أن الفوضوية تساعد على تحقيق التقدم بأي معنى من المعاني التي يختارها الفرد، وحتى العلم ذو القوانين والنظم سوف ينجح فقط إذا سمح بحدوث خطوات فوضوية من أن لأخر."[1]

لقد اتفق معظم علماء النزعة الوضعية في ميدان الطبيعة أن الاستقراء هو المنهج الكفيل للكشف عن حقيقة الظواهر الطبيعية، وهذا أمر مبالغ فيه باعتبار أن العلم لا يهتم فقط بترتيب وجمع الوقائع المنفردة، بل إن مهمته تتجاوز ذلك إلى البحث عن خصائص طبيعة العلاقة بين الظواهر الطبيعية، لذلك فإن القول بوجود علوم استقرائية أمر غير مبرر، إن البحث عن خصائص طبيعة العلاقة بين الظواهر يجعلنا نقر بوجود طرق متعددة تساعد على معرفة المبادئ الأساسية لحركة المادة وقياسها، وفي كثير من الأحيان تلعب الصدفة و الحدس دور في اكتشاف المبادئ الأساسية في تحديد هذه العلاقة."[2]

---

[1] – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص39.

[2] - voir Feyerabend Paul .Adieu la raison .op.cit. p230
« Nous avons déjà vu que l'instinct et l'intuition jouent un rôle important dans la découverte des principes »

فاكتشاف المبادئ الأساسية للقانون العلمي يستند إلى مجموعة من الملاحظات التي لا تخلو من مساهمة أفكار ومخيلة الباحث، فقانون الجاذبية عند "نيوتن" يستند إلى قوة مخيلة "نيوتن" في اكتشاف القانون رغم صدفة الملاحظة الحسية المتمثل في سقوط التفاحة، ففهم الطبيعة يتحدد من خلال فعالية وحيوية مخيلة الباحث دون إهمال دور الطبيعة في تمهيد الطريق أمام الفكر ليشق طريقه للبحث عن ماهو خفي، لذلك فالمعرفة هي نتاج لحوار بين الطبيعة والذات، حوار مستمر لا يعرف الثبات يتقدم عبر مراحل وكل مرحلة تقدم وصفاً معيناً ومؤقت للعلم تؤكد على عدم اكتماله، فالحقائق الطبيعية تبقى خفية علينا دوماً، لذا يسعى العالم من وراء بحثه إلى تكوين صورة تقريبية، لذلك رفض "ماخ" فكرة المطلقية، فالعلم في نظره يهدف إلى معرفة العلاقات بين الأشياء، هذه العلاقات تشيد بناءات مؤقتة تجعل النظريات محدودة.

تجسدت هذه الأفكار في فلسفة "**فيرابند**" القائمة على الاعتراف بالتعددية فلا يمكن اختزال العلم في نموذج واحد صارم يدعى اليقين، وهذه الحقيقة تأكدت مع ظهور الفيزياء المعاصرة والنقاشات التي دارت بين العلماء حول حقيقية العالم المتناهي في الصغر.

2- نظرية الكوانتم ومجال اللامعقول

نظرية "الكوانتم"(Quantum) تبحث في طبيعة المادة المتناهية في الصغر، كان هذا الموضوع محل اهتمام المدارس اليونانية، فتناولته بالتحليل واتفقت كلها على إعطاء تفسير حسي للظاهرة إلا أن "ديمقريطس" كان أول من قدم تفسيراً تجريدياً للمادة عن طريق مفهومه عن الذرات، إذ يقول "لوكر يتيوس" على لسان "ديموقريطس" "في الخيال توجد الحلاوة، وفي الخيال توجد المرارة، وفي الخيال توجد السخونة والبرودة والألوان. أما في الواقع فليس ثمة شيء موجود سوى الذرات والخلاء."[1] بمعنى أن الأشياء في ذاتها هي عبارة عن ذرات ولا نتعرف عليها إلا من خلال تأثر حواسنا بها، فكل المواد تتكون من ذرات غير قابلة للانقسام

[1] -عبد الفتاح محمد بدوي، فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين؟، دار قباء الحديثة مدينة نصر القاهرة، (ب ط)، 2007م، ص217.

متماثلة وصلبة تتحرك بأعداد لا حصر لها في فضاء فارغ، لم يطرأ أي تغيير على هذا المفهوم الخاص بالذرة حتى جاء "وليام كروكس"وأجرى تجارب على "مرور التيار الكهربي في الأنابيب المفرغة من الهواء حيث استطاعة أن يثبت أن الذرة ليست كياناً بسيطاً، بل مركب يحتوي بداخله على مكونات صغرى كشفت عنها ظواهر النشاط الإشعاعي، تم توالت تجارب "طومسون" و"روذفورد" للكشف عن خصائص الجسيمات دون الذرة، وهي إلكترونات تحمل شحنة سالبة وتدور في مدار بيضاوي حول نواة الذرة هذه النواة تتكون من نوعين من الجسيمات هما "البروتونات" والنيترونات."[1]

استمر البحث في عالم المتناهي في الصغر فقام بعض العلماء بتجارب لمعرفة الكيفية التي تستقر بها النواة فاكتشفت مكونات أصغر تسمى"الميزونات"(Mesons) و"الكواركات"(Quarks) هذه الميزونات أحدثت تحول في الفيزياء دون الذرية بما أبانت عنه من خصائص مشتركة بين الحالتين الجسيمية والموجية للمادة، فالميزون يعتبر جسيماً مادام جزءاً من ذرة ما يقوم بوظيفة الربط بين مكونات النواة دون أن يسمح بتفككها لكنه حينما يتحرر منها يتحول إلى ضرب من الطاقة الموجبة."[2]

إلا أن معرفة "المكونات الداخلية للذرة لم يكن نهاية المطاف بالنسبة للفيزياء دون الذرة وإنما فتح المجال للتساؤل عن القوانين المفسرة لحركة هذه الجسيمات، فنجد مثلاً أن الإلكترون يدور حول النواة بسرعة فائقة وبحسب قوانين الحركة عند "نيوتن" يفترض أن يفقد الإلكترون ماله من طاقة وينتهي به الأمر إلى السقوط داخل النواة لكن التجارب كذبت هذه النتيجة، وهكذا بات من الضروري البحث عن أسس جديدة لعلم الحركة يختلف عن الأسس الكلاسيكية ومن أجل ذلك نشأت ميكانيكا جديدة هي ميكانيكا الكوانتم والمقصود بها النظرية التي تدرس حركة الجسيمات دون الذرية."[3]

---

[1] – المرجع نفسه، ص218.

[2] – المرجع نفسه، ص219.

[3] عبد الفتاح محمد بدوي، فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين؟، مرجع سابق، ص220.

من أهم مواضيعها البحث في طبيعة الضوء، حيث اختلفت نظريتين في تحديد هذه الطبيعة، فالنظرية الجسيمية تبنتها مدرسة برلين، التي يناصرها "ماكس بلانك"و"نيليزبور" وهي التي تتمسك بالطبيعة الجسيمية للضوء القائمة على مبدأ الانفصال، وتسمى نظريتها الكوانتم الجسيمية، وتتصور الضوء كسيل منهمر من القذائف الصغيرة، أما النظرية الموجية التي تقوم على مبدأ الاتصال تبنتها مدرسة "كوبنهاجن" والتي يقف على رأسها"فيرنر هيزنبرج"و"شرودنجر" وهما معاً يؤكدان على الطبيعة الموجية للضوء.

كل التفسيرات المقدمة تبقى مبرر طالما لا يوجد تجربة الفعلية تؤكد نمظرياتهم في هذا الميدان، فكلا الفريقين قد بنى اعتقاده على استدلالات استنباطية، أما حقيقة الضوء نفسه أو الإلكترون فلا أحد يعرف عنها شيئاً طالما أن رؤيته مستحيلة، لذا لجأ العلماء إلى الاحتمالات في تفسير نتائجهم، فلا يمكن القول باليقين العلمي ولا بالحقيقة المطلقة، فخاصية الاحتمالية تعتبر من أكثر سمات ميكانيكا الكوانتم إثارة، ذلك أن كل شيء في عالم الكوانتم يحدث بصورة عشوائية ولا يوجد سبب مباشر للأحداث الكوانتية.[1]

ازدادت حدة الأزمة في الفيزياء الكوانتية مع اكتشاف "هيزنبرخ" لعلاقة الارتياب* ذلك أنه فتح مجال للجدل العلمي والفلسفي وأصبحت النظرية الكوانتية عرضة لتفسيرات فلسفية متناقضة مما جعلها أقرب للنقاش الفلسفي منه للممارسة العلمية، وأحيت بذلك صراعاً فلسفياً حول نظرية المعرفة وأقحمت الفيزياء في قلب البحث الفلسفي الحديث وتم طرح الإشكالية الفلسفية القديمة كما أثارها "ايمانويل كانط" حول حقيقة الشيء في ذاته والشيء كما يظهر

---

[1] – ومنيس رولان، فلسفة الكوانتم، ترجمة أحمد فؤاد باشا، ويمني طريف الخولى، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (ب ط)2008م، ص200.

* - تنص علاقة الارتياب أو علاقة عدم التحديد،على أنه لا يمكن تحديد موقع الإلكترون وسرعته في آن واحد، بحيث إدا تم تعيين مكان الإلكترون فإن تعيين سرعته لا تكون مضبوطة، وإذا تم تعيين سرعته فإن تعيين مكانه لا يكون مضبوطاً.

لنا، "فالمعرفة لا تتعلق إلا بالظواهر، أما الأشياء في ذاتها وإن تكن موجودة بذاتها وجوداً واقعياً، فإنها تظل بالنسبة لنا غير معروفة."[1]

وعليه فالسؤال الجدير بالطرح، هل نظرية الكوانتم نظرية تبحث في الواقع المتناهي في الصغر كما يحدث في الطبيعة بالفعل أم أنها قائمة على مجموعة من القياسات الرياضية الافتراضية؟ وهل حضور اللامعقول ممكن في تفسير النظرية الكوانتية؟.

انقسم الفيزيائيون إلى تيارين كبيرين تيار المدرسة العقلية بزعامة "أتشتيان" التي تؤمن بأولوية العقل في بناء النظرية العلمية، فالمعارف الأولية هي نتاج العقل وحده حيث تنطلق هذه المدرسة من واقعية العالم الخارجي المستقل عن الذات، فالكون مبني على السببية والحتمية وقوانينه تعكس حقيقة ما يجري في هذا الكون، ولا تأثير لوجودنا على واقعية هذا العالم، ومن هذا المنطلق فإن عالم الكوانتا يمتلك خصائص تجعله مستقل عن التجربة ولا يمكن التحكم فيه باعتماد الاحتمال الرياضي، كما تزعم مدرسة "كوبنهاغن" ووصف هذا العالم بالعشوائية واللاسببية مرده عدم القدرة على الفهم التام لحقيقة علاقات الظواهر الكوانتية، فهذه الواقعية التي يتمسك بها أنصار هذا التيار تقع على مستوى الذري، فهي تنظر للوجود بصورة كلية على أنه وجود موضوعي حقيقي واحد، فما ينطبق على عالم المتناهي في الصغر ينطبق كذلك على عالم المتناهي في الكبر، بمعنى أن علم الفيزياء يسعى إلى اكتشاف عالم حقيقي يعكس واقعية الظاهرة الطبيعية كما هي في الطبيعة وليس من خلال التأويلات التي تستند للقياسات التجريبية، يقول "بوهم" أحد أبرز معارضي مدرسة "كوبنهاغن" "إن الجسيمات الأولى لها الوجود الموضوعي الواقعي نفسه لكتل الكبيرة، فلا

1– محمد عثمان الخشت، العقل وما بعد الطبيعة، تأويل جديد لفلسفتي هيوم وكانط، دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع،(د ط)، 2008م، ص28.

فرق بين الإلكترون والحجر مع فارق أساسي هو أن الإلكترون له القدرة على معرفة البيئة التي يتواجد فيها."[1]

إن هدف العلم في نظر المدرسة العقلية هو الكشف عن حقيقة الظاهرة الكوانتية كما تحدث في الطبيعية رغم ما تطرحه من صعوبات، فالتفسيرات التي قدمتها النظرية الكوانتية أعطت وصفا للظاهرة الكوانتية من منطلق القياسات الرياضية، محاولة إيجاد قانون تتناسب معها وأهملت الواقع الحقيقي للظاهرة، فعلى العالم أن يفهم ماذا يحدث في الواقع الذي ينتج الظاهرة، وذلك من خلال الكشف عن العوامل الأساسية التي تتحكم فيها. ففهم الواقع لا يستند بالضرورة لأجهزة القياس، بل قد تشكل هذه الأجهزة عائق أمام الفهم الحقيقي للظاهرة بشكل مستقل وإعطاء تصور نهائي للواقع الكوانتي بالاعتماد على وسائل القياسات أمر مبالغ فيه ومخالف للشواهد التاريخية في العلم.

فكثير من النظريات العلمية اعتبرت ولفترة زمنية طويلة على أنها حقيقة علمية، لكنها تنهار بمجرد ظهور نظرية أخرى مخالف لها، فلا وجود لنظرية مطلقة ونهائية تأخذ مشروعيتها من خلال القياسات الرياضية بل مشروعية النظرية العلمية تستند إلى الوصف الحقيقي للظاهرة الطبيعية، فالواقع الكوانتي لا يختلف عن الواقع الكلاسيكي الذي ألفناه، لقد رفض "أينشتاين" الوصف الظاهري للواقع الكوانتي محاولاً التعمق أكثر في فهم حقيقية هذا العالم، فقام بتجربة (EPR)* للكشف عن الواقع الحقيقي الموضوعي للظواهر الكوانتية كما هي في الواقع.[2]

---

[1] – حسن العلوي جاسم، العالم بين العلم والفلسفة، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء_المغرب، الطبعة الأولى،2005 م، ص143.

* –EPR عبارة عن مختصر الحروف الأولى لكل من "أينشتاين(Einstein) بودولسكي (Podolsky) روزن (Rosen) يعتبر اينشتاين صاحب الفكرة الرئيسية لهذه التجربة، وهي تأتي استكمالاً لعدد من التجارب الافتراضية، حاول من خلالها اينشتاين أن يبرهن على النظرية الكوانتية ليست تعبيرا مكتملاً عن الواقع الكوانتي.

[2] - حسن العلوي جاسم، العالم بين العلم والفلسفة، مرجع سابق، ص144.

من هذا المنطلق رفض "أينشتاين" التشكيك في الواقع الموضوعي للظواهر الكوانتية وطرح إمكانية تحديد الظواهر تحديدا حتميا في المكان والزمان ومعرفته كما هو في الواقع وليس كما تعكسه لنا أدوات القياس، فقانون الحتمية بالنسبة إليه يطبق على الظواهر الكونية كبيرها وصغيرها، والقول بالاحتمال في مجال عالم المتناهي في الصغر لا يعكس جوهر الحقيقة الكوانتية بقدر ما يعكس عدم قدرتنا على التحكم في هذا العالم الصغير وجهلنا به.

إن واقعية "أينشتاين" العقلانية تتمحور حول فكرتين أساسيتين أولاً الاعتقاد بوجود عالم واقعي وموضوعي خارج عن الذات ومستقل عنها يحمل حقيقة في ذاته ولا تقتصر حقيقته على ما تصفه لنا أدوات القياس كما هو الشأن في التفسير الكوانتي، وكما وصفته لنا مدرسة كوبنهاغن، وثانياً هو أن معرفتنا للعالم لا تقتصر فقط على المعطيات الحسية والتجربة فقط بل تعتمد كذلك على البناء العقلي، أما فيما يخص النزعة الاحتمالية في تفسير حركة الجسيمات الدقيقة، يعتقد "أينشتاين" أن فكرة الاحتمالية التي تضمنته الفيزياء الكوانتية التي تعتمد على الإحصاء لا تمثل حلاً نهائياً لمشكلة تحديد حركة الجسيمات الدقيقة، فهي مجرد تفسيرات مؤقت وأولية في انتظار الوصول إلى نتائج أكثر دقة، فالعلم لا يمكنه التخلي عن فكرة خضوع الظواهر للقانون، يقول "أينشتاين""لا يمكنني أن أخذ بالنظرية الإحصائية بصورة جدية لأنها تتعارض مع المهمة الأساسية للفيزياء أي وصف الواقع في المكان و الزمان... وأني مقتنع تمام الاقتناع بأننا سننتهي بنظرية تكون الروابط والعلاقات فيها حقائق لا احتمالات."[1]

العلم في تطور مستمر والاعتقاد بأن أساس الفيزياء سيبقى مستقبلاً على الحال نفسه أمر مبالغ فيه ذلك أن النظرية الكوانتية القائمة في التفسير الاحتمالي لا تمثل سوى مرحلة انتقالية أو نموذج من نماذج التطور العلمي القائم على النزعة الثورية التي اتخذت مفهوم

[1] – نقلاً عن سالم يفوت، فلسفة العلم المعاصرة، ومفهومها للواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولي، مارس 1986م، ص182

القطيعة عند "باشلار" أو مفهوم البراذيغم عند"توماس كون" ولا يمكن التشبث بها كحل نهائي وأكيد لتطور الفيزياء لاحقاً وهذا الطرح نابع من قناعة "أينشتاين" حول فكرة النسبية التي يرى فيها "**فيرابند**" أهمية في تنمية النزعة الفردية وخصوصية تتخذ من حرية الأفراد أساسا لعملية الإبداع دون النظر إلى القوالب المنهجية والالتزامات التي تفرضها النزعات العقلية، فتنوع المعايير واختلافها تتيح الفرصة لعملية الاختيار أمام الشتات المتنوع من المعايير وهذا هو السبيل إلى التقدم العلم وتشجيع روح الإبداع ورفض السلطوية التي يمارسها البعض بحكم أنهم يمتلكون الحقيقة.

أما أنصار تيار الوضعية الظاهراتية بزعامة "لينز بور" يجعلون من المعطيات الحسية أساساً لبناء النظرية الفيزيائية مقتفين في ذلك أثار "ماخ" حيث تنفي هذه المدرسة الوجود الواقعي للظواهر الكوانتية كما فسرتها المدرسة العقلية لأنها تعتمد بالدرجة الأولى على التفسيرات العقلية، حاول "بور" ترجمة الواقع معتمدا في ذلك على المفاهيم الرياضية التي تعكسها أدواة القياس والتعاملات الحسية مع العالم الخارجي، إذ لا يمكن تفسير الظواهر بأسباب غير مرئية وبالاعتماد على الحدس العقلي، وهذا الاتجاه هو امتداد لفلسفة "ماخ" وبهذه النظرة التي تحصر المعرفة في حدود الحس كان "بور" يعارض النظرية الكوانتية، لأن الدليل الحسي المباشر الذي يؤكد وجودها في كل لحظة غير قائم، وبالتالي نعتمد في دراستنا لها على ما نمتلكه من قياسات ومعطيات تجريبية تعكس لنا حقيقية هذا العالم كما نراه وليس كما هو في ذاته.

يؤكد "ماخ" على أهمية القياسات والمشاهدات التجريبية لأنها تعكس واقعية الظواهر الطبيعية، لذلك نجد أن هذا التيار يؤمن بواقعية الظواهر الذرية في اللحظة التي نقوم بقياسها وبهذا الاعتبار تصبح النظرية الكوانتية مجرد آلة رياضية تنتج أرقاماً تتوافق مع نتائج التجارب بدون أن تكون هذه الأرقام تعبر عن واقعية معينة لهذه الظواهر. ومشروعية التفسير العلمي للكوانتم تعود لواقعية التجربة المسلحة بوسائل القياسات، وليس لواقعية الظاهرة الكوانتية في حد ذاتها، بالتالي أصبح النظام الرياضي المتناسق النابع من

التجربة هو الذي يعطي مصداقية للنتائج الفيزيائية لنظرية الكوانتم، يقول "فيرابند"" يجب إعادة النظر في تفسير نظرية الكوانتم ونعترف بجميع البدائل المقترحة لأن البراهين المقدمة من طرف الفيزيائيين التي تخص نظرية الكوانتم تتعلق أكثر بالجانب التقني وبالتالي يمكن أن تختلف حسب طبيعة البراهين العقلية المقدمة، ذلك أن شكلية البناء الرياضي تغفل نواة المشكل الفيزيائي، رغم اقتناع "بور" بأن التفسير التجريبي يجب أن يسبق تماما الصياغة الرياضية".[1]

وعليه فإن النظام الرياضي لا يعكس قوة النظرية الفيزيائية فأصبح الفيزيائيون في ميدان الكوانتم يحرسون على التوافق الصوري للنظرية الفيزيائية دون وجود براهين واقعية تعكس حقيقة الظاهرة الكوانتية، فالتفسير الكوانتي هو مجرد تأويل يختلف من عالم

إلى أخر وذلك حسب استخدامه لوسائل القياس فمثلاً "نظرية "شرودينغر"ونظرية"ديراك" اللتان تصفان حركة الجسيمات الدقيقة تعتمدان في وصفهما على دالة موجية مركبة لأنها تحتوي على الرقم الخيالي الذي لا يمثل أي كمية فيزيائية بل يعبر عن مفهوم مجرد ليس له أي معنى فيزيائي."[2]

تساءل الفيزيائيون عن حقيقة النتائج الفيزيائية التي تستند إلى دالة خيالية لوصف بعض الخصائص الفيزيائية الواقعية، وبالتالي فإن المفاهيم المجردة التي أبدعها العلماء للإشارة إلى الكائنات غير المنظورة يمثل بحثاً معرفياً في مجال اللامرئي، وهذا ما يجعل أي بحث مهما كان نوعه مفتوحاً على مواضيع توصف باللامعقولة والخارجة عن التفسير المادي، فمعرفة

---

[1] –Feyerabend Paul ;Réalisme ;Rationalisme et Méthode Scientifique ;tra ;Emmanuel malolo dissaké ; éditions dianoia ;2005 ;p340.341

« La théorie quantique doit être modifiée si elle doit admettre les propensions, ce la nous à conduits à la théorie quantique de la mesure et nous à obligés à considérer certains arguments plutôt techniques…la structure mathèmatique formelle puisse voiler le noyau physique du problème et (qui)…était convaincu qu'une explication physique complète devait absolument précéder la formulation mathèmatique »

[2] – حسن العلوي جاسم،العالم بين العلم والفلسفة، مرجع سابق، ص128.

القيم والنفس والأخلاق والدين والفن لاتخضع لعالم المادة، فلو تمعنا في قوانين "نيوتن" في الحركة نجدها مادية ولا تعترف إلا بالموجودات المادية القابلة للإدراك الحسي المباشر، وترفض كل ماهو روحي معنوي، أما نظرية الكوانتم أكدت على أن المادة المحسوسة وهم فارغ لا تعكس حقيقة الوجود، بل الحقيقة تتمثل في عالم الجسيمات غير المرئية ونستدل على وجودها من خلال الآثار الناتجة عنها كالكهرباء مثلاً.

من هنا تحولت نظرية الكوانتم من منطق التجربة إلى محاولة الإقناع الاستدلالي القائم على الانسجام المنطقي، فالإلكترون غير قابل للمشاهدة المباشرة لكن يتم الاستدلال على وجوده من خلال أثاره العلمية، فكذلك الأمر بالنسبة للنفس والأخلاق والدين والقيم الجمالية والفنية التي لا يمكن إخضاعها للدراسة المنطقية الصارمة بل يمكن دراستها بنوع من المرونة والتفتح وممارسة الاختلاف المعرفي والتعدد المنهجي، يقول "هيزنبرغ" "إن قضايا الروح والوعي والقيم يمكن ربطها على نحو جديد بالتصور العلمي السائد في عصرنا هذا."[1]

من هنا يعترف علماء الفيزياء في عالم المتناهي في الصغر على صعوبة البحث الكوانتي، وأن النتائج فيه غير مضمونة وتبقى تخضع للاحتمال، وبالتالي لا يمكن اعتبار التجربة أساس العلمية في معارفنا، يؤكد"سوليفان" "إن نظرية الكوانتم أكدت على وجود الكائنات التي تشير إليها المفاهيم العلمية، ليست رهناً للتجربة بل فقط مشاهدة صور الفاعلية أو الآثار المترتبة عليها، كذلك الأمر بالنسبة للقيم الأخلاقية والجمالية والمعنوية فأثارها العملية في حياتنا أوضح من أن ينكرها أحد."[2]

يتضح أن وصف الطبيعة كما هي في ذاتها أمر صعب المنال إذ لا يكمن ومهما كانت التجارب أن نصل إلى الحقيقة الطبيعية كما هي في الواقع، فالبحث الفيزيائي مرتبط

---

[1] –عبد الفتاح محمد بدوي، فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين؟، مرجع سابق، ص227.

[2]- عبد الفتاح محمد بدوي، فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين؟، المرجع نفسه، ص229.

بما هو نظري ومن منطلق التأويلات، يقول "بور""إنه من الخطأ أن نعتقد أن مهمة الفيزياء هي معرفة الطبيعة كما هي بل إن مهمته في ماذا يمكن أن نقول نحن عن الطبيعة."[1]

إن "بور"يصور لنا الطبيعة على أنها عالم متقطع الأواصر منفصل الحلقات يتكون من واقعيات منفصلة ليس بينهما ارتباط، فالبحث في ميدان نظرية الكوانتم جعل العلماء يقفزون من العالم الكلاسيكي إلى العالم الكواتني بدون أن يكون هناك جسر يربط بين العالمين"[2]، وهذا ما يعبر عنه "**فيرابند**" بفكرة اللامقايسة حيث يشبه النظرية العلمية باللغة الطبيعية، فكما أن اللغة تصوغ الوقائع وتوجهها فكذلك النظرية العلمية تنطوي على مفاهيمها الخاصة وطرقها الاستدلالية المتخفية، فميكانيكا "نيوتن" ترى في الطاقة والكتلة والمكان والزمان خصائص للعالم الفيزيائي، أما النظريات النسبية فإنها تنظر إلى هذه المعطيات بوصفها علاقات فقط، وهكذا فإنه لا يمكن تفنيد إحدى هذه النظريات بمقارنتها مع الأخرى، فهي لا تقبل المقايسة فلكل نظرية مجالها الخاص بها. فهي منفصل ومستقلة لها خصائصها ومميزاتها التي تميزها عن باقي النظريات، وهنا يؤكد "**فيرابند**"الطابع الانفصالي للنظريات العلمية، في نظره لا يوجد تقدم تراكمي في العلم،لأن النظريات الفيزيائية لامتقايسة بعضها البعض إنها منفصلة بتغيرات في الدلالة وفي تصوراتها الأساسية رغم أنها تحمل نفس المسميات.

إن التفسير الذي قدمه "لينز بور"حول حقيقة عالم الكوانتم يقوم على أساس التفرق بين العالم الحقيقي للجسيمات الدقيقة، كما هو موجود بصورة مستقلة وبدون تدخل آلة القياس للفحص عليه وبين الظروف التي تخلقها آلة القياس أثناء تجاربنا وتدخلاتنا للفحص، حيث ينتج تفاعل بين أدوات القياس والمنظومة الكوانتية المراد قياسها، هذا التدخل يجعل من خصائص الجسيمات ليست ذات وجود مستقل بل جزء كبير من حقيقتها يعود إلى هذا التدخل الخارجي أي أن هناك وحدة حقيقية بين أدوات القياس والمنظومة الكوانتية، يعني أن

[1]- حسن العلوي جاسم،العالم بين العلم والفلسفة،مرجع سابق ص129.
[2]- المرجع نفسه،ص128.

هناك كلية حقيقية تجعل من خصائص الكوانتية واقعيات متوقفة على ظروف الأمبريقية، فالتجربة والأدوات المستخدمة فيها هي التي تعطي تفسير معين للواقعة المتناهية في الصغر في حين أن لا أحد يدرك الحقيقة الفعلية للظاهرة، فالإلكترونات مثلاً ليست لها خصائص متغيرة ذات قيمة محددة عندما نقوم بقياسها، بل العلماء هم من يصنعون مثل هذه الخصائص من خلال أدوات القياس، وليس معنى ذلك أن الإلكترون ليس له وجود واقعي، فمدرسة "كوبنهاغن" ومن خلال معطيات التجربة فصلت بين الحقيقة الموضوعية التي نعرفها واعتاد تفكيرنا التعامل معها على مستوى "الماكروسكوبي" وبين الحقيقة الموضوعية على مستوى "الميكروسكوبي" والتي يجب أن نتعامل مع الظواهر التي تفرزها بشكل مختلف عما ألفناه عندما كنا نتعامل مع الأجسام والكتل الكبيرة[1].

نستنتج أنه لا يمكن دراسة عالم الكوانتا دراسة تجريبية محض بل دراسته تتأثر بما يحمله المجرب من انطباعات تتدخل في توجيه أدوات القياس مما يحول دون قراءة الواقع الكوانتي قراءة واقعية، يقول"ايديغتن" (A.eddington) *إن ما نستعمله من التجارب يتأثر بشكل كبير بتوقعاتنا أو بما نحمله من تصور سابق على التجربة، فالإلكترون والنواة وكل الجسيمات ليس لها وجود واقعي بل هي تصوراتنا التي تعطي للتجارب كل هذه المعاني فالأمر لا يغدو أن يكون خيالاً بشرياً صنعته التقنية الحديثة."[2]

يؤكد"بور" أن أي بحث علمي لا يمكنه أن يرسم صورة شاملة عن الظواهر الطبيعة لأن المعرفة ذات طابع نسبي وتمر عبر مجموعة من الطرق والمفارقات، وأي نتيجة نتوصل إليها تبقى احتمالية ومحدودة وبذلك تفتح مجال البحث من جديد أمام توجهات أخرى وتدفعنا للتخلي عن الطرق التي ألفناها فالظواهر الكوانتية لاتخضع للحتمية العلمية فالمستقبل مجهول بالنسبة لهذا العالم.

---

[1] -انظر ،حسن العلوي جاسم،العالم بين العلم والفلسفة،مرجع سابق ص142.

*– فيزيائي دانيماركي ،فلكي وكوسمولوجي اشتهر بمناصرته لنظرية النسبية الخاصة والعامة.

[2] – حسن العلوي جاسم،العالم بين العلم والفلسفة، مرجع سابق، ص141.

يشيد "**فيرابند**" بالتفسير الذي قدمه"بور" حيث اعتبر التعددية سمة من سمات العلم، وهي تمثل الأسلوب الأفضل لتقدمه، فقوة أي نظرية علمية تستمد من خلال تنافس النظريات الأخرى معها، يقول "**فيرابند**" "وليست جماعية النظريات والآراء الميتافيزيقية هامة للمناهج فقط بل هي أيضاً جزء أساسي من النظرة الإنسان."[1]

فالتعدد لا يجعل الفرد ينظر بمنظار واحد للحقائق من حوله فكلما كان التعدد أكثر ساهم في اتساع المخيلة وأدى إلى نتائج ايجابية هذه النظرة مستوحاة من النزعة الليبرالية التي يدافع عنها "**فيرابند**" في فلسفته حيث يؤكد أن التعددية ليست أمرا عرضياً في تاريخ العلم، وإنما هي أمر ضروري لتقدم المعرفة وذلك بفتح المجال أمام القيم المختلفة سواء كانت تعرف بالمعقولة أو الخارجة عن إطار المعقولية.

"إن الافتراضات العلمية لا تشكل أي نوع من اللزوم فنظرية "نيوتن" و"اينشتاين" الكوانتم وغيرها لا تحمل افتراضات لزومية رغم ما تنتجه من فوائد نفعية، فهي لا تتخذ منهجاً محددا بل تختلق عبر الخيال العلمي، فليس للاكتشاف العلمي منطق محدد، حيث يؤكد بوانكاريه بأن لكل من المنطق والحدس الوجداني دوراً ضرورياً لاغنى عنه فالمنطق هو وحده يقدم اليقين، لذلك هو أداة البرهان، أما الحدس الوجداني فهو أداة الاختراع.[2] وعلى رأي فيلسوف العلم المعاصر"فيليب فرانك" أنه إذا درسنا بدقة كيف نعثر على مبادئ جديدة في العلم يتضح أن هذه المبادئ لا يمكن اختراعها بأي طريقة نظامية سواء كانت استدلالية أواستقرائية، وإنما يتم ذلك فقط باستخدام القدرة الذاتية الإختراعية بواسطة الخيال والحدس، يقول:"إن المبادئ التي بنيت عليها علوم القرن العشرين كالنسبية ونظرية الكوانتم ليست

---

1 – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص76.

2 – واي بيدر، مصادر وتيارات الفلسفية المعاصرة في فرنسا، ترجمة عبد الرحمان بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1980،2م، ص22.

معقولة على الإطلاق، ولكنها متناقضة في ظاهرها ومشوشة."[1] والقول بأنها تخضع لحتمية علمية أمر مبالغ فيه فلا يمكن تجريد الأبحاث العلمية من طابعها الخيالي، إذ يقول "اينشتاين" " الخيال أهم من المعرفة"[2]، نتيجة لهذه الحقائق التي

أفرزتها الممارسات العلمية جعلت "**فيرابند**" يتبنى مبدأ "كل شيء جائز".

3 –النظرية النسبية والتفتح على اللامعقول:

ظهرت الفيزياء المعاصرة ممثلة في النظرية النسبية وميكانيكا الكم في بداية القرن العشرين بتصور جديد فسرت به حركة الكون والمادة بصورة مخالف للتصورات التي قدمها "نيوتن"، حيث تم زعزعت الكثير من المفاهيم الأساسية التي رسخت في أذهان العلماء بعضها على المستوى الفلسفي كمفهوم الحتمية، وبعضها على المستوى العلمي كمفهوم المادة والحركة والجاذبية، وهذا راجع للتجارب العلمية التي أفضت إلى نتائج

مخالفة لتلك التي جاءت بها الفيزياء الكلاسيكية، كفكرة "الأثير"*، الزمان المطلق، المكان المطلق وهي مفاهيم عقلية غير تجريبية، لذلك بات من الضروري إعادة تعريف المفاهيم

---

[1] – فرانك فيليب، فلسفة العلم، الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1983م ص33.

[2] –إنراكسون واليتر،أينشتاين حياته وعالمه، ترجمة هاشم أحمد محمد، نشر دار كلمة وكلمات عربية، ط3؟2011م ص24.

*- فكرة الأثير كما تخيلها علماء القرن التاسع عشر، هي عبارة عن مادة رقيقة، تملأ الفراغ الكوني،ويقوم بالعديد من الوظائف،أهمها كونه وسطاَ لانتقال الموجات الضوئية والكهرومغناطيسية الضوئية، ووظيفته بالنسبة لفيزياء نيوتن كانت أهم، وهي قيامه بدور المرجع أو إطار الدلالة الثابت ثبوتا مطلقاَ، وبالتالي يسمح بإجراء التحويلات الرياضية بين النظم الميكانيكية المتحركة، بالنسبة لبعضها البعض بسرعة منتظمة، ولنضرب على ذلك مثالا: فالقمر يتحرك بالنسبة للأرض والأرض تتحرك بالنسبة للشمس،والشمس تتحرك بالنسبة لمركز المجرة، فكل هذه التحويلات الرياضية لمعادلات الحركة بين هذه النظم تنتسب إلى مرجع واحد ثابت وهذا المرجع، هو ما يسمي بالأثير، وبذلك تتساوي تقديرات مختلف الملاحظين بالنسبة للزمان والمكان، أو الحركة، بصرف النظر إن كان بعضهم فوق الأرض ،أو البعض الأخر في أقصى أطراف المجرة، وهذا ما يسميه نيوتن بالزمان المطلق والمكان المطلق. فالكون في نظره يسبح في فضاء ساكن سكونا أبدياَ، فهو المكان المطلق(الأثير)، وحركات الأجسام بالنسبة إلى هذا المكان المطلق أنها أجسام مطلقة، الشيء الذي يؤدي بوجود زمان مطلق كذلك.

الفيزيائية تجريبياً حتى نصل إلى نتائج مبررة بواسطة التجربة، فالعديد من التجارب أجريت من أجل معرفة قوانين الطبيعة حيث توصل "أينشتاين" سنة 1905م إلى الاقتناع بأن "المعلومات التجريبية تدفعنا إلى قبول حقيقتين في الطبيعة :الأولى هي أن سرعة الضوء كما تبين القياسات تظل ثابتة بغضّ النظر عما إذا كان مصدر الضوء هو المتحرك أومن يقوم بالقياس، أما الحقيقة الثانية تكمن في أن السرعات المطلقة لا يمكن قياسها والسرعات التي يمكن تعيينها فحسب هي السرعات بالنسبة للأجسام الأخرى."[1]

يتضح أن "أينشتاين" تمكن من تبيان أن كثير من الجوانب غير المتوقعة للعالم من حولنا لازالت في طي المجهول حيث عرفت منظومته فكرة الزمان الخاص أو النسبي مكان الزمان الكلي المطلق، مما يعني أن النظرية النسبية ليست مجرد إضافة للفيزياء الكلاسيكية ولكنها انقلاب ابستمولوجي ارتكز على رفض مفهوم المطلق، فالنتائج العلمية التي كانت الفيزياء الكلاسيكية ترفعها إلى مرتبة المسلمات أصبحت محل شك وارتياب.

لقد أسقط "أينشتاين" المفهوم المطلق للأشياء فلا وجود للزمان المطلق ولا للمكان المطلق ولا للكتلة المطلقة، بل لاشيء في العالم له صفة الثبات أو السكون المطلق، ولا توجد حقيقة مطلقة يمكن أن نصف بها هذا العالم سوى أنه عالم نسبي جميع ما فيه يتصف بالنسبية "فالجسم الساكن الذي لا يتحرك حقيقة بالنسبة لراصد ساكن أيضاً، أما إذا تحرك هذا الراصد فإنه سيرى هذا الجسم يتحرك بالسرعة نفسها في اتجاه معاكس، كما أن سرعة أي جسم يمكن أن تتحدد بقيم مختلفة، وذلك باختلاف المنظومات الإحداثية التي من خلالها تجري عملية القياس، والذي لا يتمتع بصفة الصحة المطلقة فكل القياسات التي يقوم بها العالم الطبيعي هي حقيقة بالنسبة لمنظومته الإحداثية فقط."[2]

[1] – بوش جيرد فريدريك وجير دافيد، أساسيات الفيزياء ج5 ،الخاص بالفيزياء الحديثة، تر، سعيد الجزيري وأيمن سليمان، دار الدولية لاستثمار الثقافي، مصر القاهرة، (بـ ط)(بـ ت) ص986.

[2] - حسن العلوي جاسم، العالم بين العلم و الفلسفة، مرجع سابق، ص83

الثابت الوحيد عند "أينشتاين" هي سرعة الضوء حيث أثبت أن قوانين الطبيعة تتغير بتغير الحركة، "فالساعات المتحركة تمضي ببطء عن الساعات الساكنة، وإذا بلغت الحركة مقدار سرعة الضوء فإن الساعات تتوقف تماماً كما أن الجسم المتحرك يتغير حيث ينقص طوله كلما زادت سرعته، وعند بلوغه سرعة الضوء يصير طوله صفراً، وكذلك كتلة الجسم تصل إلى قيمة لانهائية عند سرعة الضوء، فالزمن يختلف باختلاف المحاور المرجعية."[1]

يتضحِ مما سبق أن المقاييس التي نستخدمها لقياس الأشياء لن تكون صحيحة بصفة مطلقة لاختلاف موضعِ القياس من الزمن، كما يترتب عن هذا أيضاً اختلاف وحدات الزمن المحلي أو نسبة الوحدة الزمنية، ومن خلال هذه النظرية نستتشف النتائجِ الفلسفية وتتمثل خاصة في استبعاد فكرة المطلق، "حيث لم يعد الزمان منفصلاً عن المكان بل أصبحا يكونان متصلاً واحداً رباعي الأبعاد، ولقد ترتب عن ذلك نتيجة هامة، هي أنه لم يعد هناك ما يعرف بالزمان التاريخي، أو الزمان الواحد الفريد، ويقصد به الزمان الذي يسير في اتجاه واحد، بل تعددت المتواليات الزمنية، وأصبحت مرتبطة بالإنسان الذي يرصد، ويحدد الحركة. فاختفت فكرة المطلق من العلم الفيزيائي، وذلك بانهيار أساسها المنطقي "الأثير" فصارت القوانين العلمية نسبية، والحقيقة العلمية أصبحت تتوقف على حقائق أخرى."[2]

هذا الأمر دفعِ بكثير من المفكرين إلى اعتبار أن النظرية النسبية ليست نظرية فيزيائية بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة لكنها مذهب فلسفي لها أبعاد ميتافيزيقية، فتبين أن الكون أكثر تعقيداً عما كان يبدوا عليه في زمن "نيوتن"، مما جعل العلم يتفتحِ على مجالات لا تخضعِ لتفسيره، لقد آمن "أينشتاين" كما آمن "ماخِ" من قبله "بأنه ليس هناك عالم حقيقي يستطيعِ الفرد أن يعود إليه، وأن المفهوم الكلي للعالم الواقعي ثم تبريره بالعودة إلى العلاقات العقلية

---

[1] – مرحبا محمد عبد الرحمن، أينشتاين، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1983م، ص74.

[2] – عبد الفتاحِ محمد بدوي، فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين؟دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيعِ، القاهرة(ب ط)2007م، ص246.

التي تنسجِ انطباعات حسية في شبكة مترابطة إلى حد ما، أي بين وجود العالم الحقيقي أو الواقعي و بين انطباعات الحواس اتصالاً ذهنياً."[1]

لقد حاول "أينشتاين" أن يكتشف قوانين حقيقية في عالم الطبيعة من خلال بناءات ترتكز على وقائعِ طبيعية معروفة، لكن وجد نفسه أمام صعوبات فيزيائية جعلته يلجأ إلى الخيال لتبرير نتائجِ بحته وليس للوقائعِ التجريبية، فهو يعتقد في معقولية العالم حيث جعل من العقل وسيلة فعالة في فهم الطبيعة التي تحتوي على أسرار، فاقتنعِ "بالمبادئ العامة التي تؤدي لوحدها إلى نتائجِ مؤكدة."[2] حيث يلعب الحدس دور فعال في الإنتاجِ العلمي.

هذا الحدس النابع من قوة العقل يمثل في نظر "اينشتاين" نقداً ابيستمولوجياً يتجاوز من خلاله الطابع الوضعي للعلم، حيث يرفض حصر دور العقل في العلم الذي يحكمه الاستنباط المنطقي الخالص، ويؤكد أن المسار الأساسي للمعرفة العلمية يرتكز على الإبداع العقلي والخيال مستبعدا الجانب الحسي، فالأفكار هي من إنتاج العقل الخالص فهي ليست كيانات مجرد تطابق الموضوعات بل هي الموضوعات ذاتها من وجهة نظر الفكر. من هنا يستبعد "أينشتاين" المعيار الخارجي الحسي لتحديد الفكرة الصحيحة، فلا تواز عنده بين الأفكار والأشياء وبالتالي فمعيار الحقيقة ليس تطابق بين الفكر وموضوعه، بل هو كامن في الفكرة الصحيحة نفسها، فالنظريات العلمية تنبع من العقل لتكشف الحقيقة الموجودة في الطبيعة وهي حقيقة لا تخرج عن إطار الممكن والظرفي.

يعلق "**فيرابند**" على الطرح العقلاني "لأينشتاين" ويعتبره ضرب من الخيال، فالأفكار الخالصة التي ينتجها العقل كثيراً ما تكون اعتباطية خيالية لا تقدم تفسير حقيقي لمجريات

---

[1] - ألبرت اينشتاين، أفكار وآراء، تر رمسيس شحاتة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986م، ص76.

[2] - Feyerabend Paul .A dieu la raison. op.cit.p224.

« Que seul la découverte d'un principe universel conduirait…à des résultats surs »

الحوادث الطبيعية الغامضة" لذلك استعانوا بالخيال أكثر من البحث في الطبيعة وبالتالي كانت أبحاثهم تنغمس في الميتافيزيقا و اللامعقول أكثر من بحثهم في الواقع العلمي."[1]

إن معظم الفيزيائيون يلجئون إلى الخيال والحدس لتفسير الكثير من المسائل الطبيعية،" فالمبادئ العلمية المعمول بها تتداخل مع الخيال...فحدس "أنشتياين" وإيمان "بلانك" وجمالية "ديراك" كلها تحتوى على خصائص غريبة عن العلم، لذلك أكد "بلانك" على الطابع اللاعقلاني و الميتافيزيقي للمبادئ الأساسية للعلم، وتحدث "اينشتاين" من جهته على دور الأساسي للدين في بناء العلم."[2]

[1] - المالكي علي،الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند "ألبار أينشتاين، مرجع سابق، ص216.

[2] -Feyerabend Paul ;A dieu la raison ;op cit ; p243.

« Les principes scientifiques qui existent effectivement, comparés de manière incomplète aux entités fictives…l'intuition d'Einstein, la foi de Planck, la Beauté de Dirac-est vouée à posséder de très étranges propriétés, c'est pourquoi blanck insistait sur le caractère irrationnel et métaphysique des principes fondamentaux et pourquoi Einstein parlait du fondement religieux de l'effort scientifique »

يبدو أن المشروع الفلسفي لـ"أينشتاين" مؤسس على مثالية واقعية جعلت من حقائق العلم بنائية يراقبها العقل، وهي حقائق تحمل في ذاتها البعد التأملي النابع من قوة المخيلة، فأي +عقلانية تتحدد حسب تخصصات البحث العلمي ومن منطلق قناعة المفكر وكيفية استخدامه لأساليب المنطق والبرهنة، لذلك لا يوجد عقلانية واحدة مطلقة بل هناك عقلانيات تتنافس في البحث عن الطرق المؤدية للحقيق، لذا يجب على العقلانية أن تكون متفتحة بطبيعتها على الحوار الدائم مع الواقع والحياة والأفكار وتحاور اللاعقلاني من منظور روح نقدية عفوية ومن ثم لا تبقي العقلانية حكماً كليا على كل التقاليد، فلكل عصر ثقافة خاصة به تتحدد من خلال القيم والمبادئ التي يكون لها دور في تطوير العلم، يقول "**فيرابند**":" تقود المناهج اللاعقلية أحياناً إلى النجاح بالمعني نفسه بالنسبة لأولئك الذين يعتبرونها لا عقلية بينما تستطيع المناهج العقلية أن تكون سببا في مشاكل كبرى"[1] .

استمد "**فيرابند**" هذه الأفكار من دراسته لتاريخ العلم الذي يعتبر أحد أهم الخلفيات العلمية لفلسفته حيث نظر إلى هذا التاريخ بطريقة مخالفة عن سابقيه سواء الوضعانية أو التفنيدية مبيناً حدود مناهجهم في تفسير كيفية تقدم العلم، وأعاد بناءه من خلال نظريته الفوضوية مشيراً إلى أهمية التصورات اللاعقلانية في تطور العلم، فتاريخ العلم يشهد بأهمية الممارسات البدائية في تفسير الكثير من الظواهر التي كانت أقرب للواقع من النظريات العلمية.

---

1 - انظر العقلانية وانتقاداتها، مقال لفيرابند بعنوان وداعاً يا عقل، من إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، ط1، دار توقبال دار البيضاء، 2004م، ص49.

4-تاريخ العلم والكشف على اللامعقول:

من أهم المرجعيات التي جعلت "**فيرابند**" يتوجه نحو فلسفة اللامعقول تتبعه للإنجازات العلمية التي عرفها تاريخ العلم، فهو يرفض الفصل بين النظريات العلمية وبين سياقها التاريخي فلا يمكن إهمال المسار الحضاري والاجتماعي الذي نشأت فيه هذه النظريات، فهي تتشكل ضمن النسيج العام للتجارب الحياتية، إذ يؤكد:"أن المادة الموجودة في متناول العالم وقوانينه ونتائجه التجريبية وتقنياته الرياضية والنواحي الإبستمولوجية وموقفه تجاه العواقب السخيفة للنظريات التي يقبلها، ليست محددة بعدة طرق غامضة، وليست منفصلة تماما عن الخلفية التاريخية."[1]

يعبر "**فيرابند**" أن تاريخ العلم كفيل بتبيان الطريقة التي ينمو بها العلم لأنه يكشف عن الظروف والملابسات العامة المساعدة على ظهور النظريات العلمية، وأي عمل علمي لا يستند إلى التاريخ يبقى محدود، فهو يؤكد على أهمية تاريخ العلم، إذ يقول "فالتاريخ بشكل عام، وتاريخ الثورات العلمية بشكل خاص أغني دائماً في محتواه، وأكثر تنوعاً وتعدداً للجوانب أكثر حيوية مما قد يتخيله أفضل المؤرخين والمنهجين والتاريخ مليء بالحوادث والتخمينات والعلاقات المثيرة بين الأحداث."[2]

---

[1]- فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص94.

[2] - المصدر نفسه، ص23.

يعيب "**فيرابند**"على الوضعية المنطقية إغفالها لتاريخ العلم، وأن منطق التبرير الذي تبنته لا يفيد العلم بل يعيقه لأنه يجرد البحث العلمي من قواعده التاريخية، فالعلم ينمو ويتطور من خلال النظر إلى جذوره التاريخية، فالنظريات العلمية تنشأ في ظل معطيات اجتماعية تاريخية تجعلها قادرة على الظهور، ويقدم "**فيرابند**" شواهد من التاريخ "فاليونان كان لديهم من العلوم الرياضية والعبقرية الفكرية ما يؤهلهم إلى أن يتوصلوا إلى حقائق علمية وأفكار نظرية تأخر انبثاقها إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين."[1] وهذا التأخر لم يكن بسبب نقص المهارات العلمية أو القدرات الذكائية بل كان وراءه ظروف تاريخية، فأي نظرية علمية تنتظر اللحظة التي تسمح لها بالظهور، مبيناً أن الفوضوية الإبستمولوجية اكتسبت مشروعيتها من خلال حقيقة الممارسات العلمية في مختلف الفترات التاريخية، كما يبين دور الموروث الحضاري للإغريق المتمثل في المؤهلات الرياضية "للفيثاغوريين" والرياضيات "إقليدس" في ظهور الإنجازات العلمية التي حدثت في عصر النهضة خاصة في علم الفيزياء.

[1] - نقلاً عن موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت لبنان ط 1، 2012م ص352.

يشير"**فيرابند**" إلى أهمية العوامل الحضارية والتاريخية في نشأة النظريات العلمية والحفاظ عليها، فالبابليين قاموا بحسابات رياضية مكنتهم من رؤية القمر والأجرام السماوية واختلفوا في ذلك عن الإغريق الذين قدموا نموذج علمي تجريبي مختلف، فكلا النموذجين صحيحين بالنظر إلى العوامل التجريبية العلمية، لكن العوامل التاريخية ساعدت النموذج الإغريقي على البقاء، في حين اختفي النموذج البابلي.[1] الأمر نفسه ينطبق على نظرية "نيوتن" "فالنظرية ليس لها إلا علاقة واهية بحساب الاضطرابات السماوية التي قدمها فيما بعد، وكلاهما يختلف عن ميكانيكا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر،(فالصيغة القائلة أن القوة تساوي الكتلة مضروبة في نسبة التغير في السرعة) لا نجدها أبداً في كتابات "نيوتن" وتختلف هذه النظريات أيضاً عن الميكانيكا الكلاسيكية للنسبيين ومنظري الكوانتم...تتغير الطرق اعتماداً على المواقف التاريخية التي تحدثها."[2]

[1] - موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص 353.
[2] - بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص213.

إن تاريخ العلم وسيلة نكشف من خلالها عن حقيقة الممارسة العلمية فهو يوجه العلماء نحو معرفة أساليب وطرق البحث العلمي وكيفية تطور العلم، لذلك استند إليه "**فيرابند**" ليستقي حججه وبراهينه لتدعيم أفكاره للوصول إلى الفوضوية، فهو يرفض أي إهمال لهذا التاريخ، فالدراسات العلمية التي لا تلتفت إلى الماضي ولا تعتني بالأطر التاريخية التي ظهرت فيها النظريات العلمية يعتريها النقص ولا يمكنها أن تتوصل إلى الكشف عن الحقائق العلمية، فتوجه العلم نحو المستقبل واهتمامه فقط بالخصائص المنطقية يشوه معالم تشكيل العلم، فإذا كان هذا الأخير لا يفكر بذاته حسب تعبير "هيدجر"(Heidegger) فإن فلسفة العلم المعاصرة أصبحت تولى اهتمام كبير بهذه الدراسة، ذلك أن كل النظريات والمناهج التي تدعي المعقولية عند مقارنتها بالحقائق التاريخية تواجه صعوبات عديدة وتكشف عن ولوج الكثير من الممارسات اللامعقولة التي بإمكانها أن تفيد العلم لأنها تمثل تقاليد حياتية اجتماعية قد تتجاوز القواعد الصارمة ببدائل أكثر نجاعة، يقول "**فيرابند**" تواجه فكرة وجود منهج علمي يتضمن مبادئ صارمة لا تتغير وملزمة إلزاماً مطلقاً صعوبات جمة عند مقارنتها بنتائج البحث التاريخي...إذ لا توجد قاعدة واحدة، مهما بدت ممكنة، أو مستندة إلى أسس ابستمولوجية راسخة إلا وتم تجاوزها في وقت من الأوقات."[1]

[1] - بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص 11-12.

يرى "**فيرابند**" أن كل الدراسات والمناقشات التي أجريت بين الإبستمولوجين، لم تعطي أهمية لتاريخ العلم بحكم أن العلم لا يهتم بالماضي بل بالمشاريع المستقبلية، "فقد رأى أن الاتجاه الذي كان رائجاً في المناقشات الميثودولوجية هو مقارنة القضايا ببعضها بغض النظر عن تاريخها، ودون اعتبار لكونها ربما تنتمي لأطوار تاريخية متباينة وعناصر المعرفة كالنظريات والملاحظات والمبادئ التي ترتكز عليها براهيننا يفترضونها بلا زمن أو سرمدية."[1]

يصر"**فيرابند**" على دور التطورات التاريخية والحضارية في بناء المعرفة العلمية، فكل الحقائق العلمية لابد وأن ترتبط بتاريخيتها ولا يمكن فصل العلم عن سياقه التاريخي فالمعرفة العلمية تتشكل ضمن النسيج العام للمعرفة الإنسانية فهي لا تخلو من الجوانب الميتافيزيقية والملامح الإيديولوجية واللاعقلانية التي تفرض نفسها على الفكر الإنساني وعبر تاريخه الطويل.

---

[1] – عوض عادل،الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، ص19

يستدل "**فيرابند**" على رأيه باستقراء تاريخ العلم ويتحدث عن انجازات "قاليلي"بأنها أفلاطونية بعيدة عن حقيقة الواقع، وأفكاره لاقت رواجاً بسبب اقترابه من السلطة، وتمكنه من فن الخطابة، إذ يقول:" يستعمل قاليلي الدعاية ويستعمل الخداعات السيكولوجية بمثابة إضافة إلى كل دليل يقدمه، هذه الخادعات ناجحة إنها تقوده إلى الانتصار، والتلسكوب الذي صنعه ضعيف جداً لا يمكن أن يقرب العين من سطح القمر لذلك يستعين بعلاقاته مع الأمراء لغرض دعواه، ويترك دهاء قاليلي انطباعاً لدى المتلقي إن ما يدعيه صائب، غير أن هذا الانطباع بالتأكيد يأتي نتيجة الدسائس الدعائية من لدن قاليلي."[1]

يريد "**فيرابند**" التأكيد على دور وأهمية السياق التاريخي في تشكيل المعرفة العلمية فهي تتشكل ضمن التقاليد العامة للمجتمع وتراكمية النشاط الإنساني عبر تاريخه الطويل داخل إطار مسيرته التاريخية والحضارية التي لا يمكن فصلها عن الفروض الميتافيزيقية وملامح الإيديولوجية واللاعقلانية، فالعلم يمثل نشاطاً بشرياً من بين الأنشطة المختلفة ولا يمكن اعتباره حكماً عليها بل لابد وأن ينظر إليه كباقي التقاليد الأخرى، فهو لا يمثل أرقي أشكال المعارف الإنسانية.

يتضح مما سبق أن فلسفة "**فيرابند**" الفوضوية وتفتحها على اللامعقول هي نتاج لخلفيات متعددة منها ما يتعلق بطبع وسيكولوجية الفيلسوف في حد ذاته، فحالة الاكتئاب والحزن الناتج عن الأحداث المؤلمة التي مرة بها جعلته يتقبل كل شيء ولا يلتزم بأي شيء، وكأنه يدعو إلى فلسفة عبثية كتلك التي دعى إليها "ألبار كامي"(Albert camus) إلى جانب ذلك تأثره بالفلسفات الداعية إلى التحرر ورفض كل قيود الالتزام كالفلسفة العدمية عند "فريدريك نيتشه" وفلسفة الحرية عند "جون ستيوارت مل"، ضف إلى ذلك نزعته النسبية في المعرفة العلمية القائمة على محدودية العلم وعدم مطلقيته وبالاستناد إلى تاريخ العلم، كل هذه الخلفيات كانت سبباً في نمو الحس النقدي لدى "**فيرابند**".

---

[1] - نقلاً عن موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص387.

حيث قام بهدم كل القواعد وأسس البناء العلمي للإبستمولوجيات سواء تعلق الأمر بالنزعة الوضعانية أو التفنيدية وما بعدها، وهذا ما سوف نتطرق إليه بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث.

الفصل الثاني

نقد فيرابند للعقلانية المعاصرة والتفتح على اللامعقول

المبحث الأول: الوضعية المنطقية

المبحث الثاني: نقد "فيرابند" للعقلانية النقدية

المبحث الثالث: فلسفة توماس كون والموقف النقدي لفيرابند

المبحث الرابع: نقد فيرابند للعقلانية الميتودولوجية "إمري لاكاتوس

مدخل: تطرقنا في الفصل السابق إلى أهم المحطات التي مثلت مختلف الخلفيات التي ساهمت في بلورة فكر هذا الفيلسوف الثائر، سواء تعلق الأمر بحياته المتوترة والتي جعلت من فلسفته أكثر تشاؤمية أو تأثره بالفلسفات الشكية والعدمية إلى جانب الاختلافات العلمية، في ميدان الفيزياء المعاصرة كنظرية الكوانتم ونظرية النسبية، مما جعل فلسفته تتميز عن باقي التصورات الأخرى بطابعها النقدي، فهاجم العقلانية بمختلف صورها ونبد كل قوانين العقل والعقلانية، رافضاً كل الشروط الصارمة التي تقيد حرية الفرد في الإبداع، فوقف ضد كل المعايير التي يفرضها العلم والمنطق.

فجاءت فلسفته كرد فعل لتلك الاعتقادات القائلة بأن الفلسفة العلمية المعاصرة ممثلة في التجريبية المنطقية والفلسفة التحليلية، تشكل أرقي نموذج معرفي فلسفي باعتمادها النزعة الاستقرائية النابعة من الواقع والتجربة، جاعلة من التطور الفيزيائي في العلوم الطبيعية نموذجاً لتطور الخطاب الفلسفي العلمي المعاصر، بحيث اتخذت من مبدأ التحقق معياراً للحكم على مشروعية النظريات العلمية، وباستخدام الاحتمالات لتحديد درجة يقينها، وبالرغم من أن "**فيرابند**" ينتمي إلى تيار الموازي للوضعانية الذي بدأ مع "بوبر" إلا أن نقده لم يقتصر على التجريبية المنطقية، بل شمل كذلك المشروع "البوبري" القائم على الاستنباط، متخذا من مبدأ القابلية للتكذيب معيار للتميز بين العلم واللاعلم واصفاً منهج "بوبر" بالتكذيبية الساذجة مقتدياً بزميله "لاكاتوس" مبيناً أن الفصل بين العلم واللاعلم من منطلق التفنيد مزيف واصطناعي، يضر بتطور المعرفة الإنسانية وتقدمها.

إن النزعة النقدية التي تميزت بها فلسفة "**فيرابند**" وقفت ضد كل الميثودولوجيات والعقلانيات القائمة، شملت كذلك أنصار النزعة النسباوية التي شكلت مرحلة ما بعد التفنيدية، سواء تعلق الأمر بالعقلانية المؤسساتية لـ "توماس كون" أو العقلانية الميتودولوجية لـ "إمري لاكاتوس".

المبحث الأول: الوضعية المنطقية:

قبل التطرق إلى الانتقادات التي وجهها "**فيرابند**" للوضعية المنطقية، ارتأينا أن نبين ظروف نشأتها وأهم أسس التي قامت عليها.

1-نشأتها

"استمدت الوضعية تراثها الأول من الفيلسوف الفرنسي "أوغست كونت" **Auguste comte** و"جون ستوارت مل"**jean stéwart mill** وسبنسر **Spencer** في انكلترا، بيد أنها لا تدين لهم بالقدر الذي تدين به للوضعية المحدثة **Néo positivism** التي وضعها الفيلسوف النمساوي "أرنست ماخ" **Ernest mach** وهنري بوانكاريه **henri poincarè** وأنشتاين Einstein، وكان منطقها من الناحية التاريخية هو منطق "فريجه" **frege** وراسل Russell، لكن التأثير القوي والمباشر في نشوء الأفكار الأساسية للوضعية المنطقية وتبلورها جاء من كتاب فتغنشتاين **Wittgenstein** رسالة منطقية فلسفية".[1]

تأسست هذه الحركة على يد جماعة من العلماء في تخصصات متعدد شكلت ما يسمي بحلقة فيينا، كانوا يجتمعون في لقاءات دورية استمرت مابين عام 1922 إلى 1938 اهتمت بمناقشة قضايا ومفاهيم فلسفة العلم، ترأسها عالم الطبيعة ذو ميول فلسفية "موريس شليك" **Moritz Schlik**(1882-1936)، الذي كان يشغل كرسي الفلسفة والعلوم الاستقرائية بجامعة فيينا" إلى جانب بعض العلماء من بينهم الرياضي "هانز هان" **Hahn Hans**(1879-1934) و"كارل منجر" **Carl Menger** (1840-1921)، والمنطقي الألماني"رودولف كارناب" **Rudolf Carnap**(1891-1970) والفيزيائي "فليب فرانك" **Frank Philip**(1903-1968) وعالم الاجتماع "أطو نيوراث" **Otto Neurath**(1882-

[1] - سوسن بيطار موقع الكتروني ابحث في المعرفة، ، لـ ، تاريخ النشر 14 ديسمبر2011، تاريخ الإقتباس 2017/08/06.على الساعة العاشرة صباحاً الرابط الإلكتروني .https//www marefa.org-

1945)، و"فيكتور كرافت"Victor Kraft(1880-1975)"،[1] وكانت الانطلاقة الحقيقية والرسمية لهذه الجماعة مع أول بيانا لها عام 1929م وظهر أول نشاط لها بإصدار مجلة المعرفة "فامتد نشاطها إلى ألمانيا أين انضم إليها كل من "هانز ريشنباخ" **Hans Reichenbach** (1891-1953) و"ريشارل فون ميزس"**Richard von Mises** (1883-1953) و"كارل همبل"**Carl Hempel**(1905-1997)، ازداد نشاط الجمعية بعد عقد مؤتمرات عديدة خاصة في أنحاء العالم الأنجلو سكسوني، حيث مثلها "ألفيرد جولز أير" **Alfred Jules Ayer**(1910-1989) في انجلترا أين أصدر مؤلفه"اللغة والصدق والمنطق"سنة 1936م والذي يعتبر البيان الثاني للحركة، كما انضم إليها "أرنست ناجل" **Nagel Ernest**(1901–1985)".[2]

تم "اغتيال زعيم الحركة "موريس شلينك" في نفس السنة التي صدر فيها البيان داخل الجامعة من طرف طالب يدعي "كال بوك".Kelbock، ومع تنامي الغزو النازي وتزايد خوف أعضاء الحركة بحكم أن معظمهم يهود تفككت دائرة فيينا تماماً، وهاجر الكثير منهم إلى غرب أوربا وأمريكا وحملوا معهم الوضعية المنطقية، من الإطار الجرماني في النمسا وألمانيا إلى الإطار لأنجلو أمريكي في انجلترا وأمريكا وأستراليا"[3].

رغم ما ذكر من أحداث وأهداف أدت إلى نشأت الحركة إلا أن ما يهمنا هو توضيح رؤيتها الفلسفية، ورسم معالمها الكبرى القائمة على النزعة العلمية المنطقية الصارمة وتحديد الموقف النقدي لـ"**فيرابند**" منها، حيث لا يمكن الحديث عن الوضعية المنطقية بمعزل عن المؤثرات الخارجية التي بلورت فلسفة الوضعيين.

---

[1] - كارل بوبر، منطق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي،،دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1986م،ص14.

[2] - المرجع نفسه، ص16.

[3] – طريف الخولى يمنى،فلسفة العلم في القرن العشرين،الأصول –الحصاد–الأفاق المستقبلية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط1، 2009م، ص316.

استفادت الوضعية من أعمال المناطقة الألماني "أمثال"جوتلوب فريجه" **GFrege** (1848-1925) الذي كان له الفضل في استخدام المنطق الرمزي في صياغة لغة فلسفية علمية و"برتراند رسل **B. Russel** (1874-1970) كما لا يمكن إغفال دور "لودفيج فيتجنشتاين" **L Weittgestein** (1889-1951) الذي حدد غاية الفلسفة في الإيضاح المنطقي للأفكار من خلال كتابه "الرسالة المنطقية الفلسفية" التي عرض فيها لفلسفة الذرية المنطقية، والتي عدت بمثابة إنجيل الحركة استلهموا منها ما يخدم توجهاتهم العلمية خاصة تلك الأفكار المناهضة للميتافيزيقا، وهو في ذلك يريد أن يخلص الفلسفة من اللغة الميتافيزيقيا التي لا تخدم الفلسفة العلمية، إذ يقول "الفلسفة علاج من داء التعقيد الماورائي."[1]

غرضه في ذلك توجيه الفلسفة نحو الطريق السليم حيث اهتم بالتحليل المنطقي لمفاهيم العلم والابتعاد عن المسائل الميتافيزيقية، لأنها خالية من المعنى بذلك يكون قد وضع التقليد النظري للنموذج المنطقي الذي عنى بتوضيح أسس التحليل في الفلسفة الوضعية المعاصرة، فمهمة الفلسفة إذن هي التحليل، وإذا أرادت أن تضمن لنفسها البقاء وأن تتسم نتائجها بالدقة والضبط كما هو الشأن في العلوم الأخرى، وعليها أن تعتني بتحليل القضايا العلمية والتوضيح المنطقي للأفكار بواسطة لغة منطقية واضحة، فالفيلسوف عند "فتغشتاين" ليس وظيفته صياغة القضايا النظرية بنظرية فلسفية، بل وظيفته تتمثل في النشاط التوضيحي للقضايا التي تصف الواقع، وعلى الفيلسوف أن يكف عن البحث في المجالات البعيدة عن العلم، الفلسفة لا تسبق العلم بل تتبعه لتوضيح وتحليل قضاياه".[2]

من هنا يتضح مدى تأثر الوضعية المنطقية بالفلسفة المنطقية التي أسسها وسطرها "فتغتشتاين"، فما هي أهم أسس ومبادئ الحركة؟.

---

[1] - فتغنشتاين لودفيك، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق، عبد الرزاق بنور، مركز الدراسات الوحدة العربية بيروت، ط1،2007م، ص69.

[2]- سالم يفوت، فلسفة العلم المعاصر، ومفهومها للواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1 بيروت، 1986م، ص122.

2-أسس ومبادئ الوضعية المنطقية:

نتيجة للتوجه العلمي للوضعية المنطقية حرص روادها على وضع أسس لتقويم الفهم والتحليل للمعرفة الإنسانية، وذلك لتكوين معرفة علمية موحدة من خلال تضافر جهود الباحثين في مجالات علمية مختلفة معتمدين في ذلك على منهج التحليل المنطقي قصد تحرير العلم من أوهام الميتافيزيقا، حيث أثمرت هذه الجهود عن نشأت توجهين، التوجه التجريبي الذي يولي التجربة الحسية قيمة أساسية وصلبة في المعرفة، والتوجه النظري للنموذج المنطقي، والتوجهين معا مثلا دعائم الفلسفة الوضعية المنطقية إلى جانب استفادتها من التطورات العلمية التي حدثت في أوائل القرن العشرين، سواء تعلق الأمر بالنظرية النسبية التي قلبت المفاهيم العلمية المتعارف عليها في حقل الفيزياء الكلاسيكية، مثل الكتلة والزمان والمكان والطاقة، وأثبتت ميتافيزيقية الاعتقاد بوجود زمان مطلق ومكان مطلق، أو نظرية الكوانتم التي كان لتطورها أكبر أثر في تغيير موقف بعض العلماء من الحتمية والسببية، كل هذه المعطيات جعلت أنصار الوضعية المنطقية يعتمدون مبادئ حددت المسار الفلسفي للحركة ومن أهمها مايلي:

2-1 النزعة التجريبية الاستقرائية:

يتفق أنصار الوضعية المنطقية أن المعرفة لا تكتسب إلا من خلال المعطيات الحسية حيث اعتمدت الاستقراء كسبيل للكشف العلمي، واعتبرته المنهج الوحيد للوصول إلى المعرفة العلمية، فمشروعية أي نظرية علمية تؤسس بواسطة ملاحظات ووقائع يتم استقرائها بحيث لا يمكن تصور سبيلا أخر لبناء معرفة علمية من غير أن يكون للاستقراء فيه دور أساسي في نقل المعرفة من التجربة الحسية إلى التعقل المجرد، تعود هذه النزعة إلى الفلسفة التجريبية التي تأسست مع "فرانسيس بيكون" (**F.Bacon**; 1561-1626)، حيث وضع المنهج الاستقرائي القائم على التجربة فتجاوز به المنطق الأرسطي القائم على الجدل اللغوي، واعتبره الوسيلة الضرورية للتحكم في الطبيعة من خلال الكشف عن أسباب الظواهر وصياغة القوانين، واتبعه في ذلك"جون ستوارت

مل"(1873-1806; **J.S.Mill**)، حيث وضع طرق* منطقية لاختبار الفروض المؤقتة التي يقدمها الباحث لتفسير الظاهرة المدروسة، يرى "مل" إن هذه الطرق تعتبر وسيلة مشروعة للتأكد من صحة الفروض، فضلا عن أنها تنقل الفرض من وضعه كتفسير مؤقت إلى مرحلة كونه قانوناً.[1]

تجدر الإشارة هنا إلى تبيان الموقف الدفاعي لـ"مل" عن مبدأ إطراد الحوادث ومبدأ العلية خصوصا بعد الحملة التشكيك التي أثارها "دافيد هيوم" حول مبدأ العلية(1776-1711; **D.Hume**)، حيث اعتقد "مل" أن الوقائع مرتبطة ببعضها البعض علياً من منطلق أن لكل حادثة علة، وهذا يعد مجرد تبرير لاعتقادنا بالعلية دون أي إثبات يؤكد على وجود العلية كأساس تخضع له الظواهر الطبيعية، حيث بين "هيوم" أنه لا يمكن اعتبار مبدأ العلية مبدأ كلي لأن كل ما يتعلق بالعالم الطبيعي يتضمن الاحتمال لا الضرورة أو اليقين، فالقول بالعلية هو مجرد تعبير عن جهلنا بحقيقة ما يدور في الطبيعة من علاقات بين الظواهر، ويرجع "هيوم" العلية ومبدأ الاطراد إلى العادة أو الطبع حيث تتكون لدينا عادة الاعتقاد في القانون من التكرار الناتج عن التتابع بين الوقائع، من هنا بدأ صرح العلم الموضوعي في الانهيار من خلال الشك في علمية الاستقراء على أساس أنه غير مبرر لا من الناحية العقلية ولا من الناحية التجريبية، فالتجربة الخالصة في نظر"هيوم" لا تقدم أساساً كافياً للعلم، والتعميمات الناتجة عن هذا المبدأ لا يمكن الأخذ بها، لأن نجاحه في الحالات الجزئية لا يستلزم نجاحه في الحالات الأخرى، وهذا ما يسمى بمشكلة الاستقراء.

رغم ذلك فإن الاستقرائيين المعاصرين تشبثوا بهذا المبدأ رغم صعوبة تطبيقه حيث يعتبره "موريس شليك" المرشد الأساسي في البحث العلمي، إذ يؤكد قائلاً:" فالاستقراء لا شيء في ذاته لكنه من الناحية الميتودولوجية يعتبر مرشدا للتخمينات في العمليات

* - المقصود بالطرق التي وضعها جون ستيوارت مل، وهي طريقة الاتفاق، طريقة الاختلاف، طريقة الاقتران في التغيير، طريقة البواقي. والغرض منها حل مشكلة الاستقراء.

[1] - عبد القادر ماهر، فلسفة العلوم، المنطق الاستقرائي، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ط) 1984م، ص103.

السيكولوجية والبيولوجية، التي لا يستطيع المنطق أن يفعل إزاءها شيئاً ما".[1] ويشير "فيجل" إلى نفس الرأي معتمدا في ذلك على دور الفرض العلمي في العملية الاستقرائية فيقول:"الحكم الاستقرائي يعبر عن الجانب الواقائعي العام للواقع، وهذا الحكم نقبله كفرض".[2] وبذلك لجؤوا إلى نزع صفة اليقين واستبدلوها بالاحتمال، يقول "ريشنباخ":"هذا المبدأ يحدد صدق النظريات العلمية وحذفه من العلم لن يعني أقل من تجريد العلم من قوة تقرير صدق أو كذب نظرياته، ومن الواضح أن العلم بدون هذا المبدأ سوف لن يكون لديه الحق في تمييز نظرياته من خيال الشعراء الخلاق وإبداع عقولهم... ومبدأ الاستقراء مقبول صراحة من جانب العلم بأسره، وأنه لا يمكن لأي إنسان أن يشكك في هذا المبدأ حتى في الحياة اليومية".[3]

إن المنهج الاستقرائي في نظر الوضعية المنطقية هو المنهج السليم للعلم، يساهم في وضع لغة منطقية للعلم تؤسس على مدى مطابقتها لوقائع مفردة حدثت في زمان ما ومكان ما في العالم الخارجي، والتي لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المنهج الاستقرائي، حيث نستعين بقواعد المنطق في ترتيب حدود العبارات وجمل اللغة للحصول على لغة العلم المحكمة منطقياً، وفي هذه المرحلة نجد أن الوضعية المنطقية لا تختلف عن النموذج "البيكوني" للاستقراء الذي وضع برنامجاً متكاملاً للوصول إلى كشف عن القوانين الطبيعية وتعميمها من خلال الاستقراء، وكذلك الحال بالنسبة للنموذج الحتمي الذي أسسه "جون ستيوارت مل" في وضع أهمية كبرى لهذه المرحلة، وجعلها الأساس الوحيد في بناء المشروع العلمي بوضعه الطرق الصحيحة لاختبار الفروض. إلا أن المستجدات التي عرفها العلم المعاصر في المرحلة الثانية، أي مرحلة كشف القوانين العلمية والتعميمات، ونتيجة لمشكلة الاستقراء حاول أنصار الوضعية المنطقية التعديل من موقفهم والتخفيف من حدة الانتقادات

[1] - بوبر كارل، منطق الكشف العلمي، مرجع سابق، ص22

[2] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها

[3] – موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص130.

الموجه للمنهج الاستقرائي، فأكدوا على عدم وجود قواعد ثابتة للوصول إلى هذه التعميمات، ولا وجود لأي برنامج يدلنا على كيفية إنتاج القوانين بناء على الملاحظات والوقائع التجريبية، حيث أشارة "ريشنباخ" إلى أهمية العبقرية البشرية في الإنتاج العلمي، "فعملية الكشف تعلو على التحليل المنطقي، إذ لا توجد قواعد منطقية يمكن بواسطتها صنع"آلة للكشف" تحل محل الوظيفة الخلاقة للكشف العبقري".[1]

كما يؤكد على أهمية الاحتمال الذي حل محل اليقين في الدراسات العلمية المعاصرة، فعوض التأكيد على نتيجة واحدة صارمة ويقينية، فتح المجال أمام مجموعة من النتائج، فالملاحظات الحسية في نظره لا تقدم إلا دلائل استقرائية تؤخذ على سبيل قوة الاحتمال وليس اليقين المطلق، إذ يقول: "فالعلم التجريبي بالمعنى الحديث لهذه العبارة يجمع بنجاح بين المنهج الرياضي ومنهج الملاحظة، ونتائجه لا تعد ذات يقين مطلق، بل ذات درجة عالية من الاحتمال، ويمكن الاعتماد عليه بالنسبة إلى جميع الأغراض العلمية بقدر كاف".[2]

يتضح مما سبق، ونتيجة لانهيار التجريبية أمام نقد "هيوم" للاستقراء، جعلت "ريشنباخ" يقدم حلول يفسر به الأحكام التنبؤية على أنها ترجيحات، فالباحث ليس مطالب بتقديم براهين تثبت صحة نتائجه بقدر ما يقدم تنبؤات ترجيحية تفضي إلى مزيد من التحليل في النتائج، فإذا أثبتت الملاحظات أن الترجيح باطل معناه أنه قابل للتصحيح، لكن إذا اتجه نحو نسبة مئوية مرتفعة فسوف يوصلنا إلى قيم قريبة من القيمة النهائية، على هذا الأساس حاول "ريشنباخ" إعطاء مصداقية للاستقراء رغم إدراكه العميق بعدم إمكانية تبريره منطقياً، لكن يؤكد صعوبة التخلي عنه، ويعتبره الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها العلم في عملية الكشف والتي تتيح لنا عملية التنبؤ، بخلاف السبل الأخرى، فإذا كانت أهداف العلم الأساسية تتمثل في التفسير والتنبؤ، فإن إمكانية التنبؤ تفترض تصنيف الحوادث والوقائع إلى أنواع، بالاعتماد إلى عدد تكررها مما يتيح للاستقراء أن يكون مبدأ ومنهجا ناجحا لقيام هذه المهمة،

[1] - ريشنباخ هانز، نشأة الفلسفة العلمية،ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 1979م ص204.

[2] – ريشنباخ هانز، نشأة الفلسفة العلمية، مرجع سابق، ص ص38–39

لا يختلف "كارناب"عن "ريشنباخ" في تبرير الاستقراء على أساس الترجيح والاحتمال، إلا أنه أضفى على الاحتمال بعداً منطقياً قبلياً، بعد أن كان ذا طابع تركيبي بعدي عند "ريشنباخ"، فالاحتمال المنطقي لدى "كارناب" "هو علاقة منطقية تربط قضيتين الأولى هي الفرض الذي يفترضه الباحث والثانية هي البنية أو الواقعة التجريبية فإذا كنت بصدد صياغة قضية تقرر أنه بالنسبة لفرض ما، يكون الاحتمال المنطقي فيه 7/10 طبقاً لبنية ما، فالقضية كلية وتحليلية ومعنى هذا أن القضية تنتج مع تعريف الاحتمال المنطقي أو من بديهيات نسق منطقي، دون الرجوع لأي شيء خارج هذا النسق

المنطقي ودون الإشارة إلى العالم الخارجي".[1] إن محاولة "كارناب" تهدف إلى تبرير الاستقراء بإتباع الاحتمال المنطقي الصوري واستبداله بالشكل التكراري الإحصائي لدى "ريشنباخ"، فهو ينكر وجود قواعد ينبغي إتباعها للوصول إلى قوانين ونظريات علمية مستنبط من وقائع الملاحظة، إذ يقول :"من المشكوك فيه مثلا أن نقوم بصياغة قواعد تمكن العالم الفيزيائي، من معاينة مئة ألف قضية تقرر أشياء مختلفة يمكن ملاحظتها وعندئذ يتمكن من وضع نظرية عامة يفسر بها الظواهر الملاحظة عن طريق التطبيق الآلي لتلك القواعد... إن ذلك يتطلب براعة خلاقة...".[2]

أدرك "كارناب" استحالة تطبيق الاستقراء من منطلق التحقيق التام، حيث لا يمكن التحقق من الكم الهائل من القضايا في لحظة واحدة، لذا استبدله بمبدأ "قابلية التأييد" أو "درجة التأييد" بمعنى أن القضية العلمية ترتفع درجة تأييدها كلما ارتفع عدد الشواهد التي تؤكد هذه القضية، بحيث تقترب القضية من اليقين دون الوصول التام له وترتفع درجة التأييد لقضية ما كلما تنوعت التجارب التي تؤيدها.

---

[1] - رودولف كارناب،الأسس الفلسفية للفيزياء، ، ترجمة وتقديم، السيد نفادي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 1993م ص47.

[2] - رودولف كارناب،الأسس الفلسفية للفيزياء، ص48.

رغم التفاوت بين وجهتي نظر كل من "ريشنباخ" و"كار ناب" حول طبيعة الاحتمال إن كان إحصائي بعدي أم منطقي قبلي، فإنهما يشتركان في تبرير الاستدلال الاستقرائي على أساس تبرير الترجيح الناتج عنه، والمستند إلى القدرة المعرفية الخاصة بالاحتمال.

تجدر الإشارة هنا إلى رأي "كارل همبل" الذي يؤكد فيه أن قواعد الاستقراء لا تطبق بصفة كلية، ومن الصعب الانطلاق من معطيات الخبرة والواقع، لذلك نلجأ إلى اشتقاق فرضيات لغرض حل مشكلات معينة، ويأتي التحقق التجريبي ليعزز ويرجح صدق هذه الفرضيات، فهو يؤكد، أن المعرفة العلمية لا تكون بتطبيق طريقة الاستدلال الاستقرائي على معطيات مستقاة مسبقا لكن بتطبيق منهج الفرضية،"إذ لا يمكن تفنيد كل الملاحظات بحيث يستحيل جمع كل الوقائع، والتحقق منها وأن المعطيات يمكن أن تصنف وتحلل بطرق مختلفة لا تكون أغلبها كاشفة لأغراض البحث العلمي."[1]

هذه الفكرة تقترب من موقف "كارل بوبر" خاصة فيما يتعلق بفكرة التعزيز ورجحان الصدق إلا أن "همبل" ورغم تحمسه لمكامن النقص في المنهج الاستقرائي، فهو لا يرفض الاستقراء رفضاً كاملاً ولم يندفع بموقفه إلى نهايته المنطقية لرفضه بصفة نهائية، كما هو الشأن بالنسبة لـ"بوبر".

2-2 الفلسفة التحليلية:

إلى جانب النزعة التجريبية الاستقرائية التي اعتمدها أنصار الوضعية المنطقية كوسيلة لمشروعية العمل العلمي، يتفقون أيضا على دور وأهمية التحليل المنطقي للغة العلم، فقامت فلسفتهم على الاستناد لأدوات المنطق لتحليل العبارات العلمية، وذلك قصد الكشف عن المبادئ والفروض التي سيقوم عليها كل علم من خلال تحليل اللغة وتوضيح معرفتها العلمية، وتحويلها إلى أحكام تراعي المعطيات الحسية والتحليل المنطقي، والالتزام بقواعد الدقة في استخدام الألفاظ والعبارات العلمية دون غيرها، ورفض كل ما يتجاوز حدود هذه

[1]- كارل همبل، فلسفة العلوم الطبيعية، تر جلال محمد موسى،تق،محمد علي أبوريان، دار الكتاب المصري، القاهرة،ط1، 1976م، ص15.

المعطيات، حيث أصبح من الضروري على الفلاسفة الابتعاد عن البحث في الحقائق الخارجة عن العالم الواقعي الحسي، وحصر وظيفة الفلسفة في التحليل المنطقي للغة المستخدمة في العلم، حيث يعتقد أنصار الوضعية المنطقية أن سوء استخدام اللغة، وعدم مراعاتها لقواعد المنطق هو سبب ظهور المشكلات الفلسفية، يقول "فيكتور كرافت:" الأسئلة الفلسفية يمكن أن تكون فقط أسئلة منطقية، أسئلة لتحليل العلم تحليلا منطقياً".[1]

وعليه تقتصر مهمة الفلسفة على توضيح قضايا العلم دون أي إضافة وإبداع فتقوم فقط بتسخير المنطق في تحليل القضايا العلمية، فتصير أكثر التصاقا بالعلم فهو الذي يحدد مجالاتها ويمنعها عن البحث في الحقائق المتعالية عن الواقع الحسي، وهذا من منطلق نظرية المعنى التي تم من خلالها تقسيم القضايا إلى قضايا ذات معنى وقضايا خالية من المعنى، فالقضايا ذات المعنى تنقسم بدورها إلى قضايا تحليلية وقضايا تركيبية فالتحليلية منها تتعلق بالقضايا الصورية (المنطق والرياضيات) قضايا تكرارية مجرد تحصيل حاصل يقينية بذاتها معيار الصدق فيها التناغم المنطقي الحاصل بين رموز المقدمات والرموز المستنتجة، أما التركيبية تمتلك قيمة اختباريه بعدية مرتبطة بالواقع معيار الصدق فيها احتمالي مرتبط بمدى تماشيها مع الواقع الحسي، أما العبارات الخارجة عن المعنى وهي كل ما يخرج عن النوعين السابقين، يتعلق الأمر بالقضايا الميتافيزيقا وهي قضايا لغو مادامت قضاياها لا هي تحليلية ولا هي تركيبية، يقول 'كارناب":"الضرورة المنطقية تعني الصلاحية المنطقية فالقضية المنطقية تكون صحيحة منطقيا إذ لم تقرر شيء عن العالم، إنها صادقة فقط عن طريق قيمة المعاني التي تنظمها الحدود".[2]

---

[1]- نقلا عن زيتوني شريف، مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، تصدير ا.د محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية– بن عكنون– الجزائر،2006 م، ص224.

[2] – كارناب رودولف، الأسس الفلسفية للفيزياء، مرجع سابق، 1993م، ص20.

يتضح مما سبق أن مهمة الفلسفة تقتصر على التحليل المنطقي الذي يبرز إن كانت القضية تحمل دلالة مباشرة تشير إلى الظواهر المراد دراستها، بحيث تكتسب صفة العلمية من منطلق الدلالات التي تحمل معنى يجعلها تنتمي إلى علم معين، فتقترب الفلسفة من العلم من خلال معالجة قضايا تتعلق بالعلم ذاته، فتأخذ بالدلالات ذات المعنى والقابلة للتحليل المنطقي المتسم بالدقة والوضوح، وتبتعد عنه كلما عالجت مشكلات فلسفية تتعلق بمواضيع الميتافيزيقا، يقول "فتجنشتاين":" موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار فهي ليست نظرية بل فاعلية، ولا تكون نتيجتها عددا من القضايا الفلسفية، وإنما توضيحاً للقضايا فليست الفلسفة علما من العلوم يراد به إدراك حقائق الأشياء، أو تناولها تناولا علميا فهذا من اختصاص العلم، لأنه النمط الأوحد من المعرفة الممكنة، بل مهمة الفلسفة هي التحليل اللغوي لقضايا العلم".[1]

الغرض من وراء هذا الطرح الترويج للتوجه التجريبي في المعرفة وجعل خاصية العلمية تتجسد في مطابقة القضايا العلمية للواقع عبر الخبرة الحسية، لكن هذا لا يعني إهمال دور العقل، بل مهمته تقتصر على الجانب المنطقي من خلال تحليل القضايا الكلية التي يتعذر التحقق منها، وذلك باللجوء إلى القضايا الجزئية والتحقق من واقعيتها، ثم يتدخل العقل ليعبر عنها رياضياً فيجعلها تتصف بالاتساق والواقعية معاً.

تكتسب المعرفة العلمية مشروعيتها من خلال تضافر معارف فكرية لغوية ومعارف واقعية تجريبية، وكل ما يخرج عن إطار هاتين المعرفتين يعد معرفة غير مشروعة، فالمعرفة العلمية تتحدد من خلال الشرط المنطقي الذي يربط قضايا الفكر بصورته المنطقية والرياضية من جهة، وبظواهر العالم الخارجي من جهة أخرى، من هنا اقتصر عمل الفلسفة على تحليل اللغة للوقوف إلى ما تشير إليه من أفكار ومعارف وبالأخص لغة العلماء، وذلك

[1] – لودفيج فيتجشتاين، "رسالة منطقية"، ترجمة عزمي إسلام المكتبة لأنجلو مصرية، ط1، 1968م، ص4.

قصد تحليل القضايا العلمية وقضايا اللغة المستعملة في العلم ومحاولة إزالة اللبس والغموض وتوضيحها دون التدخل في موضوع العلم ذاته، وهذا ما يسمى بالفلسفة التحليلية.

2-3 معيار القابلية للتحقق:

لكي تتم عملية التمييز بين القضايا ذات المعنى والقضايا الخالية من المعنى اعتمدت الوضعية المنطقية معيار القابلية للتحقق التجريبي، وجعلت منه الوسيلة الوحيدة لتحديد صدق القضايا من كذبها، فالنظرية العلمية تأخذ مشروعيتها من خلال استنادها على هذا المبدأ، فالقضايا ذات معنى ينبغي أن تشير مباشرة إلى واقعة تجريبية دون غيرها تخضع للتحقق، أما القضايا الخالية من المعنى فلا وجود لها إلا في خيال الإنسان وأحلامه وأفكاره الغيبية، ولقد أشار "فتجنشتاين" في كتابه "رسالة منطقية فلسفية" إلى أهمية هذا المبدأ قبل فلاسفة الوضعية المنطقية، إذ يقول: "ولكي نكشف عما إذا كان الرسم صادقا أو كاذبا، يلزم أن نقارنه بالوجود الخارجي".[1] و من هنا فالقضايا العلمية لا تكتسب مشروعيتها إلا بمقارنتها بالوقائع الخارجية ومن منطلق مبدأ التحقق، فالواقع والخبرة الحسية هما معيار صدق القضايا العلمية.

رغم تبني أنصار الوضعية المنطقية لهذا المبدأ إلا أنهم اختلفوا في تحديده، حيث يؤكد "موريس شليك" على التحقق الحاسم من منطلق الملاحظة الحسية للحالات الفردية التي تقرر صدق القضايا أو كذبها، يقول:" إنه حتى نفهم قضية ما ينبغي أن نكون قادرين على أن نشير بدقة للحالات الفردية التي تجعل القضية صادقة، وكذلك الحالات التي تجعلها كاذبة وهذه الحالات هي وقائع الخبرة، فالخبرة هي التي تقرر صدق القضايا أو كذبها".[2] فالوقائع التجريبية هي التي تعطي معنى للقضية من منطلق التعامل الحسي المباشر.

---

[1] – نقلا عن زيتوني شريف، مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، مرجع سابق، ص240.

[2] - ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة العلوم – المنطق الاستقرائي-ج1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت (ب ط) 1984م، ص200

هذا الإثبات الحاسم عند "موريس شلنك" لا يأخذ به كل من "ريشنباخ" و"كار ناب" خاصة بعض الانتقادات التي وجهت لمبدأ التحقق، باعتبار أن التحقق التام غير ممكن وتطابق القضية مع الواقع يعطي نتائج احتمالية لا يقينية، لذلك تحدثا عما يسمى بقابلية التحقيق، فالقوانين العلمية لا يمكن تفسيرها باعتماد الخبرة الحسية، ذلك أن التحقق من الجزئيات التي يشملها القانون العلمي لا يمكن تعميمها بصفة كلية.

لقد عالج "ريشنباخ" معيار القابلية للتحقق باعتماد الأداة المنطقية من خلال فاعليته في نظرية المعنى، فالجمل التي تحمل معنى هي التي تتطابق مع الواقع، و الخالية من المعنى لا وجود لها في العالم الحسي، يقول "ريشنباخ": "تعد الإشارة إلى القابلية للتحقق عنصراً ضرورياً في نظرية المعنى، فالجملة التي لا يمكن تحديد صحتها من ملاحظات ممكنة هي جملة لا معنى لها(...) إن التجريبيين في جميع العصور قد أكدوا أن المعنى يتوقف على القابلية للتحقيق، والواقع إن العلم الحديث إنما هو سجل حافل يؤيد هذا الرأي".[1]

توجد طريقتان للتحقق في نظر "ريشنباخ" الطريقة المباشرة حيث يتحقق الباحث من صدق جملة معينة من خلال تطابقها مع الواقع، أما الطريقة غير المباشرة للتحقق يتم من خلال الاستعانة بالوسائل والمناهج، مما يجعل نتائجه احتمالية ترجيحية وليست يقينية. يقول "ريشنباخ":"إن الذهن البشري ليس قائمة متحجرة من المقولات يكدس العقل في داخلها كل التجارب، بل إن مبادئ المعرفة تتغير بتغير مضمونها...ففي استطاعتنا الآن أن نستغني عن اليقين".[2] فعبارات ذات المعنى هي تلك التي لها تعيناً في الواقع جسدتها المعاملات العلمية، وهي محل اتفاق بين جميع الباحثين قابلة للتحقق بحكم التجربة، عكس العبارات المرتبطة بالأمور الشخصية الذاتية الخالية من المعنى بسبب عدم قبولها التحقق التجريبي.

أما "كارناب" عالج مبدأ التحقق من خلال تمييزه بين القضايا الأولية والقضايا التركيبية، تشمل القضايا الأولية على كل العبارات التي تدخل في إطار ماهو منطقي

---

[1] - هانز ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية، مرجع سابق، ص225.

[2] - المرجع نفسه، ص54.

ورياضي، حيث يكون صدقها واضحاً من خلال صورتها، أما القضايا التأليفية فتشمل كل ما يندرج تحت نطاق العلم الطبيعي ووقائعه، والنظريات الفيزيائية دائمة التغيير والتحقق فيها ليس حاسماً، ويصفه "كارناب" في حالة صدقه تأييداً ويتم التحقق من صدقها أو كذبها بالرجوع إلى الخبرة، يقول كارناب":أما صدق القوانين الرياضية فإننا نحصل عليه عندما نحدد بدقة معاني 1و 2و 3و 4و+= فإن صدق القانون1+3=4 يستتبع المعاني مباشرة من هذه المعاني، أما العالم الواقعي فهو ذلك العالم الذي يتغير باستمرار، فنحن على يقين أن أكثر القوانين أساسية في الفيزياء تختلف قليلاً من قرن إلى أخر، ولكن مثل هذه التغيرات لا يمكنها أن تحطم أبداً صدق قانون منطقي أو حسابي واحد مهما كانت درجة تأثيرها".[1]

يتضح أن تصور كارناب هو محاولة لتفسير مشروعية التجربة في العمل العلمي حيث تخلى عن مبدأ التحقق الحاسم في ميدان الطبيعة، واستبدله بالقابلية للتأييد فدرجات التأييد الكثيرة هي التي تعطي مصداقية النتيجة العلمية، ولكن يبقى صدقها احتمالياً إذ يقول:"إن أعظم القوانين الفيزيائية رسوخاً، إنما تعتمد فقط على عدد نهائي من الملاحظات ومن الممكن دائماً أن يأتي الغد بمثال واحد فقط معاكس تماماً لما لاحظناه، وأنه من المستحيل أن نصل إلى العصر الذي يتحقق على الإطلاق –هذا إذا كنا نعني به تأسيساً قاطعاً للصدق–ولكننا نقصد به التأييد...فقط".[2]

أما "ألفريد آير"صنف القضايا إلى قبلية وأولية وتجريبية، بناءاً على هذا التصنيف ميز بين التحقق بالمعنى القوي، حيث يتم إثبات القضايا بطريقة حاسمة وهذا المعنى من التحقق ينطبق على القضايا التحليلية كقضايا المنطق والرياضيات وقضايا أخرى تتعلق بالوجدان والإحساسات والانفعالات ويطلق عليها "آير" بالقضايا الأولية، تقبل التحقق الحاسم من منطلق التجربة الذاتية للشخص، شريطة استخدام الألفاظ والعبارات الواضحة للتعبير عن إحساساته، يقول"آير":والسبب في صدقها المطلق أن العلاقة ضرورية –والضرورة هنا

[1] - رودولف كارناب، الأسس الفلسفية للفيزياء، مرجع سابق، ص26.27

[2] - المرجع نفسه، ص38.

منطقية، بمعنى عدم تصور نقيضها– بين القضية الأولية وقائلها:أنا الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يعرف إحساساته وانفعالاته، والذي يستطيع أن يعبر عنها، أما الآخرون فلا يعرفون عنها شيئاً، من غير أن أنقلها لهم في صورة لغوية أو صورة تعبيرية أخرى" أرى الآن شيئا أحمر اللون""اسمع صوتا مرتفعا""أنا حزين" "أنا لا أحس صداع رأسك" قضايا ضرورية".[1] أما التحقق بالمعنى الضيق ينطبق على القضايا التجريبية، وتكون النتيجة فيه احتمالية لأن الملاحظات والوقائع لا يمكنها أبدا أن تخضع للتحقق التام، بل تدعم بالاحتمال لمعرفة صدقها من كذبها نسبياً، "إذ لا يمكن تحقيق القضية التجريبية تحقيقاً حاسماً لأنها مهما ازدادت الحالات التي تواجهنا بها الخبرة الحسية لتأييد القضية التجريبية، فلا يمكن إقامة الصدق الكلي للقضية، كما أن هناك عددا لا متناهيا من الأمثلة الجزئية والمندرجة تحت القضية، ولم تطلعنا عليها الخبرة سواء ما كان في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل".[2]

لا يختلف "أير"عن كل من "كارناب" و"ريشنباخ" في القول بالاحتمال والترجيح فيما يخص القضايا التجريبية، مؤكدا أن هذه القضايا لا يمكن تحقيقها إلا بالرجوع إلى التحقيق بالمعني الضعيف، خاصة وأن العلم المعاصر بيّن مدى تعقد المادة الطبيعية وتشابكها، فلا يمكن تقرير إمكانية التحقق الحاسم في العالم المتناهي في الصغر، هذه البدائل التي قدمها أنصار الوضعية المنطقية للتحقق الحاسم هو نتيجة لتلك الانتقادات الموجهة لهذا المبدأ، مما جعله يتخذ صوراً أخرى كتلك التي وضعها "كارل همبل""معيار القابلية للتأييد" أو"معيار القابلية للاختبار"، يقول"همبل": "يتعين أن نفهم "القابلية للاختبار"المشار إليها في هذا السياق بدلالة "القابلية للاختبار من حيث المبدأ" ثمة العديد من القضايا الأمبريقية لا يتسنى في الوقت الراهن اختبارها لأسباب عملية، "القول بان هذه القضايا قابلة للاختبار من حيث

[1] - زيدان محمود، الاستقراء والمنهج العلمي،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية، ط1، 2002م،ص263.

[2] - ماهر عبد القادر محمد على، مشكلات الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت، (د ط)1985م، ص116.

المبدأ" يعني القول بإمكان تحديد طبيعة الاكتشافات التجريبية التي تشكل في حال العثور عليها، شواهد تدعم تلك القضايا، وتلك التي تشكل في حال العثور عليها شواهد ضدها بكلمات أخرى، تعد القضية القابلة للاختبار من حيث المبدأ، إذا كان بالمقدور وصف نوع المعطيات التي تدل عليها أو تدحضها".[1]

من هنا يميز "همبل" بين القضية العلمية الخاضعة للتجربة وقضايا العلم الشكلية (المنطق والرياضيات) من خلال قابليتها على مواجهة الاختبارات التجريبية، وليس من خلال قطعية تحققها، لأن الباحث لا يمكنه أن يلم بجزئيات العالم الطبيعي المعقد والمتشابك بجملة من العناصر الغامضة.

هذا التفسير الذي قدمه"همبل" يقترب من تصور 'كارل بوبر"حيث يرفض إقامة العلم على الاستدلال الاستقرائي، ويقر بتطبيق منهج الفرضية القائم على إبداع فروض تسعى لحل المشكلة ثم إخضاعها لاحقاً للمراقبة التجريبية.

2-4 رفض الميتافيزيقا:

إن الفضاء الفلسفي والعلمي الذي نشأت فيه التجريبية المنطقية، كان له الفضل الكبير في بلورة الأفكار التي تبناها رواد الوضعية المنطقية، فأخذوا بالمفاهيم العلمية والمنطقية الجديدة التي تشكلت نتيجة ثورة الفيزياء الكبرى والنجاح الذي حققته في تصور المادة والعالم التجريبي، إلى جانب النزعة المنطقية الرياضية التي ميزت الفكر التحليلي للتجربانية، جعل هذا التوجه يقف موقف الرفض من الاتجاهات الفلسفية المثالية الخالصة

فتحول البحث الفلسفي من بناء الأنساق والمذاهب التي تستوعب الوجود والمعرفة والقيم إلى البحث عن المناهج، والطرق المؤدية للمعرفة العلمية التي لا تتحقق إلا باعتماد التجربة كوسيلة وحيدة في فهم الواقع، فأفكارنا عن الواقع ما هي إلا نسخ مباشرة أو غير مباشرة من الانطباعات الحسية، تستلزم استخدام لغة واضحة قائمة على منطق تحليلي جديد ينهي تلك

---

[1] - نقلاً عن موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012م ص129.

الصراعات الفلسفية والمذهبية ويضمن وحدة الخطاب العلمي، ويمكننا من التخلي عن المفاهيم المثالية الغامضة باستخدام لغة منطقية تمثل الواقع الملموس للفكر تحل محل اللغة العادية، فتحليل الفكر يتأتى بواسطة تحليل اللغة، ومن هنا كانت مهمة الفلسفة هي تحليل العبارات اللغوية من حيث دلالتها وتركيبها المنطقي، والغرض من ذلك هو رفض الميتافيزيقا، حيث تبنت الوضعية المنطقية طريقتين اعتبرتهما أساس العلمية هما الطريقة التجريبية والطريقة المنطقية الرياضية، بينما القضايا التي تتعلق بالوجود والمطلق والعلل والحقيقة الكلية والعدم والجوهر كلها قضايا ميتافيزيقية تتخذ من المنهج الحدسي أو التأملي أساسا لتكوين قضاياها، وبالتالي لا يمكن إخضاعها لمعايير الصدق والكذب للتثبت منها، حيث يقف "كارناب" موقفا سلبيا من القضايا الميتافيزيقية ويتساءل عن حقيقة هذه المفاهيم وما الغرض من وجودها، فالحديث عن الماهية والجوهر لا يؤدي إلى نتيجة فهي عبارات فارغة تماما من كل معنى ذلك أن القضايا الميتافيزيقية ليست قضايا تحليلية وهي في نفس الوقت لا تقبل التحقيق التجريبي، مما جعلها مجرد "أشباه قضايا" ومعنى هذا أن الفيلسوف الميتافيزيقي يجد نفسه مضطراً إلى استخدام ألفاظ لا ضابط لها، ولا طائل تحتها يقول كارناب :"إن العبارات الميتافيزيقية خالية من المعنى، لأنها ليست قضية اختباريه ذات المحتوي الواقعي، لذا فهي لا تمثل قضايا حقيقية، بل قضايا زائفة أو أشباه القضايا".[1] .

يستشهد "كارناب" بفقرة مما كتبه "هيدجر" بعنوان "ما هي الميتافيزيقا" وكان يقول فيها :"إن الوجود فقط هو مما يجب البحث فيه، وما هو بخلاف ذلك عدم الوجود فقط وما هو أكثر من ذلك عدم، الوجود وحده وما بعده عدم. لكن ماذا نقول عن العدم، وكيف يمكننا أن نجده؟ إننا نعرف العدم، فالقلق يكشف عن العدم...إلخ".[2] فهذه العبارات كلها خالية من المعنى لأنها تتضمن ألفاظ ميتافيزيقية كالعدم والوجود.

[1]– سالم يفوت، فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع، مرجع سابق، ص123.

[2] - سامية عبد الرحمن، الميتافيزيقا بين الرفض والتأييد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1993م، ص53.

يقسم "كارناب" الجمل إلى قسمين الجمل التحليلية تقتصر على جمل الرياضيات والمنطق والتركيب اللغوي وهي إما أن تكون صادقة أو كاذبة بذاتها، والجمل التجريبية هي جمل يتم التأكد منها واقعياً، أما الجمل الميتافيزيقية لا معنى لها بسبب افتقادها لقواعد النحو والمنطق، ولا يمكن إخضاعها للتحقيق الواقعي مما جعلها خارج التركيب المنطقي وأي محاولة تجعلها تلتزم بهذه القواعد، فإن هذا الأمر يحولها إما لجمل تحليلية وإما لجمل تجريبية، يقول "كارناب": " بما أن الميتافيزيقيين لا يريدون أن يؤكدوا الافتراضات التحليلية ولا أن تكون جملهم ضمن حقل العلوم التجريبية، فقد اجبروا على استخدام كلمات لم تحدد معايير طبيعتها، لذلك تكون خالية من المعنى، أو بطريقة أخرى جمعوا الكلمات ذات المعنى بطريقة لا يمكن أن تقدم لا عبارة تحليلية ولا عبارة تجريبية في أية حال فإن العبارات الزائفة هي النتاج المحتم".[1]

فالمفاهيم الميتافيزيقية في رأي أنصار الوضعية المنطقية لا معني لها، لأنها لا تحمل دلالة معرفية ولا تقرر شيء معين يمكن أن نحكم عليه بالصدق أو الكذب، فهي لا تقرر شيء ولا تحتوي على أي معرفة بسبب افتقادها المعيار تجريبي، كما لا يمكن إخضاعها للتحليل المنطقي، فالعبارات الميتافيزيقية ليس لها وظيفة إخبارية أو تمثيلية وإنما لها وظيفة تعبيرية تقتصر على التعبير عن المشاعر، وبذلك فهي لا تختلف عن الشعر والموسيقي والأدب.

3-موقف فيرابند النقدي من عقلانية الوضعية المنطقية:

يستهل "**فيرابند**" فلسفته بالهجوم على العقلانيات بكافة صورها، بدءاً بالوضعية المنطقية التي سعى أفرادها لبناء نسق فلسفي علمي يساهم في تطور وتنمية المعرفة العلمية من خلال

---

[1]- رشيد الحاج صالح، النظرية المنطقية عند كارناب، دراسة فلسفية لجدل العلاقة بين المنطق والعلم والفلسفة منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة- دمشق-(د ط) 2008م، ص435-436.

التمييز بين العلم واللاعلم، وذلك بالاستناد إلى النزعة الاستقرائية من جهة، وإلى الضبط المنطقي من جهة أخرى.

رفض "**فيرابند**" هذا التصور الصارم معتبراً العلم ممارسة إنسانية وليس مجرد شبكة منطقية ممنهجة، لذا قام بهدم كل أسس البناء العقلاني للنظرية العلمية الذي اعتمدته الوضعية المنطقية، سواء تعلق الأمر بالاستقراء أو بالتحليل اللغوي في بناء النظرية العلمية أو بفكرة اللامقايسة.

3-1 محدودية الملاحظة في بناء النظرية العلمية:

يؤكد أنصار العقلانية الوضعية أن بناء أي نظرية علمية تستند بالدرجة الأولى على الملاحظة، فتكتسب مشروعيتها من خلال التحقق التجريبي القائم على فحص الوقائع، قصد معرفتها وتتبعها بمنهجية معينة وصياغتها في قضايا تعبر عن ماهو موجود في الواقع بطريقة رياضية، تضمن التماسك المنطقي للنظرية وتحميها من مزالق الخيال والتخمين وكل عناصر البحث الميتافيزيقي.

إن بناء النظرية العلمية بهذا الشكل رفضه "**فيرابند**" واعتبره عائق أمام تقدم العلم، لأن النظريات العلمية لا تعكس حقيقة الواقع، بل هي مجرد وجهات نظر تعبر عن تجارب حياتية، "فهي طرائق في النظر إلى العالم والأخذ بها يؤثر على عموم اعتقاداتنا وتفسيراتنا، ومن تم على خبراتنا ومفهومنا عن الواقع".[1]

يفهم من هذا أن النظريات العلمية لا تعكس الواقع كما هو ولا تقدم تفسيراً حقيقيا للظواهر، وإنما تقدم لنا صورة جديدة انطلاقا مما هو سائد في العالم من تصورات مسبقة مستقاة من الطابع الاجتماعي العام تجعل النظرية غير بريئة ولا منزهة ولا تعكس حقيقة

[1] - عوض عادل،الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية،(ط1)،2004م، ص 20

الظاهرة، "فالنظريات العلمية هي بمثابة طرائق ننظر من خلالها للعالم، وتبنيها يؤثر على عموم اعتقاداتنا وتفسيراتنا، ومن ثم على خبراتنا ومفهومنا للواقع."[1]

فكل ما تحمله الملاحظة من مفاهيم وتفسيرات لمنطوقات الملاحظة تتوقفان على السياق النظري الذي يظهران فيه، وليس على الدليل الواقعي، فما تحمله النظريات من حقائق ليست هي الحقائق نفسها التي تحملها الوقائع في ذاتها، يقول **فيرابند**: "إن النظرية قد لا تتفق مع الأدلة، ليس لأنها غير صحيحة، بل لأن الدليل ملوث وتتعرض النظرية للتهديد، لأن الدليل إما يحتوى على حواس غير محللة تستجيب فقط للعمليات الخارجية".[2] فلا مجال للحديث عن قضايا ملاحظاتية محضة، ذلك أن كل ملاحظة محملة بالعناصر الذاتية للملاحظ، فالنظرية لا تحدد لنا ما شوهد ولكن ما يجب أن يشاهد، فلكل نظرية خبرتها الخاصة بها ويستحيل القول بوجود تجربة حاسمة تبرر من خلالها مشروعية النظرية العلمية كما اعتقد أنصار الوضعية المنطقية، فتقارير الملاحظة والنتائج التجريبية وقضايا الواقع إنما تحتوي على افتراضات نظرية مرتبطة بالثقافة والعقيدة أكثر مما هي مرتبطة بالعلم الموضوعي، فالملاحظة لا تقدم لنا الواقع بصورة موضوعية بقدر ما تعكس اهتمام متخفي يتضمن حمولة ثقافية اجتماعية وحتى إيديولوجية، يقول"**فيرابند**":" النظرية العلمية لا تستمد من الوقائع والملاحظات بل هي نظرة عامة تساهم في اكتشاف الوقائع مكتملة، ولا تخص وقائع محددة

---

[1] -feyerabend Paul, explanation, rèduction and empiricism, minnesota studies in the philosophy of science,n 111, h.Feigle and G.Max well ed, (Minneapolis :university of Minnesota press,1962)p29.

« Scientific théories are ways of looking at the world, and their adoption affects our general beliefs and expectations and thereby also our experiences and our conception df reality »

الترجمة لعادل عوض الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، ص20

[2] - بول فيرابند، ضد المنهج، ترجمة وتقديم ماهر عبد القادر محمد على، طبعة للطالب، 2005م،ص95.

بعينها، فطابعها تفسيري لوضع عام وليست تلخيصا لخصائص معينة تبرر بها واقعة معينة".[1]

إن عقلانية الوضعية المنطقية قائمة على تبرير الحقيقة العلمية من منطلق العلاقة بين الملاحظة والنظرية، على أساس التحقق التجريبي، وهذا التحقق هو الذي يكسبها المشروعية في حين يرى "**فيرابند**" أنه لا يمكن إطفاء صفة المشروعية على النظريات العلمية من خلال الملاحظات بل على العكس من ذلك، فالنظريات العلمية هي التي تصنع الوقائع وتحكم عليها، وعليه لا يمكن الحديث عن وقائع موضوعية مستقلة، كما لا يمكننا الحديث عن نظريات علمية بحكم بعدها عن الوقائع، فهي نظريات نمت وتطورت في عالم مختلف عما هو سائد في الواقع العلمي، "فنظرية طاليس تشترك في خصائصها مع بعض المذاهب العقائدية والأساطير وبعض النظريات العلمية المجردة، والتي لعبت دور هام في نشأتها، كتلك القصص الأسطورية التي تخبر عن أصل الكون والطبيعة."[2]

إن الوقائع الطبيعية تتحرك بحكم قوانين خاصة بها، أما ما يقدمه الباحث من تفسيرات عنها لا تحمل الحقيقة نفسها، وذلك بسبب تدخل عناصر الشخصية التي تتسرب في عمل ما يعتقد أصحابه أنه علمي، فكل منهجية ترتكز على الوقائع لبناء النظرية العلمية لا تعبر عن حقيقة العلم،" فالملاحظة عند **فيرابند** تتضمن إسهاماً عن الشيء الملاحظ، بيد أن هذا الإسهام تندمج معه مؤثرات أخرى والتي قد تطمسه بالكلية، فإذا ما أخذنا مثلاً صورة نجم

---

[1] -Feyerabend Paul, une connaissance sans fondement, tra Emmanuel malolo dissaké, éditions dianoia 1999, p 66

« La théorie est générale ; c'est –à-dire qu'elle s'applique à tout objet et non pas seulement à un groupe choisi d'objets. Elle est explicative ; c'est-à-dire qu'elle ne donne pas seulement un résumé des propriétés des objets considères »

[2]- ibid,p 68.

« la théorie de Thalès partages d'importantes caractéristiques à la fois avec certaines doctrines religieuses, mythes, et avec les théories scientifiques abstraites. Des mythes tels que les divers récits mythologiques de l'origine de l'univers et de la nature de ses parties sont explicatifs ».

معين كما تتضح من خلال المقراب، فإن هذه الصورة تمر بالتأثيرات عديدة مثل انكسار الضوء وانحرافه وربما الجاذبية، كما أن هذه الصورة تعكس طيف النجم ليس كما هو بل كما كان منذ زمن مضى".[1]

يدعو "**فيرابند**" إلى فتح مجال البحث في المعرفة دون التقيد بالمعطيات الحسية الواقعية ولا المناهج الصارمة التي تدعي اليقين، فالمعرفة البشرية لا يمكن حصرها داخل نسقية المنهج التجريبي، ولا يمكن حصر منظور التصورات البشرية المتنوعة والغنية بالقيم والتجارب الشعبية الخارجة عن نطاق كل ما هو رسمي في قوالب ضيقة، فالتعدد ظاهرة ايجابية تمكننا من استغلال والاستفادة من كل التجارب المتنوعة التي أنتجتها البشرية، فهو يشيد بدور الأسطورة والدين والفن في تسهيل حياة الناس، إذ يقول: إن المقاييس المأخوذة من العلم الحديث لا يمكن النظر إليها على أنها أدوات تحكيم حيادية في الموضوع أو القضية بين العلم الحديث وعلم أرسطو، الأسطورة، السحر والدين"[2]

إن مشروعية النظريات العلمية لا تستمد من الوقائع بل مما هو سائد، و ما هو سائد يمثل الغطاء الإيديولوجي، "ففي نظر **فيرابند** لا يوجد توافق بين النظرية العلمية والوقائع لأن هذه مغلفة بغلاف إيديولوجي، لذا فإن اقتراح أفكار معارضة للوقائع لا يخرج عن دائرة العلم، بل هو من صميمه إذ كتب:" نستنتج إذن أن اكتشاف المكونات الإيديولوجية لمعرفتنا وبالأخص لملاحظاتنا، يتم بمساعدة النظريات التي تبطلها تلك الكشوفات، فهي تكتشف بطريقة ضد استقرائية بل يبدو أن العلاقة بين الوقائع والأحكام التي من صميم العلم هي باستمرار علاقة توتر وخلاف أكثر مما هي علاقة اتفاق."[3]

---

[1] - عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق ص28.

[2] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص 273

[3] - البعزاتي بناصر،الاستدلال والبناء، بحث في الخصائص العقلية العلمية، دار الآمال للنشر والتوزيع، الرباط، ط 1، 1999م، ص 408

لا يمكن لأي نظرية علمية أن تستمد مشروعيتها من خلال الخبرة الحسية، فالاعتقاد بأن التحقق التجريبي أساس بناء العلم أمر ترفضه الممارسة الحقيقية للعلم، فكل النظريات العلمية تعرف صعوبات وعراقيل من أجل الوصول إلى التطابق مع هذه الوقائع، ولا يمكن الحكم بفشل النظرية أو إلغاءها أو وصفها باللاعلمية لمجرد عدم انسجامها مع الوقائع، ولا يمكنها أن تكون دليلاً على صحة النظرية، "إن الحواس وحدها دون مساعدة العقل، لا يمكن أن تقدم لنا تصوراً حقيقياً حول الطبيعة، وما نحتاجه للوصول إلى هذا التصور هو الحواس...يصاحبها العقل".[1] ويشير "**فيرابند**" إلى أهمية السياق التاريخي والثقافي في تقدم الحضاري و العلمي، فحصر حقيقة العلم في وقائع محدودة لا يفيد العلم بل يقزمه، "فالوقائع ليس لها استقلالية فهي تأخذ معانيها داخل السياق التاريخي والثقافي أين تكوّنت أفكارنا، يجب الاعتراف أن أي نظرية محققة هي تلك التي تعكس واقع الباحث، فلا يمكن للعلم أن يتطور باعتماد على النظريات و الوقائع".[2]

يريد "**فيرابند**" أن يبين دور النسيج الاجتماعي في خلق النظريات العلمية، فهي لا تخلو من الحمولة الثقافية والسياسية للمجتمع، وعند تداولها لا تنقل الجوانب العلمية الموضوعية بقدر ما تنتقل تلك الحمولة، وتبقي على الوقائع كما هي في ذاتها، إذ يقول:إن الوقائع لا تخبر عن ذاتها، بل يتم الكشف عنها من خلال التفكير الذي يعطيها معنى معين، إن ما يقدمه التجريبيين ليست وقائع بل أثار ذات طبيعة غامضة".[3]

---

[1] - بول فيرابند، ضد المنهج، مصدر سابق، ص107

[2] -Tremblay ;marcel : quinze thèses ou philosopher avec des auteurs contemporains ; canada : presses universitaires de Laval :2002.p71.

« les fait dont pas d'existence autonome mais prennent une signification dans le contexte historique et culturel ou nos hypothèses sont formulées, il faut concéder qu' une théorie prouvée confirme avant tout la version du réel du savant, donc que la science ne peut évoluer en accordant seulement des théories et des faits »

[3]- Feyerabend : Paul la tyrannie de la science :éditions du seuil 25 bd romain Rolland paris xive présenté et édité par Eric Oberheim :tra de l'anglais et préfacé par Baudouin jurdant : p 90-91.

إن التركيز على التحقق التجريبي كدليل قاطع على صحة النظرية العلمية يكون سببا في إبعاد نظريات جديدة، "لأن النظرية تقول دائماً أكثر مما تأتي به التجارب مهما تعددت وتكررت، لأن الأفكار تنتقل عبر التواصل والتداعي والإيحاء، ولا تأتي كل مكوناتها من الخبرة التجريبية والاستنتاج البيّن".[1] فالأفكار والمعتقدات وكل قيم المجتمع الثقافية والاجتماعية والسياسية تؤثر على المقترحات العلمية وتجعلها غير قادرة على وصف الواقع بدقة، "فمبدأ الاختبار التجريبي يفقد سلطة القرار التي كانت تعطى له التجريبية، لأن التجربة لاتصل إلى مكونات النظرية، إذ يظل كل اختبار تجريبي جزئياً".[2]

يوضح لنا "ماكس بلانك"* ذلك من خلال "الفيزياء التي استطاعت أن تتوصل إلى معرفة أشياء كثيرة تتجاوز نطاق الواقع المحسوس، مثل الجاذبية وسرعة الضوء والكتلة وشحنة الإلكترونات والبروتون وغيرها من مكونات الذرة التي اكتشفها العلم، وهذه الكائنات إن كانت تشير إلى شيء فإنها تشير إلى صورة العالم الخارجي الحقيقية، ويبدو أن العالم الحقيقي كما يفهمه "بلانك" مختلف عن العالم الحسي المتغير، لأنه يعبر عن حقيقة رياضية – فيزيائية، لا يمكن معرفتها بالحواس أو اشتقاقها من التجربة، وإنما نتوصل إليها بصورة رياضية".[3] وسار "نليز بور" على نفس المنوال مبينا دور أجهزة القياس في تحديد معاني ومعطيات عالم الكوانتم. ولقد تم توضيح ذلك بالتفصيل في الفصل الأول.

« Les fait ne nous disent rien en eux-mêmes. Ils ont besoin de la pensés pour trouver un sens …les expérimentateurs nous n'offrent, ce ne sont pas des faits mais les faits d'une nature mystérieuse »

[1] -عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص32.

[2] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

*ماكس بلانك(1858–1947) فيزيائي ألماني صاحب نظرية "كوانتم الطاقة" مؤسس ما يسمي بثابت بلانك المعروف.

[3] – ماهر عبد القادر محمد علي، مشكلات الفلسفة، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، (د ط)1985م، ص134.

يتضح مما سبق أن العلاقة بين النظرية والملاحظة هي علاقة تعسفية مصطنعة، لا تعكس حقيقة الوقائع، لذا عجزت الوضعية المنطقية عن تفسير هذه العلاقة بالاعتماد عن التحقق المباشر والحاسم، فلجأ أنصارها فيما بعد إلى محاولات لتبرير وتعديل التحقق واستبداله بمبدأ التأييد أو الاحتمال، كما حاول أنصار الوضعية المنطقية وضع لغة خاصة للفلسفة العلمية قائمة على المنطق والرياضيات، إلا أن هذا المحاولة تعرض لها "فيرابند"بالنقد.

3-2 النظرية العلمية والتحليل اللغوي:

من بين أهم المسائل التي عالجتها فلسفة العلوم المعاصرة مكونات اللغة الفلسفية، وكانت البداية مع مشروع "كارناب" الذي قام ببلورة نظرة علمية جديدة قائمة على تطبيق المنطق على اللغة الفلسفية، وجعل مهمة الفلسفة تقتصر على التحليل المنطقي للعبارات اللغوية، فلغة العلم في نظره دقيقة ومتميز عن اللغة الميتافيزيقية الوهمية الخالية من المعنى، "فسلم بوجود عبارات لغوية بمثابة منطلق أمن للغة العلم، وقد عبر "كارناب" عن هذه اللغة بكونها لغة فيزيقية تمثل لغة العلم الكونية، وهي لغة في نظره تتميز بالوضوح والدقة وبعيدة عن الجدل الميتافيزيقي، وترتبط بمكونات منبثقة من التجربة".[1]

تبنت الوضعية المنطقية هذا الطرح جاعلة من عبارات النظرية مشروعة وصادقة، وهذا راجع لمدى تطابقها مع عبارات الملاحظة، فكل عبارات التي تحتويها الملاحظة تدل على صدق مماثل في النظرية، وهي تنتقل تصاعدياً بواسطة الاستقراء، فالنظريات العلمية تحتوي على عبارات ذات دلالة منطقية، مستوحاة من الوقائع التجريبية القابلة للتعميم، فالحدود اللغوية للملاحظة هي معيار نحكم به على كل النظريات العلمية المختلفة من ناحية كفايتها وملاءمتها وصدقها.

[1] - البعزاتي بناصر، الإستدلال و البناء، مرجع سابق، ص162.

رفض"**فيرابند**" الفصل بين اللغة والنظرية مبيناً دور السياق النظري العام في خلق معاني الحدود سواء تعلق الأمر بمعاني حدود الملاحظة أو معاني حدود النظرية، فهي تنشأ وتتكون بداخل هذا النسق الناتج عن تضافر خليط من المعطيات الاجتماعية والثقافية، فلكل نظرية حدودها الخاصة بها وتؤدي وظيفة نسقيه، فالرموز الغوية لا تعبر عن الدلالات الحقيقية للوقائع الملاحظة، بل هي مجرد أنساق رمزية من صنع النظرية وتخضع للوصف الخيالي وكل متطلبات الحياة، فالحواس التي يوجهها العالم لملاحظة الوقائع لا تخلوا من عناصر الشخصية، ومن ميولاته الناتجة عن مجمل الانطباعات المتراكمة عبر القيم والعادات الاجتماعية السابقة، يقول "**فيرابند**":"تبدو الظواهر في النهاية تتحدث بالنيابة عن نفسها بدون مساعدة خارجية أو معرفة شاذة، وهي ما تؤكده التصريحات المصاحبة لها، وتتأثر بالطبع اللغة التي تحدثها معتقدات الأجيال السابقة التي تم اعتناقها لوقت طويل جداً، بحيث لم تعد تبدو مبادئ منفصلة".[1]

إن الوصف السليم للملاحظة يستدعي إحساس سليم واضحاً وبريئا من كل الخلفيات النظرية، وهذا أمر غير ممكن الحدوث في نظر "**فيرابند**". لأن الوقائع تتحدد سلفاً ومن خلال تصوراتنا الذاتية، والحدود التي تستعملها تستمد معانيها من هذه التصورات، فهي تختلف باختلاف أنماط الحياة، ولكل جماعة علمية حدود خاصة بها يتم تداولها داخل "البراد يغم" الخاص بها حسب تعبير "توماس كون"،" فالعبارات لا تقبل تصنيفاً مسبقاً ولا حتى تأويلاً محدداً مرة واحدة، فما يتفق عليه متداولون في شروط معينة، سرعان ما يختفي في شروط أخرى، وكأن الدلالة في ثورة مستديمة، وبما أن المعتقدات متعددة ومتعارضة، فلا بد أن تتعدد وتتعارض تأويلات المفردات والعبارات".[2]

---

1 - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص105.

2 - البعزاتي بناصر، الإستدلال و البناء، مرجع سابق، ص284.

يستشهد "**فيرابند**"عن ذلك بأمثلة من تاريخ العلم، حيث يبين أن كل نظرية تستخدم ألفاظا ومصطلحات بمعان مختلفة عن بعضها تمام الاختلاف، فلا يمكن المقارنة بين الميكانيكا النيوتونية والنظريات النسبية، ذلك لأن الحدود التي تستخدم في النظريتين قد تكون واحدة، ولكنهما يشيران إلى شيئيين مختلفتين بصورة حاسمة في الميكانيكا النيوتونية عنه في النظرية النسبية، "فأي تأويل لغوي للملاحظة يتحدد من خلال النظرية التي تقدم تفسير لما هو ملاحظ، وأي تغيير في النظرية يتبع بتغيير في الملاحظة."[1]

يعني ذلك أن عملية الانتقال التي تحدث بين نموذجيين علميين تؤدي إلى انفصال تام وتباين جذري في المعنى بينهما، بحيث أن كل نظرية علمية تحتفظ بحدود معانيها وتنتج تفاعل إيجابي داخل النسق النظري المتعامل به بين أوساط المجتمع العلمي، وكل تغيير يحدث في النظرية إنما هو تغيير في حدود الملاحظة وحدود النظرية، والانتقال من نمط مفاهيمي إلى أخر يستتبع بالضرورة تغيير في معاني حدود النظرية، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك تداخل بين النظريات، وهذا تماشياً مع مبدئه المعروف "باللامقايسة"، "فأي نظرية علمية تظهر تفرض نفسها مكان أخرى قديمة، فإن الحدود المتضمنة في النظرية الجديدة تعد بمثابة استبعاد للمعاني القديمة، فرغم أن الحد نفسه مستخدم في النظريتين، إلا أنه يعبر في كل من النظريتين عن تصورات مختلفة اختلافاً جذريا".[2]

يرى "**فيرابند**" أن المفاهيم الملاحظة والتي يعتقد العلماء أنها تحمل حقيقة الوقائع، هي مفاهيم خفية تحملها النظرية تحتوي على عناصر الإيديولوجية والثقافة وتسقطها بطريقة متخفية على الملاحظة التي تتأثر بالظروف المحيطة بنا، وتعكس لنا الواقع على غير حقيقته فالمعاني التي تتحدد من خلالها الملاحظة تستنبط من الخلفية الفكرية للنظرية بينما

---

[1] -Feyerabend Paul. Réalisme ; rationalisme et méthode scientifique : tra Emmanuel malolo dissaké .édi. Dianoia 2005 p71-72.
« L’interprétation d’un langage observationnel est déterminée par les théories que nous utilisons pour expliquer ce que nous observons, et elle change dés que ces théories changent »

[2] - عادل عوض، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية،(ط 1)،2006م، ص316.

يبقي الواقع بعيداً عن الدراسة الموضوعية، وكلما وقع تغيير في قواعد النظرية يتبعها تغيير في الملاحظة .

إن محاولة "كارناب" الرامية إلى حصر العلم في حدود لغوية دقيقة وصارمة، عمل إقصائي لتجارب حياتية قد تساهم في تطور العلم وتفتحه على مجالات متعددة، فالوقائع متنوعة ومتعددة ولا يمكن حصرها في قوالب لغوية جاهزة، فلا يمكن وضع هذه القواعد كمعايير نحدد من خلالها مصداقية الوقائع الملاحظة، ويلخص لنا "**فيرابند**" جل أفكاره المتعلقة باللغة في وصف الوقائع إذ يقول:" إنني لأجد نفسي متعاطفاً للغاية مع تلك الرؤية التي صاغها "بن يامين لي وورف"*(Benjamen lee Whorff) بوضوح، والقائلة إن اللغات وأنماط ردود الفعل التي تنطوي عليها ليست مجرد أدوات لوصف الأحداث والوقائع وشؤون الحياة بل أيضاً تشكل الأحداث، ذلك أن نحوها(Grammer) ينطوي على كوسمولوجيا ورؤية شاملة عن العالم والمجتمع وموقف الإنسان بما يؤثر على التفكير والسلوك والإدراك، فمستخدمو القواعد النحوية المختلفة توجههم تلك القواعد نحو أنواع متباينة من الملاحظات".[1]

يرى "**فيرابند**" أنه لا يمكن الحديث عن ملاحظة خالصة ذلك أن العبارات المستخدمة من طرف الملاحظ هي عبارات انطباعية لا تخلو من الإحساسات، فاللغة لا تعكس الوقائع بقدر ما تخبرنا عن انطباعات وإحساسات الملاحظ، وهذه الانطباعات هي نتاج لتراكم خبرات حياتية، فالألفاظ لا تعني شيئاً ما في حد ذاته، وإنما تكتسب معانيها بكونها جزءاً من النسق النظري العام فهي تتغير بتغيره، "فعبارات الملاحظة التي يصدرها ملاحظ علمي إنما

*- عالم لسانيات أمريكي(1941-1897) اعتبر اللغة ذات طابع نسقي تنظيمي.

[1] - نقلاً عن عادل عوض، الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص27.

هي نتيجة لانطباعاته ، رغم أن مضمون هذه العبارات أو محتواها ليس محدداً بالانطباعات وإنما بكائنات موصوفة."[1]

ويواصل في تحليله رافضا موقف الوضعية المنطقية المتطرف القائل بالتجربة الحاسمة في نقل الوقائع كما هي ذاتها، مبيناً دور اللغة في بناء النظريات إذ يقول: " فكل النظريات لا تصف لنا حقيقة الكيانات المدروسة، بل أكثر من ذلك فهي تتشكل بطرق مختلفة وتستند إلى المعطيات النظرية مما تجعلنا غير قادرين على معرفة أي الطرق مطابقة للواقع."[2]

يتضح مما سبق أن "**فيرابند**" يرفض حيادية اللغة بحيث يجعل منها أداة تأويل للحقائق العلمية بالاستناد إلى معطيات خارجية عن طبيعة العلم ذاته، ووضع العلم داخل هذه القوالب يعطل الحركة التطورية للمشروع العلمي، ذلك أن التطور الذي يعتقد العلماء أنه حدث في العلم أمر غير مؤكد، فالتطور يحدث فقط على مستوي تغير معاني الحدود المستخدمة لا غير، فلا وجود للغة علمية خالصة، والحدود المستخدمة لا تشير إلى الخبرة بل تقوم بوصف الخصائص الموجودة في الشيء المراد ملاحظته، لذا رفض فكرة النسقية سواء تعلق الأمر بقوالب اللغة أو بالمناهج التي تدعي العلمية بما فيها الاستقراء.

3-3 حدود منطق التبرير الاستقرائي:

يعتقد أنصار الوضعية المنطقية أن المعرفة العلمية ذات طابع موضوعي، وهذا راجع للتفسيرات العقلانية القائمة على الوقائع الحسية، فالواقع هو المعيار الوحيد لتحديد صدق القضايا من كذبها، والمعرفة تكتسب بالتجارب الحسية، ولن يتحقق ذلك إلا بإتباع المنهج

---

[1] - ماهر عبد القادر محمد علي، نظرية المعرفة العلمية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،(د ط) 1985م، ص100

[2] -Feyerabend Paul. Réalisme ; rationalisme et méthode scientifique .Opcit.p41.
« Toute théorie n'introduit pas des entités et, plus important, les théories peuvent être formulées de différentes manières, utilisant différentes entités théoriques et on ne sait pas du tout clairement quelles entités sont supposées être réelles »

الاستقرائي الذي تبنته الوضعية واعتبرته المنهج الوحيد للعلم، حيث الانتقال بالأحكام من قضايا جزئية تم التحقق منها واقعياً إلى قضايا كلية تستفيد من التعميم، كما استفادت الوضعية المنطقية بالمشروع اللغوي الذي قدمه "كارناب" كما بينا ذلك سابقًا، حيث تكتسب العبارات اللغوية معانيها بالرجوع إلى الوجود الحسي القابل التحقق الميداني، والعبارات الخارجة عن إطار التحقق الحسي هي ضرب من الميتافيزيقا وجب رفضها، فالمعارف العلمية تصاغ بلغة دقيقة رمزية تتشكل في عبارات ذات معان، سيطرت هذه العقلانية واعتبرت النموذج الأساسي للمعرفة العلمية في تلك الفترة، فعمد "**فيرابند**"على زعزعت أركانها وتبيان عيوبها ونقائصها.

رفض القول بالمنهج الواحد في الأبحاث العلمية، واعتبر الاستقراء منهج من بين المناهج المتعددة التي عرفتها الممارسات العلمية كما يؤكد ذلك تاريخ العلم، فالاستقراء ينطوي على نقائص عديدة، وعملية الانتقال من الوقائع الجزئية التي تنقلها لنا الحواس إلى القوانين العامة غير مبرر، لا من الناحية المنطقية ولا من الناحية التجريبية، إذ لا يمكن الانتقال في حالة الصدق من قضايا جزئية إلى قضايا كلية، فالموضوعية التي يتشدق بها الاستقرائيين وهم وزيف، يقول "**فيرابند**": أليس من الواضح أن مناهجنا الجميلة البراقة التي تطالبنا بالتركيز على نظريات ذات محتوى تجريبي عال، والتي تجعلنا نأخذ المخاطر والتفنيدات بجدية، والتي تقارن الفروض التي تنتمي إلى طبقات تاريخية مختلفة كما لو كانت كلها أفكار أفلاطونية كاملة".[1]

حرص أنصار الوضعية المنطقية على إتباع منطق التبرير القائم على المبادئ الموضوعية في تفسير النظريات العلمية على أساس المنهج الاستقرائي واعتماده على الاختبارات التجريبية الخالصة، فمهمة المنطق الاستقرائي في نظرهم تقتصر على تبرير القضايا العلمية باعتماد التحقق الإمبريقي من جهة والاستناد إلى الاحتمال من جهة أخرى،

[1] – بول فيرابند، ضد المنهج، مصدر سابق، ص236

واستبعدوا سياق الكشف من دائرة البحث العلمي المنطقي، الذي ينظر إلى الوسائل والتقنيات التي تكشف النظريات من منطلق "سيكو سوسيولوجي" فعمليات الاكتشاف تخص مجال علم النفس، وهي غير متاحة في الدراسات العلمية المنظمة، "إذ تقع دراسة مثل هذه الموضوعات ضمن نطاق عمليات الحدس والحظ أو عدم الحظ والتخمين وغيرها، وكلها أمور يصعب إخضاعها للقوانين أو حتى للدراسة المنهجية".[1]

يؤكد "ريشنباخ" على أهمية المنطق في تفسير النظريات العلمية من منطلق سياق التبرير، وليس سياق الكشف القائم على التخمين والحدس، مستبعداً أي أثر للميتافيزيقا في بناء العلم، إذ يقول: "الواقع أن التفسير الصوفي للمنهج الفرضي الإستنباطى بأنه تخمين لا عقلي، إنما ينبعث عن الخلط بين سياق الكشف وسياق التبرير، فعملية الكشف تعدو على التحليل المنطقي، إذ لا توجد قواعد منطقية يمكن بواسطتها صنع "آلة للكشف" تحل محل الوظيفة الخلاقة للكشف العبقري، لكن تعليل الكشوف العلمية ليس من مهمة رجل المنطق، وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يحلل العلاقة بين الوقائع المعطاة وبين النظرية التي تقدم إليه زاعمة أنها تفسر هذا الواقع، وبعبارة أخرى فالمنطق لا يهتم إلا بسياق التبرير، وتبرير النظرية على أساس المعطيات الملاحظة هو موضوع نظرية الاستقراء".[2]

هذا الرفض لمنطق الكشف نابع من النزعة العلمية التي يدافع عنها "ريشنباخ" معتبراً عملية الكشف تخص مجال علم النفس والتاريخ، بينما موضوع الفلسفة يختص بالبحث في نظرية المعرفة، فهي بذلك أقرب للتبرير المنطقي منه لسياق الكشف، إلا أن هذا الأمر فيه مبالغة و إغفال لحقيقة المعرفة الفلسفية، فلا يمكن للفلسفة أن تتخلى على مهمتها في بناء المذاهب الميتافيزيقية، ولا يمكن تطبيق المناهج التحليلية على التغيرات الدينية والأخلاقية

---

[1]- عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز ،مرجع سابق،ص92.

[2]- ريشنباخ هانز، نشأة الفلسفة العلمية، تر، فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية(ب ط)(ب ت)،ص 210-211.

والفنية، وهذا ما تفطن له "**فيرابند**" عندما دعا للتفتح على اللامعقول، وفتح المجال أمام مختلف التقاليد للمشاركة في تنمية المعرفة.

إن التحولات التي تحدث أثناء الممارسة العلمية لا تخضع بالضرورة للشروط المنطقية، بل هي في الحقيقة مجرد شحنات وجدانية وحضارية وذوقية تتعدى شتى العلاقات المنطقية، فلا يمكن في نظر "**فيرابند**" حجر التفكير الفلسفي داخل سجن التجربة العلمية، ولا يمكن تضيق من منظور التصورات البشرية في حدود التصورات التجريبية لأن ذلك يضر بالمعرفة الإنسانية التي لا ترضى إلا بالحرية وفتح المجال أمام العقل للتفكير في كل ما يتعلق بالوجود.

العلم في نظر الوضعية المنطقية يتطور من خلال العناصر الموضوعية من دقة ووضوح واتساق، وهذا ما يعطي مشروعية للنظريات العلمية، وليس سياق الكشف الذي لا يمكن إخضاعه للدراسة المنهجية، يقول "فيجل"(Feigle):" ثمة فرق بين أن نقتفي الأصول التاريخية ونشأة السيكولوجية والظروف الاجتماعية والسياسية الاقتصادية لقبول أو رفض النظريات العلمية، وبين أن نقدم إعادة بناء منطقي للبناء التصوري ولاختبار النظريات العلمية".[1]

يعيب "**فيرابند**" على الوضعية المنطقية فصلها الحاسم بين سياق الكشف وسياق التبرير ذلك أن التجارب العلمية مهما ادعت الموضوعية والحياد فهي تختلط بالعناصر الذاتية ومعتقدات المجتمع، وهذا التداخل يفيد العلم، فالتقدم مرهون بإعطاء أكثر قدر من الحريات للأفكار والتصورات وجميع التقاليد بالظهور والإفصاح عن قدراتها، فلا يمكن حصر العلم في جانب ضيق يقوم على الملاحظة والتفسير المنطقي أو على واقع مزيف، فالتنوع والتعدد ضروري حيث يلعب سياق الكشف دوراً هاماً في تطويرها، ويقر "همبل" بأهمية سياق الكشف رغم انتمائه للوضعية المنطقية، إذ يقول "من الأخطاء الجسيمة فصل سياق الكشف

[1] - نقلاً عن بول فيرابند ثلاثة محاورات حول المعرفة، مصدر سابق، ص 14-15.

عن سياق التبرير، خاصة إذا كان هذا الفصل سيؤدي إلى استبعاد الكامل لعملية الكشف من مناهج البحث".[1]

يبين "**فيرابند**" قيمة النسيج الثقافي والاجتماعي في بناء العلم ونموه ويشبه هذا النمو بنمو الأطفال في اكتسابهم اللغة، إذ يقول: "يجب أن يكون مسلكنا شبيهاً بمسلك الأطفال، فهم يستخدمون الكلمات و يتلاعبون بها ويركبونها بطرق مختلفة، حتى يدركون معانيها، فهذا العبث ضرورة مسبقة لمرحلة الفهم، لا يوجد مبرر لوقف هذا الميكانيزم عند البالغين."[2]

إن الاعتماد على سياق التبرير في الأبحاث العلمية حسب الوضعيين يمثل أحد أهم الركائز الضامنة للموضوعية، فهو يشكل حداً بين هذه الموضوعية وبين العناصر الذاتية، لكن حتى العلوم التي يعتقد أصحابها أنها دقيقة وواضحة بحكم تناغم أفكارها منطقياً، لا تخلو من هذه العناصر يقول "**فيرابند**": إن التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير غير حقيقي، فالكشف لا يكون أبدا قفزة في الظلام أو حلماً... كما أن التبرير لا يكون أبدا إجراءا موضوعياً تاما".[3]

رفض "**فيرابند**" الفصل بين سياق الكشف وسياق التبرير فاستبعاد الأول من دائرة البحث العلمي لا يفيد العلم، والإبقاء على الثاني لوحده لا يكون كافياً لتبرير القضايا العلمية، و لم يكتفي بإنكار التميز بين سياق الكشف وسياق التبرير وإنما ذهب إلى عدم وجود تمييز بين العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية، وهذا الرأي ذهب إليه الكثير من الفلاسفة المعاصرين من بينهم الفيلسوف الفرنسي "فرانسوا داغوني"*"**(François dagognet)** الذي رفض فكرة

---

[1] - بول فيرابند ثلاثة محاورات حول المعرفة، مصدر سابق ، ص 15.

[2]-Feyerabend Paul ; contre la méthode ;Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ;tra ;de l'anglais par Baudouin jurdant et Agnès Schlumberger.1979 ; p23. « Les enfants font usage de mots, ils les combinent, ils jouent avec eux jusqu'au moment ou ils en saisissent le sens qui jusqu'alors leur avait échappé .Et l'activité ludique initiale est une condition essentielle de l'acte final de compréhension. Il n'y pas de raison que ce mécanisme cesse de fonctionner chez les adultes »

[3] - بول فيرابند ، المصدر الأسبق، ص16.

*- فيلسوف ومؤرخ وطبيب فرنسي، (1924-2015)

الفصل بين مادي وروحي، وبين أهمية الأبعاد الأخلاقية والإنسانية في الدراسات العلمية خاصة البيولوجية منها، حيث دعا إلى جعل الطب علم من العلوم الإنسانية.

إن مشروعية النظرية العلمية لا تستمد فقط من قواعد المنطق ولا من الملاحظة أو الخبرة، بل تستمد كذلك من معرفة الظروف التاريخية والاجتماعية، لأن العلم هو نتاج لكل المجهودات الجماعية حيث تتلاطم أنماط التجارب الرسمية وغير الرسمية، فالمعايير التي وضعت للتمييز بين العلم واللاعلم، وبين سياق الكشف وسياق التبرير،لا توفي بالغرض بسبب إقصائها لتقاليد ضرورية وتجارب حياتية يعود لها الفضل في تجاوز الكثير من المصاعب، يقول "**فيرابند**": "إن الاعتقاد في مجموعة وحيدة من المعايير العلمية كالعقل العلمي، والنظرة العلمية للعالم التي تقود دوماً إلى النجاح وستقود دائماً إليه، ليست سوى أسطورة ناتجة عن العلاقات الاجتماعية التي يحتويها المشكل المراد حله."[1]

لا يمكن إظهار العلم وتبيان حقيقته باعتماد مجموعة من القواعد المنهجية المحددة والتي يدعى أصحابها أنها الضامن الأساسي للعلمية كما اعتقد مؤسس الوضعية المنطقية "موريس شيلينك"، لكن هذا الاعتقاد ما لبث أن يصمد بسبب الانتقادات التي وجهت للاستقراء، حيث قام بعض أنصار الوضعية المنطقية المتأخرين من محاولة تبريره، فرفضوا الصيغة الكلاسيكية للاستقراء كما طرحه "شيلينك" ووصفوه بالساذج، وحالوا إيجاد صيغ تتماشى والطبيعة النسبية للعلم، حيث أكد "كارل همبل" على مبدأ "القابلية للتأييد" مستعيناً بالفرضيات القائمة على التخمين العقلي، وأقّر"ألفريد أير" بمبدأ "القابلية للتحقق" حيث رأى أن القضية التجريبية هي فرض ينتظر التحقق لتبرير الاستقراء " أما "ريشنباخ" حاول تبرير الاستقراء

---

[1] -Feyerabend Paul ;la tyrannie de la science ; présenté et édité par Eric Oberheim tra de l’anglais et préfacé par Baudouin Jurdant éditions du seuil ; paris p16.
« La science, la raison scientifique, la vision scientifique du monde ne sont explicitement qu’un mythe de relations publiques qui fait partie du problème qu’il veut traiter »

بالاحتمال معتبراً أن النظرية الأكثر احتمالاً هي تلك التي تملك أكبر عددا من الوقائع التجريبية المحققة لها.

كل المحاولات التي قام بها أنصار الوضعية المنطقية لتبرير العمل الاستقرائي في البحث العلمي باءت في نظر "**فيرابند**" بالفشل، والتعديلات التي ألحقت بالبرنامج القديم لم تتمكن من إصلاحه، وبقيت مشكلة الاستقراء كما طرحها "هيوم" قائمة في صورتها التقليدية على النحو التالي:''إذا تمت ملاحظة عدد كبير من(أ) في ظروف شديدة التنوع، وإذا لوحظ أن جميع (أ)، دون استثناء، تحمل الخاصة (ب)، فإن جميع (أ) تحمل الخاصية (ب)".[1] فصدق النتائج في الإستدلال الاستنباطي لازم بالضرورة عن صدق المقدمات، فاللزوم المنطقي في الإستدلال تحكمه الضرورة العقلية المنطقية، لأنها من طبيعة القضايا المنطقية والرياضية التي لا تخرج عن كونها مجرد تحصيل حاصل، هذا الأمر غير متوفر في الإستدلال الاستقرائي، لأن قضاياه إخبارية تركيبية تحيلنا إلى الواقع، فقد تنتج نتائج كاذبة من مقدمات صادقة، دون أن تقع في تناقض. لقد اتضح على إثر "هيوم" أن المبدأ غير قابل للتبرير المنطقي والتجريبي، "فليس لدينا تبرير من الخبرة الحسية يعد بمثابة معيار تجريبي يقرر صدق القوانين العلمية التي نتوصل إليها من عدد محدود من الوقائع أو الحوادث التي لوحظت في الماضي والحاضر، ولذا فإنه لا يمكن تقرير أن المستقبل سيكون على غرار الحاضر والماضي، حيث لا يوجد لدينا برهان لإثبات الاطراد تجريبياً دون الوقوع في "مشكلة الدور".*[2]

فالاستقراء تشوبه صعوبات منطقية لا يمكن تجاوزها كالاستحالة المنطقية للتعميمات، وبالتالي فإن الاستقراء لا يقدم نتائج يقينية، ولا يقودنا إلى معرفة علمية والسبب في نظر "**فيرابند**" يكمن في السلطوية التي مارسها الوضعين على المعرفة، فرفضوا الميتافيزيقا

---

[1]- شالمرز ألان، نظريات العلم، تعر الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توقبال للنشر،دار البيضاء،ط1991؟1م، ص27.

*- لا يمكن أن نبرهن على مبدأ العلية الذي يقوم عليه الاستقراء بالاستقراء ذاته.

[2]- ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة العلوم، المنطق الاستقرائي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ج1، (د ط)1984م، ص 121.

واستهجنوها في حين أن كل أفكارهم تغوص فيها، وكل المبادئ التي اعتمدها الاستقرائيون كمبدأ التأييد والتفسير والرد لا تتسق مع الممارسة العلمية الفعلية، فهذا المنهج يعترض سبيل نمو وتطور المسيرة العلمية، فهو من الناحية المنهجية والمنطقية يعتريه القصور.[1]

يستمر نقد "**فيرابند**" ليشمل بعض الشروط المنطقية التي اعتاد أنصار الوضعية المنطقية المطالبة بها كشرط ضروري لتحصيل المعرفة عامة والعلم خصوصاً، ومن بين هذه الشروط شرط الاتساق وشرط التماسك المنطقي وشرط زيادة المحتوي.

3-3-1: شرط الاتساق:

تعتمد الوضعية المنطقية شرط الاتساق في التحليل الميثودولوجي قصد ضمان الترابط بين الفروض المقترحة والنظريات المعتمدة في البحث العلمي، ترجع أهمية هذا الشرط في ضرورة توافق الفروض الجديدة مع النظريات القائمة، فتستمد هذه الفروض مصداقيتها من خلال اتساقها مع النظريات المألوفة والقديمة داخل الحقل المعرفي الواحد، فهو يأخذ صورة الاستنباطات التقليدية التي تجعل من المقدمات مسلمات صادقة بذاتها تفرض على النتائج إتباعها والتناسق معها بالضرورة، فيحافظ القديم والمألوف على قيمته العلمية بالتقادم ويدفع بالفروض الجديدة التناسق معها، ليس لأنها ذات قيمة علمية بل فقط لأنها أصبحت مألوف.

يعود شرط الاتساق إلى أرسطو الذي وضع قواعد المنطق الصوري الذي يستند إليه الفكر باعتبارها معيار لتحديد صحة هذا التفكير من خطأه، رغم ما يحمله من نقائص وعيوب، يقول "**فيرابند**" فشرط الاتساق الذي يتطلب أن تتفق الفروض الجديدة مع النظريات المقبولة يعد غير عقلاني، لأنه يبقي ويحافظ على النظرية الأقدم لا النظرية الأفضل... فتنوع النظريات يعد مفيداً للعلم بينما المتشابهة تضر بقوته النقدية".[2]

---

[1]- عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز،مرجع سابق،ص 18.

[2]-Feyerabend Paul ; contre la méthode ; esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ; Op ; cit. p32.

«la condition de compatibilité qui exige que les nouvelles hypothèses s'accordent avec les théories admises est déraisonnable en ce qu'elle protège la théorie ancienne, et non la

لذلك فالأمر يختلف عند"**فيرابند**" فعوض أن نبحث عن شرط الاتساق نبحث عن عدم الاتساق.

وغرض من وراء رفضه لشرط الاتساق هو فتح المجال أمام عدد أكبر من النظريات البديلة من الظهور، فالاعتماد على نظرية واحدة كمعيار للعلمية أمر لا يفيد العلم بل يعرقله، فكثرة النظريات دليل على خصوبة البحث العلمي، فبقدر ما تتوفر النظريات بقدر ما تتزايد فرص النجاح في إيجاد حلول لقضايا الإنسانية المستعصية عن الحل، يقول "**فيرابند**""إن تكاثر النظريات لهو أمر دو فائدة للعلم، بينما الدوران في فلك واحد مبدد لقدرته النقدية، كما أنه يهدد التطور الحر للفرد".[1]

هناك الكثير من النظريات لا تتسق مع النظريات المألوفة، وعلى الرغم من ذلك تحافظ على قيمتها العلمية ولا تتعرض للإقصاء بحكم أنها غير متسقة مع النظريات المعروفة، "فالنتائج المترتبة عن نظرية نيوتن والتي تقع في مجال قانون جاليليو حيث ينص هذا الأخير على التسارع في السقوط الحر ثابت، بينما تطبيق نظرية نيوتن على سطح الأرض يعطينا تسارع غير ثابت، بل يتناقض تبعاً لمسافته مع مركز الأرض."[2] كما أن نظرية الكم هي النظرية الأولى بعد سقوط الفيزياء الأرسطية التي شيدت تماماً وبصورة واضحة على الأقل بالنسبة لبعض المخترعين على أساس كلا من شرطي اتساق وثبات المعنى، وهي من هذه الزاوية تختلف تماما عن نظرية النسبية التي انتهكت هذين الشرطين فيما يتعلق بالنظريات الأسبق.[3]

---

meilleure… la prolifération des théories est bénéfique a la science, tandis que l'uniformité affaiblit son pouvoir critique »

1- نقلاً عن عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز ،مرجع سابق،ص 79.

2- عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز ،مرجع سابق،ص 79.

3- نقلاً عن إيان هاكينج، الثورات العلمية، ترجمة وتقديم، السيد نفادي دار المعرفة الجامعية،(د ط) 1996م، ص72.

هذه الشواهد التي قدمها "**فيرابند**" تبين إمكانية تجاوز شرط الاتساق الذي قد يشكل عائق أمام تطور العلم، لأنه يضيق على النظريات البديلة من المشاركة في ديناميكية الحركة العلمية، حيث يبين أن شرط الاتساق يتعارض مع النزعة التجريبية في صميمها، ذلك أن أحد المطالب الأساسية التي تصر عليها النزعة التجريبية هي زيادة المحتوى التجريبي في معرفنا العلمية قدر الإمكان، ومن ثم فإن إتاحة الفرصة أمام البدائل يوفر هذا المطلب وهو ما يتعارض مع شرط الاتساق الذي يقضي إلى استبعاد البدائل وعليه فهو شرط لا يتعارض مع الممارسة العلمية بل مع النزعة التجريبية.[1]

2-3-3 شرط التماسك المنطقي:

دائماً ما يوصف الفكر العلمي بالتماسك وعدم التناقض، والاعتقاد بالمفارقات والتناقضات ليس سمة من سمات العلم، إلا أن لـ"**فيرابند**" وجهة نظر مخالفة تماما، إذ يصف العلم بعدم التماسك المنطقي مستنداً في ذلك إلى حقيقة الممارسات العلمية كما يطرحها تاريخ العلم، فالعقلانية التجريبية التي تتمسك بهذا المبدأ لا تدرك حقيقة الممارسة الفعلية للعلم، فالتحاليل التي يعتقد أصحابها أنها تخضع لقواعد المنطق تتماشي مع السياق ألمفاهيمي الذي وجدت بداخله مما يوحي بعدم وجود منطق واحد يأخذ على أنه المعيار الوحيد الذي يحدد من خلاله صحة الفكر من خطأه، "فالمنطق عنده إمكانيات متعددة تختلف من حيث اللغة وقواعد البناء والبث".[2]

يؤكد "**فيرابند**" على أن كل النظريات العلمية التي تم بنائها تحتوي على تناقضات عديدة، وهذا التناقض لا يمثل عيباً في هذه النظريات بل يزيدها خصوبة، لأن العلم يتطور من خلال مخالفة القواعد الصارمة المنطقية، والالتزام بها يضر بالتقدم العلمي، لأنه يقوم بإقصاء محاولات فكرية عديدة بحكم أنها غير متماسكة منطقياً مع ما يعرف علماً، فالفوضوية تستدعي قبول كل الأفكار و المحاولات تماشياً مع شعار "**فيرابند**" المفضل "كل شيء جائز"،

[1]- عوض عادل، المرجع الأسبق، ص80

[2]- البعزاتي بناصر، الإستدلال و البناء، مرجع سابق، ص262.

فكل الدعاوى التي تجعل الفكر يتقيد بمبادئ المنطق كمبدأ التناقض أو الثالث المرفوع هي دعاوى تعسفية، لذا فهو يدعوا للتخلص منها لأنها تشكل قيود أمام الفكر الحر، وتتسبب في إزالة أنماط متعددة من الفكر الإنساني، يقول "**فيرابند**" "إن شرطي التماسك و ثبات المعني يشجعان الواحدية النظرية، ويعيقان التعدد النظري".[1]

يعتقد أنصار الوضعية أن التماسك المنطقي صفة لصيقة بالتفكير العلمي بل هو ميزة يتميز بها التفكير العلمي عن غيره، هذا الاعتقاد انعكس سلباً على التقاليد الأخرى، فأخذ الوضعانيين يصفون أي بحث في مجال الميتافيزيقا والدين والفن والأسطورة باللامتماسك منطقياً، في حين أن الكثير من النظريات العلمية لا تتصف بهذا التماسك، "فقانون قاليلي في سقوط الأجسام وقوانين كبلر غير متماسكة مع نظرية نيوتن، وميكانيكا الحرارية الإحصائية غير متماسكة مع القانون الثاني للنظرية الفينومينلوجية، وكذلك البصريات الموجبة غير متماسكة مع البصريات الهندسية".[2] هذه الشواهد تبين في نظر "**فيرابند**"أن التماسك الذي يدعيه أنصار الوضعية وغيرهم من مؤيدي العقلانية المعاصرة غير متوفر حتى فيما نعتقد أنه علم.

يرى "**فيرابند**" أنه لا يمكن الإقرار بوجود منطق واحد تحتكم إليه جميع التصورات فالمنطق الصوري وإن سيطر على الفكر العلمي لفترة زمنية طويلة، فإن نتائجه كانت وخيمة على حرية الفكر، حيث قيد الخطاب الفلسفي الحر كما مارسه السفسطائيين بقوالب صارمة ضيقت مجال الخيال وقتلت الإبداع، لذلك فهو ينادي بتعدد البحث المنطقي والاعتراف بكل المحاولات وهذا نابع من معارضته للواحدية، فهو يقر بأهمية المنطق الجدلي القائم على المتناقضات، لأن في ذلك ترويجاً لفلسفته المناقضة لكل ماهو معقول، لقد أدركت العقلانية

---

[1]– نقلاً عن عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص82.

[2]– نقلاً عن البعزاتي بناصر، الإستدلال و البناء، مرجع الأسبق، ص358.

المعاصرة في ميدان الرياضيات وجود أنماط وأنساق متعدد من المنطق، فالهندسات اللاإقليدية سلكت منطق خاص بها يختلف عن منطق الهندسة الإقليدية، ذلك أن كل هندسة لها منطلقات خاصة بها، وكل نسق رياضي له أسلوب خاص في البرهنة، ومعيار الصدق يكون داخل هذا النسق ولا يمكن أن يصدق على نسق مخالف له، فالتعدد ظاهرة صحية حتى في المجالات أكثر دقة ووضوحاً.

كل العلوم بما فيها الرياضيات تتأثر بالأنشطة الفكرية والعملية المتواجدة داخل المجتمع، ولا تنفصل عنها إلا عندما تصل إلى مستوى من النضج، "فالرياضيات ترعرعت في سياق المعاملات والإجراءات العلمية في الاقتصاد والمعتقدات وغيرها، ومسألة كتابة اللغة الجبرية خلال القرن السادس عشر مثلاً، كانت تتطلب جدلاً وخطابة من أجل اختيار العبارة المضبوطة، والجبر كجزء من الرياضيات المجردة لم يتطور كاستدلال محض بل تداوله المهتمون في سياق عملي، وقد ضبطت لغة الجبر عبر الفرائض والجدل وفن الخطابة، إذن فالأسئلة العلمية ميدان مفضل لتطبيق الفن الخطابي الذي يثبت القوانين التي عليها أن تخضع لها."[1]

3-3-3: شرط زيادة المحتوى

يعد شرط زيادة المحتوى هدفاً تسعى العقلانية التجريبية الوصول إليه من خلال الرغبة في اكتشاف خبايا الطبيعة وأسرارها، وتحويلها إلى قوانين تساهم في السيطرة على الظواهر ومن خلاله يسعى العلماء إلى الاكتشاف بواسطة التجريب.

يبين "**فيرابند**" أن العقلانية المعاصرة ترى في هذا الشرط السبيل الوحيد لزيادة المعرفة العلمية، فهو يحدث عندما يقع تغييراً في النظرية مما يتيح تنبؤات من نوعية جديدة تضاف إلى مسيرة العلم الطويلة وبالاعتماد على التجريب، إلا أن "**فيرابند**" يرى أن هذا الشرط لا يرتبط ضرورة بالمنهج التجريبي بل يتحقق من خلال البدائل المتاحة في كل التقاليد الأخرى،

[1] - البعزاتي بناصر، الإستدلال و البناء، مرجع سابق، ص363.

يقول :" العالم الذي يريد زيادة المحتوى الإمبريقي للآراء التي يقدمها والذي يريد فهمها بشكل واضح بقدر الإمكان، يجب أن يقدم لذلك آراء أخرى: أي يجب أن يطبق منهج التعددية، يجب أن يقارن الأفكار مع أفكار أخرى بدلاً من مقارنتها مع الخبرات والتجارب".[1]

لا يمكن النظر إلى شرط زيادة المحتوى على أساس الخبرة القائمة على التحقق المباشر فقط أو بالاعتماد على التأييد أو الاحتمال، كما لا يكفي النظر إلى نتائجها الإيجابية لأن هذا الأمر يضيق من العلم ويجعله يدور في دائرة مغلقة، ففعالية هذا الشرط تكمن في العثور على رؤية عالمية تفتح المجال أمام بدائل كثيرة يكون لها الفضل في زيادة المحتوى وتفيد البحث وتقوده إلى المزيد من النجاحات، وذلك بإتباع أساليب مخالفة للاستقراء، أو ما يسميه "**فيرابند**" "بالاستقراء المعاكس"* "الذي يمثل دوراً مهماً سواء أكان في ميدان النظريات أم الوقائع، وإن له إسهامه في تقدم العلم، وينتهي "فيرابند" إلى أن هؤلاء العقلانيين يستخدمون زيادة المحتوى بوصفه سلاح لإخماد خصومهم حتى في الظروف التي يكون فيها هذا السلاح موضع شك".[2]

يتضح أن المشروع النقدي لـ "**فيرابند**" قام بتحطيم كل الأسس التي وضعت لبناء صرح النظريات العلمية لدى الوضعانية بداية بالتميز بين النظرية والوقائع، ورفضه لحيادية اللغة، كما حاول تبيان عدم جدوى الشروط المنطقية سواء تعلق الأمر بشرط الاتساق أو التماسك المنطقي و شرط زيادة المحتوى، ولم يتوقف مشروعه النقدي عند هذا الحد بل شمل فكرة المقايسة بين النظريات العلمية كما عرفتها العقلانية التجربانية، لتحل محلها فكرة اللامقايسة يعنى عدم القابلية للمقارنة بين النظريات.

4-استحالة المقارنة بين النظريات العلمية "اللامقايسة"

---

[1] - بول فيرابند ، ضد المنهج، تر، ماهر عبد القادر محمد علي،مصدر سابق، ص44

*- يستعمله فيرابند قصد التوسع في تقديم الفروض غير المتسقة مع النظريات الأكثر ثباتاً، وسوف نتطرق إليه بالتفصيل في الفصل الثالث عند طرح فلسفة اللامعقول عند فيرابند.

[2] - نقلاً عن عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز ،مرجع سابق، ص86.

يؤكد أنصار العقلانية التجربانية المعاصرة على إمكانية القابلية للمقارنة بين النظريات على أساس وجود علاقة بين البناءات العلمية، ومحاولة تقييمها بمقارنتها مع الأنساق النظرية الأخرى بحيث تقبل المقايسة، هذا الطرح تم رفضه من قبل فلاسفة العلم المعاصر أصحاب الاتجاه النسباوي، بدءاً بـ"توماس كون" الذي روج لمصطلح "اللامقايسة" (Incommensurable) في كتابه "بنية الثورات العلمية" خلافاً للوضعية المنطقية، حيث احتل هذا المصطلح مكانة مركزية في كل من فلسفة "توماس كون" و"بول فيرابند"، وتشير الكلمة من الناحية اللغوية إلى "عدم القدرة على تقدير الشيء بمثاله".[1]

هذا المفهوم تم "اقتباسه من لا قياسية الحساب والهندسة التي برزت للتعبير عن عدم التمكن من التعبير حسابياً على علاقة هندسية"[2] حيث أكد "توماس كون" على أن كل نظرية علمية لها نموذجها الخاص بها، تختلف كل الاختلاف عن النماذج الأخرى، سواء من حيث حدودها العلمية أو من حيث منطلقاتها ومشكلاتها أو من حيث تنبؤاتها أو معايير الحكم عليها، بحيث تكون النظريات غير قابلة للقياس بينها، ويستحيل إجراء المقارنة أو المفاضلة بينهما، فكل نظرية تفسر العالم بطريقة خاصة تختلف عن النظريات الأخرى، بسبب الاختلاف في معالجة الوقائع، لكن هذا لا يعني انفصالهما بصورة مطلقة، فالنظريات تتقاطع لأنها تمثل نشاطا بشرياً، فمهما كان خيالنا واسعاً لا يستطيع أن يحتوي كل الوقائع.

يريد "توماس كون" من خلال اللامقايسة أن يبين أن العلم ليس تراكمي والنظريات العلمية لا تبنى بالاتصال ببعضها البعض، فالعلم قائم على الثورة العلمية التي تحدث بسبب تغيرات تمس النسق العام للنظرية العلمية، وهذه التغيرات تجعل المجتمع العلمي يعيش حالة الأزمة، فينتقل حينها من نموذج إلى أخر، وكل نموذج لا يقبل المقايسة مع النموذج السابق أو اللاحق. فالتحول يشمل مكونات البناء العلمي سواء تعلق الأمر بالفرضيات والخصائص

---

[1] - Encyclopédie ; Larousse : librairie Larousse- France (1964)p541.

[2] - البعزاتي بناصر، الإستدلال و البناء، مرجع سابق، ص317.

والعلاقات والأبعاد، فالنظرية الجديدة تقدم أخبارا وتفسيرات وتنبؤات، وتكشف عن خبايا تختلف عن النظرية القديمة، وبالتالي لا مجال للمقارنة بين النظريات بعضها البعض، بمعنى يحدث تحول شمولي يجعل مفهوم العلم يتغير من نموذج إلى أخر، ولقد أشارت "يمني ظريف" لهذا المصطلح بعبارات واضحة مبينة معناه في فلسفة "توماس كون" فاللامقايسة هي "عدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ للحكم عليها بالمقاييس نفسها وتقييمها بالمعايير نفسها، لكل نظرية إطارها ومفاهيمها وعالمها، حتى أن الحوار بين نظريتين في مرحلتين مختلفتين أي نموذجين إرشاديين متعاقبين هو بمنزلة حوار بين الصم حيث لن يسمع أحدهم الأخر".[1]

فكرة اللامقايسة اخدت معاني متعددة في أوساط فلاسفة العلم المعاصرين، حيث بلور "فلييب كواين"* هذه الفكرة في سياق نقده للتصور التجرباني في تحديد العلاقة بين النظرية والعالم الواقعي، حيث بين أن الملاحظة والتجربة لا يمكنهما أن تعكس لنا الواقع على حقيقته، وهذا راجع لاختلاف أسلوب العمل الإجرائي المرتبط بالزمان والمكان، فلكل نظرية إطار مفاهيمي نتج عن العلاقات المتداخلة والمتشابكة تنتمي إليه وتتحدد من خلال اللغة التي لا تقبل الترجمة إذا انتقلت إلى نسق آخر، وهذا ما يسميه "كواين" "بلاتحديدية الترجمة" ذلك أن كل حكم ينصب على الواقعة يبقى محصوراً داخل النسق، ولا يمكنه أن يدعي معرفته لحقيقة الوقائع. وبين "لودفيك فلك" أن اللامقايسة تكون بين أسلوبين مختلفين حيث عبر عنها بوضوح إذ كتب قائلاً :" يستعمل كل حقبة في أسلوبها مفاهيم واضحة ويستند ذلك الوضوح إلى ارتكازها على مفاهيم أخرى، لكن بالرغم من هذا الوضوح فإن التفاهم المباشر لدى معتنقي أساليب مختلفة مستحيل".[2]

---

[1] - الخولى يمني، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول الحصاد الأفاق المستقبلية، سلسلة عالم المعرفة،(بط) ،2000م، ص 418.

*- منطقي ورياضي، اهتم بفلسفة المنطق ونظرية المعرفة، درس بجامعة هارفارد.

[2] - البعزاتي بناصر،الإستدلال والبناء، مرجع سابق،ص319

الفكرة نفسها نجدها عند "هانسون"عالج من خلالها علاقة النظرية بالملاحظة وعبر عنها بعدم القابلية للرد، فكل ما يدرك ويعتبر حقيقة علمية إنما محمل بالنظرية، فكل حدود النظرية تتوقف على الإطار النظري الخاص بها، والتي لا تقبل الرد، فالنظريات ذات أنماط مفاهيمية مختلفة "لا قياسية" بما يعني أنه لا يمكن إجراء مقارنة بينهما على أسس منهجية، لأن اللغات المتضمنة فيها مختلفة، ولأن القضايا تحصل على قوتها من النسق اللغوي الناتج عن المفاهيم القبلية، فاللغة لا تعكس الواقع بقدر ما تعكس مفاهيم يقول هانسون" إنها ليست اللغة هي المقصودة بل المفاهيم التي تقف وراءها."[1]

فالنظريات السابقة لا تقبل القياس مع النظريات اللاحقة بالمقاييس نفسها بسبب الاختلاف الواقع في الأنماط الاجتماعية و الثقافية والفكرية، "فكل نظرية يتم طرحها من طرف فيزيائي ويتم الاتفاق على إتباع قواعدها وتفسيراتها لنفس الظواهر المدروسة، إلى جانب توحيد الدلالات اللغوية المساعدة على التفاهم، لكن الأمر يختلف عندما يتعلق بتجارب مخالفة لفريق فيزيائي آخر لا ينتمي إلى نفس المدرسة التي ننتمي إليها نحن."[2]

هذه الفكرة وجدت مكانا مرموقاً في فلسفة "**فيرابند**" لأنها تتيح الفرص للتنافس بين النظريات بصورة مستقلة، ودون تفضيل نظرية على الأخرى، لأن لكل نظرية نسق معين خاص، فهو ينتقد عملية التفسير والرد(réduction) التي قال بها "برتراند راسل" قائمة على

---

[1] -Hanson ; norwood russell r.patterns of discovery ; an inquiry into the conceptuel foundations of science Cambridge at the university press 1965.p 50

. « it is not language with which we are concerned it is the concepts underlying this language »

[2] - Jean Luc Gautero article de; ;Feyerabend ; relativiste et rèaliste revue tracès des sciences humaines, faut-il peur du relativisme n 12,;université de Nice- Sophia ;Antipolis p7.

« si les théorie admises par un physicien sont celles due nous acceptons, si nous sommes convenus de suivre les mêmes règles dans l'interprétation des mêmes phénomènes, nous parlons la même langue et nous pouvons nous entendre, mais il n'en est pas toujours ainsi, il n'en est pas ainsi lorsque nous discutons les expériences d'un physicien qui n'appartient pas à la même ècole que nous »

التحليل العقلاني في عملية التفسير، حيث أخذ بها الكثير من فلاسفة العلم، رفض "**فيرابند**" هذا الطرح معتبراً أن التطور الذي يحدث في النظريات العلمية، والتغيرات المصاحب له لا يمكن أن ينطبق عليه منهج الردّ، وذلك راجع إلى استقلالية وخصوصية كل نظرية في تعاملها مع الواقع التجريبي، إلى جانب العبارات الأساسية التي تصاغ بها المشاهدات، والتي تتوقف كلها على السياق النظري الذي وردت فيه.

ترتكز فكرة اللامقايسة عند "**فيرابند**" حول علاقة الملاحظة بالنظرية، بحيث لا يمكن قياس النظرية والحكم عليها من خلال الملاحظة "فدلالة المفاهيم وتأويلها ومنطوقات الملاحظة التي تستخدم هذه المفاهيم يتوقفان على السياق النظري الذي يظهران فيه، ففي بعض الحالات قد تكون المبادئ الأساسية لنظريتين متنافستين من البناء بحيث تظهر استحالة صياغة مبادئ إحدى النظريتين بحدود النظرية الأخرى وألفاظها، وينتج عن ذلك أن النظريتين المتنافستين لا تشتركان في أي من حدود الملاحظة الخاصة بكل منهما، كما لا يمكن القيام بالإستنتاج المنطقي لبعض نتائج إحدى النظريتين انطلاقاً من مبادئ النظرية المنافسة، وبالتالي فإن هاتين النظريتين غير متقايستين".[1]

لا يمكن اعتبار التجربة معيار لتحديد مصداقية النظرية وهذا معنى من معاني اللامقايسة عند "**فيرابند**" فلا يمكن إجراء مقارنة بين النظريات العلمية على أساس التجربة، ولا يمكن تفنيد إحدى النظريات بمقارنتها مع الأخرى، فيشبه النظرية العلمية باللغة الطبيعية، فهي تسوغ الوقائع وتوجهها نحو الأشياء، وحسب مبادئ ضمنية، كذلك النظرية العلمية تنطوي على مفاهيمها الخاصة، وطرقها الاستدلالية المتخفية، مما يجعل النظريات العلمية غير متقايسة، "فميكانيكا "نيوتن" ترى في الطاقة والمكان والزمان خصائص للعالم الفيزيائي، أما النظريات النسبية فإنها تنظر إلى هذه المعطيات بوصفها علاقات فقط."[2]

---

[1] – شالمرز ألان، نظريات العلم، تر، الحسين و فؤاد الصفا، دار توقبال للشر، ط1، 1991 م، ص 137

[2]-Tremblay ; marcel : quinze thèses ou philosopher avec des auteurs contemporains ; Op cit.p72.

يعارض "**فيرابند**" الوضعية المنطقية اعتمادها عقلانية تجربانية ترتكز على الشروط المنطقية في البناء العلمي، فالمبادئ المنطقية الأكثر تأسيساً كمبدأ عدم التناقض لا يصلح ليكون حكماً على النظريات، فلا يمكن حصر العلم في قوالب منطقية، "فيرى أن الكثير من الصراعات و التناقضات في العلم ترجع إلى تغاير خواص وطبيعة المادة، وإلى التطور التاريخي غير المتوازي خاصة في الحالات التي تتعارض فيها الملاحظة مع النظرية، فإن الميتودولوجيا تعكس شتى عناصر العلم والأطوار التاريخية المختلفة، وفي الوقت نفسه تقيم أحكامها المتقاربة، وهذا يماثل تماماً تنظيم قتال بين بالغ ورضيع والتشدق في إعلان النتيجة– والتي هي بديهية تماما".[1]

إن فكرة اللامقايسة في فلسفة "**فيرابند**" اتخذت مفاهيم ومعاني واسعة شملت جميع العلاقات المتوفرة في البناءات العلمية كعلاقة الملاحظة بالنظرية، وعلاقة اللغة بالدلالات المستخدمة في كل أنموذج، إلى جانب التغيرات في القيم والتقاليد الاجتماعية، ويستند كعادته على تاريخ العلم مبيناً أن البناءات العلمية لا تؤسس بالمقاييس نفسها، ولا توازن الأشياء بالموازين نفسها، بل يتم إنتاجها داخل نسق مفهومي معين ومن المستحيل تصور قياس محايد ولغة محايدة ولا مبدأ ثابت الدلالة، ذلك لأن المنظومة المرجعية لكل نظرية تختلف عن الأخرى، فمثلاً المنظومة المرجعية للميكانيكا الكلاسيكية تختلف كل الاختلاف عن منظومة نظرية النسبية، يقول "**فيرابند**""إن منظومة المفاهيم الجديدة التي تم إبداعها (بواسطة نظرية النسبية) لا تنكر فحسب وجود الحالات والوقائع الكلاسيكية، بل إنها تصل إلى حد أنها لا تسمح لنا حتى بصياغة منطوقات تعبر عن مثل تلك الحالات والوقائع، إن هذه المنظومة لا تشترك مع سابقتها ولو في منطوق واحد".[2]

« La mécanique newtonienne, qui voit dans la masse, l'espace et le temps des propriétés du monde, d'autre part la relativité d'Einstein, pour qui ces coordonnées sont de pures relation »

[1]- عوض عادل، الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق،ص 54.

[2] - ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص137- 138.

فلا يمكن اعتماد المقايسة أسلوبا في عقلنة التغيرات العلمية، ولا يمكن الحكم على أي نظرية علمية من خلال النظرية السابقة لها،" إذ لا يوجد مقاييس عقلية للفصل بين نظريات مختلفة سببه عدم وجود أساس مشترك يمكننا من أن نحكم حكماً عقلياً، أو موضوعياً، بشأن أية نظرية أجدر بالتفضيل".[1]

يبدو أن الغاية من فكرة اللامقايسة هو السماح لأكثر عدد من العقلانيات والمنهجيات من التعبير عن العلم، بل يذهب "**فيرابند**" إلى أبعد من ذلك حيث يفتح المجال أمام التقاليد اللاعقلانية بالمشاركة في العملية المعرفية، ولا يمكن رفضها من خلال مقايستها مع الأنساق التي تدعي العقلانية العلمية، فلا يمكن رفض اللامعقول من خلال مقايسته بالمعقول.

المبحث الثاني: نقد "فيرابند" للعقلانية النقدية

قبل التطرق إلى أهم الانتقادات التي وجهها "**فيرابند**" للعقلانية النقدية البوبرية، سوف نحاول أن نعرج إلى بعض ملامح فكر "كارل بوبر"، بحيث تعد فلسفته منعطفاً جدياً غيرت مسار الإبستولوجيا المعاصرة من نزعتها الاستقرائية، كما تبنتها الوضعية التجريبية إلى النزعة الاستنباطية القائمة على البعد النقدي المنطقي، وارتكز هذا النقد على المنطق الاستقرائي و مبدأ التحقق اللّذين شكلا أهم ركائز الوضعية المنطقية، فكل المحاولات التي قام بها أصحاب النزعة الاستقرائية قصد تبرير الاستقراء، تبقى الصعوبات التي يتضمنها المنطق الاستقرائي مطروحة رغم مبدأ احتمالية الفروض التي وضعها "ريشنباخ" في حل المشكل، يقول "بوبر" "إن مبدأ الاستقراء هذا لا يمكن أن يكون صادقاً منطقياً بحثاً مثل تحصيل حاصل أو القضية التحليلية والواقع إذا كان هناك شيء مثل المبدأ المنطقي البحث للإستقراء، فسوف لن تكون هناك مشكلة للإستقراء لأنه في هذه الحالة سوف يمكن النظر لكل الاستدلالات الاستقرائية على أنها منطقية بحثه أو تحويلات تحصيل حاصل، تماماً مثل استدلالات المنطق الاستنباطي، ومن ثم فمبدأ الاستقراء لا بد وأن يكون قضية تأليفية، أي

[1] - كونتفيهام جون، العقلانية تر، محمود منقد الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب،ط1997،1م، ص 162

قضية لا يصبح نفيها متناقضاً ذاتياً ولكن ممكن منطقياً، لذا فإن السؤال الذي يثار هو لماذا ينبغي قبول هذا المبدأ على الإطلاق، وكيف يمكن قبوله على أسس عقلية"[1]

فمن المؤكد لدى الاستقرائيين أن عملية الكشف العلمي لا تتم إلا من خلال المنطق الاستقرائي، هذا ما رفضه "بوبر" مبيناً التجاوزات اللامنطقية للإستقراء، بحيث لا يجوز منطقياً الانتقال في حالات الصدق من قضايا مفردة جزئية إلى قضايا عامة، فمصداقية الاستقراء لا تتم إلا بالاستقصاء الكلي والشامل لكل الجزئيات، وإلا يسقطنا في النتائج الكاذبة، لا يقوم العلم على الاستقراء الناقص، لذلك استبدله بوبر بالمنهج الاستنباطي.

1-الكشف العلمي بواسطة المنهج الاستنباطي:

يقدم لنا "بوبر" مقترحاً جديداً لبناء النظريات العلمية و المتمثل في المنهج الاستنباطي القائم على الافتراض المنطقي في اختبار النظريات والفروض العلمية، فيبدأ العلماء بطرح فروض تفسر بها الظواهر بطريقة مؤقتة تسمح لنا باستخلاص نتائج عن طريق الاستنباط المنطقي، بحيث يمكننا مقارنتها بعضها ببعض، حتى يتسنى لنا الوقوف على العلاقات المنطقية التي تحكمها، ويحدد "بوبر" أربعة خطوات أساسية توجز منهجه في اختبار النظريات العلمية:

"**أولاً:** طريقة المقارنة المنطقية للنتائج التي يمكن عن طريقها اختبار الاتساق الداخلي للنسق.

ثانيا: البحث عن الصورة المنطقية للنظرية، لنرى ما إذا كانت تتميز بكونها امبريقية أم علمية أم تحصيل حاصل.

ثالثاً: المقارنة بين النظرية وغيرها من النظريات الأخرى خاصة عن طريق تحديد ما إذا كانت النظرية تشكل تقدما علميا أم لا.

رابعاً: اختبار النظرية ذاتها عن طريق التطبيقات الإمبريقية للنتائج التي يمكن أن تستنبط منها."[1]

---

[1] - بوبر كارل، منطق الكشف العلمي، تر ماهر عبد القادر محمد علي، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، (ب ط)، 1986م، ص65.

استبدل "بوبر" المنهج الاستقرائي القائم على النزعة التجريبية في الكشف العلمي بمنهج فرضي استنباطي يقوم على الاختبارات الاستنباطية مستبعداً الأدلة الاستقرائية، إذ يقول"...إن النظرية لا تستنتج بأي معنى من المعاني من الأدلة الإمبريقية ليس ثمة شيء من قبيل الاستقراء السيكولوجي ولا الاستقراء المنطقي، فليس بالإمكان أن نستنتج من الأدلة الإمبريقية غير كذب النظرية، وهذا الإستدلال استنباطي صرف."[2]

فالاستنباط الذي يقصده "بوبر" هو الاستنباط البرهاني الذي يكشف عن حقائق جديدة حين ينتقل من مقدمات معلومة إلى نتائج لم تكن معلومة، وهذه النتائج تفيد العلم وتضيف له الجديد شأنه شأن البرهان الرياضي الذي يزودنا بنظريات جديدة لم تتضمنها التعريفات والبديهيات، وهذا خلافاً للاستنباط الصوري القائم على التحصيل حاصل، فنتائجه تتضمن مقدماته خالية من الإبداع.

رغم الرفض الذي أبداه "بوبر" للإستقراء إلا أنه يقر بأهمية الملاحظة والتجريب في قبول أو رفض النظرية المتسقة منطقياً، بحيث "إذا اتفقت الملاحظات مع النتائج المستنبطة من النظرية سلمنا بها مؤقتاً وإن تناقضت استبعدناها، ولا أثر إطلاقاً للإستقراء، فليس هناك إي انتقال من الوقائع إلى النظريات ما لم يكن انتقالاً تكذيبياً، حقاً إن الإستدلال هنا من أدلة تجريبية، ولكنه استدلال استنباطي."[3]

استخدم "بوبر"معيار "القابلية للتكذيب" للتطبيق منهجه الاستنباطي في التميز بين النظريات العلمية وتحديد كيفية تطور العلم، ذلك أن عملية نمو العلم تتم من خلال التفنيد المتكرر للنظريات العلمية واستبدالها بنظريات أخرى قادرة على تقديم تفسير أفضل، سواء تعلق الأمر بالتناغم المنطقي للنظرية من الناحية العقلية أو بمحتواها التجريبي. "فالمحتوى المنطقي هو المعيار الذي نلجأ إليه من أجل معرفة مدى تماسك النظرية العلمية، فمثلاً :"إذا

---

[1] - عبد القادر ماهر، مشكلات الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت،(ب ط) 1985م، ص، ص 121-122.

[2] - بوبر كارل، الحدوس الافتراضية والتفنيدات،ترجمة عادل مصطفي، دار النهضة العربية،بيروت، ط1-2002م، ص30.

[3] - يمني طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول، الأفاق، المستقبل)الهيئة المصرية العامة للكتابة، ط 1، 2009م،ص 386.

كانت لدينا النظرية(a) التي ترمز مباشرة لقوانين "كبلر" الثلاثة، والنظرية(b) التي ترمز لقوانين "جاليلو" فإن مضمون النظرية التي تشمل على النظريتين(a) و(b) ولتكن(ab) ستكون دائماً أكبر من أو على الأقل مساوياً لأي من النظريتين(a) و(b) كل على حدة، فإذا كان الفرض المؤلف من النظريتين معا نشير إليه بالنظرية (ab) والرموز (Ct) يشير إلى المحتوى في الحالات الثلاث، فإن(b) $Ct \geq$ (ab) Ct $\leq$ Ct (a) أي أنه إذا ازداد المحتوى، قلت درجة الاحتمالية، أي ازدادت اللااحتمالية."[1]

يتضح أن "بوبر" يتناول مشكلة المعرفة تناولاً تطورياً متنامياً "منهج المحاولة واستبعاد الخطأ" وغرضه في ذلك الوصول إلى نظريات غنية بالمحتويات التفسيرية تخضع للقابلية للتكذيب في مقابل تضاؤل درجة احتماليتها، فهو يدعو من خلال منهجه إلى زيادة المحتوى المعرفي من خلال النقاش بين العلماء وباستخدام منهج التفنيد، حيث يلعب الاختبار دوراً هاماً في زيادة المحتوى ومهما كانت النتيجة، فإن الباحث يتعلم شيئاً جديداً "ففي حالة فشل الاختبار في التفنيد، يتبين أن المحاولة التي لم تفند أكثر ملائمة وهي الأفضل ما لدينا حتى الآن، وأنه هو الذي يؤخذ به، أما إذا نجح النقد وفندت النظرية فقد عرف الباحث الكثير أيضاً، عرف لماذا أخطأ، فيّلم بالمشكلة أكثر."[2]

لقد أكد "بوبر" على دور وأهمية الفروض الميتافيزيقية والحدسية وقلل من شأن الاستقراء والملاحظة الحسية، فالعلوم في نظره تطورت بفضل المنهج الفرضي الاستنباطي مستشهدا بتاريخ العلم في الفلك حيث يبين "بوبر" أن انجازات "كبلر"(kepler) المتعلق بحركة الكواكب على أن مداراتها إهليليجية، ارتكزت على فروض ميتافيزيقية، مضمونها أن الأفلاك تدور في مدارات دائرية، ولكن بعد أن أخضعها للنقد والاختبار استبعدها وقال بالمسارات الإهليليجية، فتم قبول الفرض علمياً.

---

[1] - عبد القادر ماهر، مشكلات الفلسفة، مرجع سابق، ص 125.
[2] - يمني طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول، الأفاق، المستقبل)، مرجع سابق، ص387.

يتضح أن اكتشاف "كبلر" للمسار البيضوي لم ينطلق من ملاحظة حسية بل من تكذيب الفرض الميتافيزيقي القائل بالمسار الدائري، يقول "بوبر":" لقد أخطأ نيوتن حينما اعتقد أن كبلر قد وصل إلى قوانينه الثلاثة بالاستقراء اعتماداً على ملاحظات "تيخوبراهي"* لقد كان الحدس هو المرشد و الموجه لكبلر مثله في ذلك مثل كل عالم: محاولة(فرض) وخطأ(تفنيد تجريبي)، كما كان كبلر ... فيلسوفاً ميتافيزيقياً نجح في التعلم من أخطائه، ولقد كان هذا كله واضحاً له وهو الوضوح الذي لم يفهمه الكثير من العلماء حتى اليوم."[1]

إن الكشف العلمي في نظر"بوبر" محكوم بمنطق ثابت يحتوي على ثلاث لحظات، "ففي اللحظة الأولى يبني رجل العلم فرضيات أو نظريات تؤخذ على سبيل المحاولة لحل المشكلات التي لا تحصى داخل التركيبة المعقدة للكون، أما في اللحظة الثانية يخضع رجل العلم "محاولاته" أو تخميناته لاختبارات قاسية ومنهجية تكون على قدر كبير من الخصوبة، بحيث تستطيع تحقيق النجاح في تفنيدها وتكذيبها، أما اللحظة الثالثة يتم تطبيق منهج المحاولة واستبعاد الخطأ فتعرض تخميناته للمناقشة من لدن الهيئة العلمية."[2]

يتضح من خلال هذا المنهج أن "بوبر" يولي اهتماماً بالغاً للنقد، لذا سميت فلسفته بالعقلانية النقدية، وذلك من خلال فكرة التفتح على كل الاقتراحات الممكنة لحل المشكلات العلمية، حيث عبر "بوبر "عن ذلك بقوله:"نحن بحاجة إلى الآخرين لوضع أفكارنا موضع اختبار لنكشف أي من بين أفكارنا هي الصحيحة."[3]

إن هذا التصور يماثل ما وجدناه من أفكار عند "**فيرابند**" فهو يدعو بدوره للتفتح على جميع التقاليد وإتاحة الفرصة للجميع للمشاركة في تطور ونمو العلم، وهذا وفق منهج التعددية الذي يتماشى مع الفوضوية الإبستمولوجية، يفهم من هذا السياق أن العقلانية

---

*- فلكي دنماركي (1546-1601) يعرف بإقامته لأول رصد مسجل له عند اقتران كوكب المشتري وزحل قام بتصحيح الجداول الفلكية

[1] - بوبر كارل، الحياة بأسرها حلول لمشاكل، تعر بهاء درويش، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1994م، ص161.

[2] - مذبوح لخضر، فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، دار العربية للعلوم بيروت، ط 1، 2009م،ص 143.

[3] - نقلاً عن مذبوح لخضر، فلسفة كارل بوبر،دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2011م، ص17.

البوبرية تقوم على أساس النقاش النقدي وعلى الرغم من وجود خلاف بينه وبين العقلانية الفوضوية لـ"**فيرابند**" فإنه يشترك معه في النزعة الإنسانية ورفض السلطوية المعرفية، وإعطاء الحرية للإنسان في البحث عن الحقيقة، دون الانقياد لسلطة معرفية أو مصدر معين وحيد للحقيقة، فالبحث العلمي يسير من حلول سيئة إلى حلول أفضل، فاتحاً المجال أمام كل التخمينات الممكنة، فطريق التقدم العلمي الوحيد هو طريق الكشف هو طريق طرح فروض أفضل، فالمسألة العلمية ذات طابع نسبي دائمة التغير لا تتوقف عن التطور والتقدم.

وضع "بوبر" معيار القابلية للتكذيب للتميز بين النظريات العلمية، وهذا ما سوف نفصل فيه في الجزء الموالي.

2-القابلية للتكذيب معيار التمييز بين العلم واللاعلم:

يرى "بوبر" أن معيار "القابلية للتحقق" غير قادر على بناء النظريات العلمية، ولا التمييز بين ماهو علم واللاعلم، ذلك أن اهتمامات الوضعيين اقتصرت على التمييز بين القضايا من خلال المعنى و اللامعنى على ضوء التجربة الحسية والاستقراء، فالقضايا ذات المعنى هي تلك القابلة للتحقق بينما القضايا الخالية من المعنى وهي القضايا الميتافيزيقيا ليس لها معنى، رفض "بوبر" هذا الطرح إذ يقول:"إن هدفي الأساسي لرفض المنطق الاستقرائي بإيجاز هو أنه لا يزودنا بعلامة تمييز مناسبة للخاصية الإمبريقية للنسق النظري اللاميتافيزيقي، أو بعبارة أخرى، إنه لا يزودنا بمعيار ملائم للتمييز."[1]

رفض "بوبر" معيار القابلية للتحقق بسبب عدم قدرته على التمييز بين العلم واللاعلم فالخبرة الحسية لا يمكنها أن تساهم في بناء النظرية العلمية دون تدخل العقل بتخميناته، كما أن الاستقراء يحمل مشكلة منطقية لم يتمكن التخلص منها رغم محاولات كل الاستقرائيين، يقول بوبر:"والآن وتبعاً لوجهة نظري فإنه لا يوجد مثل ذلك الشيء الذي نسميه استقراء، ومن ثم فإنه استدلال النظريات من قضايا شخصية(محققة بالخبرة)...ليس مسموحاً به من الناحية المنطقية، إذن فالنظريات ليست قابلة للتحقيق الإمبريقي مطلقاً، ولكنني بكل يقين

[1] - بوبر كارل، منطق الكشف العلمي، مرجع سابق، ص71.

سأسمح بأن يكون النسق امبريقياً أو علمياً فقط إذا كان قابلاً للإختبارعن طريق الخبرة، وهذه الاعتبارات تقترح علينا أنه ليست قابلية التحقيق وإنما قابلية تكذيب النسق هي ما يمكن أن نأخذه كمعيار للتمييز."[1]

إن النقد الذي قدمه "بوبر" لمعيار التحقق القائم على التبرير جعله يعتمد معيار القابلية للتكذيب معتمداً على الوظيفة الكشفية للعلم، ويتلخص هذا المبدأ في أن أية نظرية أو فرض أو قانون قابل للتكذيب طالما كان من الممكن وجود قضية كاذبة تبطل التعميم، وتجعل النظرية غير علمية، ومن خلاله نستطيع أن نميز بين النظريات العلمية وغيرها، "فالنظريات المكذبة ترفض وتحل بدلا منها نظريات أخرى قابلة للتكذيب بدورها، هكذا حتى نصل إلى الهدف الذي ينشده وهو الاقتراب من الحقيقة، أي البحث عن النظريات التي تتفق بطريقة أفضل مع الوقائع."[2]

يعتقد "بوبر" أنه مهما كانت الحالات المفردة المؤيدة للحكم فإن وجدت حالة واحدة مفردة سالبة يؤدي ذلك إلى إلغاء النظرية، لذلك يقترح على الباحث الاشتغال بالبحث عن الحالات السلبية، فعوض البحث عن حالات التحقق المؤيدة نبحث عن الحالات المكذبة، فإن كانت الحالات المفردة تجتمع لتؤيد وتبرر القضية الكلية عند الاستقرائيين، فإن القضايا المفردة عند"بوبر" تؤدي إلى تكذيب النظرية، فيكون الحكم على النظرية بالتكذيب إذا لم تكن نتيجة الاختبار في صالحها، بمعنى يحدث تناقض بين التنبؤات المستنبطة والواقع التجريبي يقول"بوبر":"إن الدور الأساسي الذي تلعبه النظريات والفروض أو الحدوس الافتراضية في العلم، يجعل من الأهمية بمكان أن نميز بين النظريات القابلة للاختبار أو القابلة للتكذيب، وبين النظريات غير القابلة للاختبار أو غير القابلة للتكذيب."[3]

---

1 - المرجع نفسه، ص 77.

2 - ماهر عبد القادر، نظرية المعرفة العلمية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، (ب ط) 1985م، ص 14.

3 - بوبر كارل، أسطورة الإطار،في الدفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة يمني طريف الخولى، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت،(د ط)، 2003م، ص124.

يرى "كارل بوبر" أن معيار القابلية للتكذيب كفيل بإنشاء نظريات علمية، تكون قادرة على الصمود وهذا بفضل التماسك المنطقي الذي تحتويه، والذي يلعب دور في زيادة المحتوى المعرفي للنظرية، بحيث كلما زاد هذا المحتوى نقص درجة احتمالها، فقابلية النظرية للتكذيب يرتبط باتساع المحتوى المعرفي للنظرية، وتكون قادرة على تقديم تفسير أكثر بسبب محتواها التجريبي والمنطقي، فمادامت النظرية العلمية قابلة للتكذيب تكون أكثر تفتحاً على الواقعة السلبية والتي تسمح لها بإمكانية استبدالها بنظرية أفضل من حيث المحتوى المعرفي واقترابها من الصدق، فالجانب الصوري لمبدأ القابلية للتكذيب يحدد الصيغة العلمية والمنطقية للنظريات العلمية، بينما الجانب الواقعي لها يختبر النظرية عن طريق الاستنباط وبالرجوع إلى الواقع التجريبي، والذي يعزز النظرية أو يفندها وذلك بواسطة الشاهد السلبي، "فالجاذبية الأرضية مثلاً، تعد نظرية علمية ليس لأن التحقق أثبتها بل لأن لحظة انعدامها قائمة، وإذا ما تحققت هذه اللحظة بالفعل يؤدي ذلك إلى تكذيب النظرية، واستبدالها مما يساعد العلم على تعدد إمكاناته في البحث عن المعرفة، لذا عمد "بوبر" على وضع معيار القابلية للتكذيب" للتمييز بين النظريات العلمية والنظريات غير العلمية، فالنظرية التي تقبل هذا المعيار تصنف على أنها علمية بينما النظرية التي لا تقبل هذا المعيار فهي تصنف ضمن العلم الزائف، لذلك فهو يرفض بعض النظريات المعاصرة كالماركسية والتحليل النفسي عندما يقارنها بنظرية "أنشتياين" في النسبية، فاعتبر النظريتين الأوليتين مثالاً عن العلم الكاذب، والثانية مثالاً عن العلم الصحيح."[1]

اعتبر "بوبر" عملية الاختبار الحقيقي للنظريات العلمية قائم على التكذيب وليس على التحقق، واستند في ذلك إلى تاريخ العلم، وحسه النقدي في قراءة النظريات العلمية التي عاصرها كالنظرية النسبية والنظرية الماركسية ونظرية التحليل النفسي، حيث لاحظ أثناء

---

[1] - محمد أحمد السيد، التمييز بين العلم واللاعلم، دراسة في مشكلة المنهج العلمي، منشأة المعارف الإسكندرية، 1996م، ص 111و 112

المقارنة بينهما، أن النظرية النسبية هي نظرية علمية بحكم أنها تقبل التكذيب، وهذا راجع لقبولها الاختبار، بينما يتعذر ذلك مع النظريات الأخرى كالماركسية والفرويدية والتي تقبل التأييد المفرط من الوقائع التاريخية والاجتماعية والإنسانية لها في جميع الأحوال، بحيث يمكن تأويل كل حادثة عابرة وفق المنظور الماركسي أو الفرويدي، مما يجعل من المستحيل تكذيبها، " فهي لا ترتبط من الناحية المنطقية الصورية بأي موقف محتمل يمكن أن يكذبها، وكل ما يفعله مؤيديها هو الاستعانة بفكرة الشواهد المؤيدة المتمثلة في المشاهدات الإيجابية، التي تحقق هذه النظريات، وعند مواجهة الحوادث السلبية يعاد تفسيرها بأنها ناتجة عن التحيز الشخصي وغير ذلك من التبريرات غير العقلية "فالنظريات الفرويدية التحليلية دائماً يمكن تطبيقها و يمكن تأكيدها، تفسر كل شيء وتشرح كل شيء ولو جاء رجل ليؤكد أنه يشعر إطلاقاً بعقدة أديب ولم يصدر عنه أي سلوك ينم عنها- وهذا ما لابد أن يؤكده الأسوياء- فلن يعتبر التحليليون هذا تفنيداً لنظرياتهم، بل لا على الفور سيتملصون من هذا التكذيب بأنه عقدة أديب مكبوتة في اللاشعور، والنظرية بهذا غير قابلة للاختبار، وبالتالي غير قابلة للتكذيب، ويمكن على هذا النحو إدخال كل الأحداث الممكنة وكل الوقائع الممكنة وكل النماذج السيكولوجية الممكنة في نطاق هذه النظريات."[1] وهذا يخالف خاصية نمو وتطور العلم من وجهة نظر "بوبر"، وعلى العكس من ذلك فالنظريات الفيزيائية تتميز بتقديم تنبؤات دقيقة عن أحداث سوف تقع في ظروف محددة، فالنظرية التي تقاوم وتتمكن من تجاوز الاختبارات القاسية يتعزز صدقها، أما إذا فشلت في تجاوز الاختبارات فيتم تكذيبها.

يؤكد "بوبر" أن هذا المعيار يجسد حقيقة النظريات العلمية ولا يمكن وصف أي نظرية بأنها علمية إلا إذا كانت قابلة للتكذيب، فهو المعيار الذي نميز به بين العلم الصحيح والعلم الكاذب، كان لهذه الأفكار تأثيراً قوياً على فلسفة "**فيرابند**" حيث انبهر بأفكاره، فكانت فكرة القابلية للتكذيب تؤخذ كفكرة مسلم بها في "دائرة كرافت" التي أسسها "**فيرابند**"، لكن هذا

---

[1] - يمني طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول، الأفاق، المستقبل)، مرجع سابق، ص404-405.

الانبهار الذي أبداه "**فيرابند**" بفلسفة "بوبر" في البداية لم يستمر طويلاً، وتحول إلى نقد قوي دحض من خلاله كل أفكار "بوبر" واصفاً منهجه بالتكذيب الساذج، وفلسفته بالدوغمائية، وأنه لم يخرج عن إطار الوضعية المنطقية، حيث رفض "**فيرابند**" التمييز الذي وضعه "بوبر" بين أصناف المعرفة العلمية، واعتبره إقصاء مجحف لتجارب إنسانية كان لها دور أساسي في بناء المعرفة وتطويرها.

3-حدود النزعة التكذيبية:

لم يكتفي "**فيرابند**" بنقد الوضعية المنطقية والإطاحة بكل أسس البناء التي اعتمدتها بل امتدت انتقاداته لتشمل المشروع البوبري وبصورة أشد، فهو يعارض كل صور العقلانية النقدية ونعتها بالفلسفة الدوغمائية، ويصف معيار التكذيب بالساذج لأن بوبر يرفض النظريات غير القابلة للتفنيد، وتاريخ العلم في نظر "**فيرابند**" لا يشير إلى أي نوع من التكذيب، فالكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها "بوبر" "فليس للتفنيد أي دور في تاريخ العلم."[1]

فالنظريات العلمية تحافظ على تناسقها من خلال البرهنة سواء تعلق الأمر بالبرهنة العقلية أو التجريبية التي تثبت صحة النظرية العلمية وليس من خلال التفنيد،" فالكثير من النظريات لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها بوبر...إذ لا يمكن للعلماء التخلي عن مشاريعهم العلمية الضخمة و نظرياتهم بمجرد أنها تتعارض مع بعض الوقائع، فإذا كان بوبر يؤكد على رفض أو استبعاد النظريات فإن فكرة فيرابند الأساسية هي استباق النظريات والإكثار منها."[2] فالكثير من الحالات كانت تبدو كاذبة اتضح بعد فترة أنها ليست كذلك بعد أن تم تفسيرها وتعديلها بواسطة الفروض العينية،* فالعلماء يحتفظون بنظرياتهم رغم وجود أمثلة مضادة لها أو عدد معين من التفنيدات، وقد حققت هذه النظريات المفندة فيما بعد

[1]- Feyerabend. Paul .a dieu la raison tra Baudouin gurdant éditions du seuil .p 198

[2]- فيرابند بول, ثلاث محاورات في المعرفة تر، محمد أحمد السيد, دار المعرفة الجامعية الإسكندرية (بـ ط)،1997م، ص 19 .

*- مجموعة من الفرضيات التفسيرية التي يقترحها العالم من أجل إزالة التعارض بين النظرية والوقائع المدروسة.

نجاحات باهرة، " فقد تم تكذيب نظرية الجاذبية النيوتنية في السنوات التي أعقبت صياغتها، بواسطة ملاحظات تتعلق بمدار القمر. وبعد ذلك بخمسين عاما، انهارت تلك الملاحظات، قبل إلغاء هذا التكذيب نهائياً بعد إرجاعه إلى عوامل أخرى مغايرة للنظرية النيوتونية، وبعد ذلك تبين أن هذه النظرية غير متوافقة مع القيم العددية التي تم التوصل إليها في حساب مسار الكوكب عطارد، ومع ذلك فإن العلماء لم يتخلوا عنها بسبب ذلك، إلا أن هذا التكذيب لم يتوصل أبداً إلى تفسيره على نحو من شأنه أن يحفظ نظرية نيوتن(Newton)".[1]

"كعادته يسترشد "**فيرابند**" بتاريخ العلم ليضيف بعض الإستشهادات ليؤكد عدم جدوى التفنيد البوبري، وذلك من خلال انتهاك غاليلي لتكذيبات النظرية الكوبرنيكية، إذ افترض كوبرنيك (Copernic) أن الأرض تدور حول محورها، فقد فجر مشكلات ديناميكية عديدة كانت ستطيح بالنسق الكوبرنيكي إلى ما لا نهاية، فلو افترضنا أن الأرض تدور حول محورها لكانت كل نقطة عليها تنتقل بسرعة عظيمة، وبالتالي فلو رمينا بحجر من فوق صومعة فإنها ستسقط بعيداً عن النقطة العمودية لها، لكن الواقع يثبت غير ذلك، ومن ثمة يمكن اعتبار نظرية كوبرنيك مفندة، إلا أن غاليلي تجاوز تلك التفنيدات وذلك بنقض حجة الصومعة، والقول بدوران الأرض وعمها الغلاف الجوي كله، وبذلك أنقد غاليلي نظرية كوبرنيك دون اللجوء إلى المنهجية التكذيبية، فالنظريات العلمية لا تتطور عن طريق التكذيب."[2] فقواعد المنهج التكذيبي لا تساهم في تقدم العلم لأن النظريات العلمية وإحداثيات العمل التجريبي كما تمارس لدى العلماء لا يمكنها أن تتماشى مع ما جاء به بوبر،" فالتكذيب الصارم أو التكذيبية الساذجة كما يطلق عليها "لاكاتوس" تقضي على العلم ولا

[1] - شالمرز ألان، نظريات العلم، تر، الحسين سحبان و فؤاد الصفي، دار توقبال للنشر، دار البيضاء، ط 1، 1990م، ص 73-74

[2]- بوصالحيح حمدان العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها" "بول فيرابند" أنموذجا" أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الفلسفة، تحت اشراف أد زاوي عمر جامعة وهران 2، كلية العلوم الإجتماعية قسم الفلسفة، السنة الجامعية 2014/2013، بعنوان " للباحث ، ص73.

تسمح له بالانطلاق."[1] فلا يمكن للمنهج التفنيدي أن يدعي الصرامة العلمية لأن العلم لا يختصر في منهج معين دون آخر، بل التعدد هو أساس التطور، لذلك رفض "**فيرابند**" معيار التكذيب البوبري في التمييز بين النظريات العلمية، ووصل به النقد إلى حد التهكم من فلسفته إذ يقول:"إذا تخيلنا أن كلا من "كوبرنيكوس" و غاليليو"طبقا وبصورة متسقة أمينة قواعد "بوبر" المنهجية لكنا لا نزال نعيش في مرحلة الفيزياء الأرسطية حتى الآن."[2]

يتضح مما سبق أن "**فيرابند**" يصر على نسبية المعرفة، فهي إنتاج إنساني متنوعة تجعل كل المحاولات مقبولة ومشروعة، "فلا يمكن حصر المعرفة العلمية في مجرد تخمينات أو تفنيدات، فتاريخ العلم يبين أن الممارسة العلمية لا تقوم على الحالات الشاذة أو الحالات غير المتوقعة."[3]

---

[1]- بول فيرابند ، ضد المنهج، تر، ماهر عبد القادر محمد علي،مصدر سابق، ص264.

[2] - فيرابند بول, ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص20.

2 - عوض عادل، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط.1، 2006، ص.310.

إنّ حالات التفنيد أو التكذيب إن وجدت فهي تمثل حالة شاذة بالنسبة للعلم، لا يمكن أن تكون سبباً في رفض النظرية، فليس بمجرد وجود شاهد سلبي ترفض النظرية بأكملها.

إن فكرة "**فيرابند**" تقوم على إبقاء النظريات وتنافسها مما يفتح مجال النقاش الذي يساهم بدوره في نمو المعرفة، فالتفنيد البوبري يمثل خطوة ضمن خطوات متعددة يتضمنها البحث العلمي، وهو لا يحمل أي ميزة تجعله يتفوق عن باقي المنهجيات الأخرى، فلا يمكن لهذا المعيار أن يمثل دوراً رائداً في العلم، وكل الشواهد التي ذكرها "بوبر" تمثل حالات شاذة ومعقدة يكون فيها التفنيد ضئيلاً، مما يبين أن التحليل الذي قدمه "بوبر" قائم على المنطق وليس على التفسير العلمي، فالتحليل المنطقي تتجلى قيمته في ارتباطه بالمضمون المعرفي في تفسير الظواهر الفيزيائية، وهذا ما تفتقر إليه التفنيدية التي اعتنت بالتحليل المنطقي و أهملت التفسير العلمي.

إن انتقادات "**فيرابند**" لم تقتصر على الجانب المنهجي، بل شملت فلسفته النقدية حيث يؤكد أن هذه الفلسفة لم تستوعب دروس التاريخ، إذ لا يمكن تفسير الحوادث بإتباع منهج واحد، كما لا توجد محاولة نقدية واحدة قدمت لنا منظور صحيح وكامل للعلم، يقول "**فيرابند**": "أما العقلانية النقدية التي تعبر أكثر منهج تفاؤلي متحرر في الوجود اليوم، فهي إما فكرة ذات مغزى أو مجرد مجموعة من الشعارات مثل(الحقيقة، النزاهة العلمية، الأمانة العقلية... وغيرها) التي صممت لتخويف المعارضين."[1]

[1] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص257.

يرى "**فيرابند**" أن الفلسفة النقدية قائمة على الإقصاء والتهميش لكثير من التجارب الإنسانية، بحيث ميز بين المعارف التي توصف بأنها علمية من منطلق قابليتها للتكذيب في حين وصف بعض المعارف الأخرى بأنها زائفة، فرفض التفسير التاريخي الماركسي لحركة المجتمع والتحليل النفسي "لسغموند فرويد"(Sigmond freud) وهي كلها تدخل في نطاق المعارف اللاعلمية.

يشيد "**فيرابند**" بالقيمة المعرفية لكل التجارب البشرية مهما كان نوعها أو مصدرها فهي تكشف عن حقائق لا يستطيع العلم الفيزيائي التطرق إليها، فليس كل معرفة تخضع للمعايير التجريبية المتعامل بها سواء تعلق الأمر بمعيار التحقق أو معيار التكذيب، يمكن وصفها بأنها علمية لذلك عمد "**فيرابند**" على تقويض وتحطيم كل المحاولات التي تجعل من المنهج طريق للتعلم، فهو يرفض طريقة المنهج العلمي مهما كانت طبيعته ومهما تشدق بها فلاسفة العلم، سواء كانوا من ذوي النزعة الاستقرائية أو من أنصار النزعة التكذيبية، لأن المنهجية التي اقترحها بوبر في ميدان الإبستيمولوجيا لا تبني العلم بل تشكل أسباب تأزمه وانغلاقه، فالعلم لا يمكنه أن يتقدم وفق المعايير التي حددتها العقلانية النقدية لأنها تتنافى مع الممارسة العلمية، ولا يمكن أن يقوم العلم إذا اعتمدنا التفنيد في بناء العلم بحيث تفند أي نظرية علمية في بدايتها بمجرد وجود شاهد واحد يكذبها، هذا الأمر غير مقبول في العلم، فكل نظرية علمية تقبل التفسيرات متعددة و قد تكون متناقضة يمكن تأييدها كما يمكن تكذيبها، يقول "**فيرابند**": "فكل نظرية هامة بصورة معتدلة يمكن تكذيبها، فضلاً عن أن للنظريات عيوباً صورية كما يحتوي العديد منها على تناقضات، ولذلك فهي تحتاج إلى تعديلات، وهكذا دواليك ولسوف تستبعد المعايير البوبرية، المطبقة بعزم وثبات على العلم دون أن تحل محله أي شيء مطابق له، لذلك فهي لا تصلح للاستخدام كهدف للعلم".[1]

---

[1]- فيرابند بول، كيف ندافع على المجتمع ضد العلم، ترجمة و تقديم، السيد نفادي، تحرير إيان هاكينج، الثورات العلمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص234.

يؤكد "**فيرابند**" أنه رغم الانتقادات التي وجهها "بوبر" للوضعية المنطقية، حيث رفض التأسيس المنطقي للمنهجية الاستقرائية إلا أنه لم يتمكن من التحرر من الفكر الوضعانية القائم على النزعة التجريبية.

إن الأساس الذي تقوم عليه التكذيبية لا يخلو من الجانب التجريبي القائم على الملاحظة، فإذا كانت كل النظريات العلمية قابلة للتكذيب فهي ذات أساس تجريبي، ذلك أن عملية البحث على الشواهد السلبية تتطلب بالضرورة القيام بتجارب واقعية ومن منطلق الخبرة والملاحظة، هذا ما يشير حسب "**فيرابند**" إلى وضعانية "بوبر" فيقول: قدم بوبر مقترحاً تقنياً يتوافق مع ما جاءت به الوضعية:بحيث فصل بين معيار التمييز ومشكلة الاستقراء، جاعلاً من قابلية للتكذيب معيار للتمييز و من التخمينات الجريئة والاختبارات القاسية حلاً لمشكلة الاستقراء، هذا الاقتراح التقني صمم ضمن الاصطلاحات المنطقية المفضلة لدى الوضعيين، فجعلت منه مجرد بصورة "كاريكاتورية منطقية" عوض أن تعكس نظرية علمية حقيقية.[1]

[1] -Feyerabend Paul ;Adieu la raison ;Op cit p220.
« il a débuté avec une proposition technique qui restait dans le cadre du positivisme : il faut séparer le problème de la démarcation du problème de l'induction, le premier par la réfutabilité, et le second par une méthode de conjectures audacieuses et de tests sèvères.la proposition était technique, parce qu'elle était formulée dans la terminologie logique préférée des positivismes et parce qu'elle suivait le positivisme en remplaçant les théories scientifiques réelles par des caricatures logiques »

إن مبدأ التكذيب الذي قدمه "بوبر"واجهة نفس العوائق التي اعترضت مبدأ التحقق، "فأطروحات التكذيبين تتوقف على نظرية معينة وتكون عرضة للخطأ، بحيث إذا ما توفرنا على منطوقات صادقة مستقاة من الملاحظة، فإننا نستطيع حينئذ أن نستنتج منها كذب بعض المنطوقات الشمولية، ولكننا لا نستطيع أن نستنتج منها صدق أي منطوق شمولي."[1]

وعليه يتأكد الطابع النسبي للنظريات العلمية فلا يمكن الفصل وبصورة نهائية في تعزيز أو تكذيب النتائج المتوصل إليها، لأنه من غير الممكن منطقياً تفنيد فرض أو نظرية بالاستناد إلى منطوق ملاحظة يمكن أن يكون هو في ذاته خاطئاً، وبالتالي فإن نظرية التكذيب أهملت القيمة العلمية للمعرفة القائمة على الإثبات والصدق وليس على التكذيب، لأن اكتشاف الأخطاء يكون من منطلق معرفة الصدق ولا يكتشف الخطأ من التكذيب.

هذا الأمر جعلت من نظرية بوبر تعاني من مشكلة جوهرية أضعفت قيمتها العلمية، فكما أنه من الصعب البرهنة على صدق النظريات العلمية، فمن الصعب كذلك البرهنة على كذبها لقد "أوضح "لاكاتوس" أن معيار التكذيب البوبري أهمل القيمة المعرفية للعلم، وبناء عليه لا يمكن لأحد أن يتعلم شيئاً ما عن العلم حتى من أخطائه، لأنه لا يمكنه اكتشاف خطأ معارفه، إذا لم تكن لديه نظرية للصدق وعلى الرغم من ذلك فقد أقرّ أن التكذيب هنا ليست له علاقة بعدم الأمانة أو صورة أخرى من صور المعالجة الخاطئة أو اختلاف البيانات العلمية."[2]

---

[1] - ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص67.

[2] - عوض عادل، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، مرجع سابق، ص287.

بالرجوع إلى بعض القضايا العلمية يتبين لنا أن الكثير من النظريات لا تقبل التكذيب، "فالماء مثلاً يتجمد في درجة الصفر لا يحتمل إطلاقاً أن نجد واقعة تكذبه، ولو وجدنا ماء لا يتجمد في درجة الصفر فلن يكون ماء، ولهذا لا نجد إلا احتمالين لا ثالث لهما، أهذه القضية ليست علمية أو هي تحصيل حاصل، أو أن نتمسك بافتراض وجود ماء لا يتجمد في هذه الدرجة."[1] كما يوجد بعض النظريات لا يمكن تكذيبها حالياً بالرغم من أن العلماء يقبلون بها بقوة مثل "النظرية التي تقول بوجود ثقوب سوداء في الفضاء ومن المستحيل اختبارها أو محاولة تكذيبها، لأنه لا يمكن مشاهدة الثقوب السوداء كونها سوداء أصلاً ولم يتمكن العلماء أن يدركوا عليها شيئاً أو عن خاصيتها الفيزيائية."[2]

بناء على ما تقدم اتخذ "**فيرابند**" موقفاً نقدياً صارماً من العقلانية النقدية، ويصفها بالنقدية الوهمية التي لا تحتوي على أي دلالات واقعية، بل هي مجرد تخمينات خالية من أي إبداع، فهو يمارس النقد من أجل النقد لا غير وبصورة ذوغمائية معتقدا أن ما يقدمه هو العلم، بينما العلم لا يعتمد الميثودولوجيات الوهمية ولا العقلانيات المتطرفة التي تدعي اليقين الموضوعي وتقف أمام التقدم العلمي، لذلك رفض "**فيرابند**" القول بالمنهج الواحد، فلا يوجد مبادئ أو قوانين منهجية تستخدم من قبل العلماء بشكل دائم، بل كل الوسائل مباحة في البحث العلمي.

---

[1] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] - جمال ميموني و نضال قسوم، قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، دار المعرفة، الجزائر، (بـ ط)(بـ ت) ص217.

هذا الطرح جعل "**فيرابند**" ينتقد كل المحاولات التي وضعت من طرف الإبستمولوجين حتى تلك التي تدعي النسبية، سواء تعلق الأمر بفكرة "النموذج" عند "توماس كون" أو فكرة برامج البحث "عند"امري لاكاتوس"، وهذا ما سوف نتطرق إليه في المباحث اللاحقة.

المبحث الثالث: الموقف النقدي لفيرابند من فلسفة توماس كون:

تمثل فلسفة "توماس كون" توجهاً مغايراً لتلك التوجهات السابقة له، فما يميز حركته الفكرية في مجال فلسفة العلوم هو الربط بين تاريخ العلم وفلسفته، رافضاً النزعة التراكمية القائمة على منطق التبرير، فالمعرفة العلمية في نظر هؤلاء تسير في اتجاه تصاعدي استمراري متنامي ينتقل من مرحلة إلى أخرى شبيه بالبناء الذي يشيد عبر مراحل متتالية بحيث لا نترك مرحلة حتى نكون قد بنينا التالية ننتقل إليها، فالمرحلية ضرورية في بناء العلم، فالعالم لا يبدأ من نقطة الصفر عند دراسته لمشكلة معينة، بل من حيث انتهى إليه الآخرون مستفيداً من التراث العلمي لسابقيه.

كما رفض النزعة الانفصالية الثورية القائمة على منطق الكشف والتي ترى العلم في ثورة دائمة، وفي تقاطع مستمر دون وجود أي رابط داخلي بين النظريات العلمية، مبيناً أن العلم لا يقوم على توجه واحد دون الأخر، فالعلم في نظره هو نتاج لتضافر وتلاحم مجموعة من النظريات العلمية السائدة في المجتمع وفي فترة محددة، فكل نظرية تعمل من موقعها وتساهم في بناء العلم، هذا ما جعل توجهه يتميز بالنسبية، وهو التوجه العام لفلاسفة العلم المعاصرين، "يتصور "كون" أن العلم في فترة من فتراته يحقق ارتباطاً كلياً بين نظرياته المختلفة، فهذه النظريات تؤلف كلا متماسكاً وهو ما يطلق عليه فكرة نموذج (paradigme) ، والعلماء في هذه الفترة يسيرون في أبحاثهم العلمية وفق هذا النموذج ويعملون من خلاله".[1] وينشأ النموذج العلمي في نظر "كون" من خلال النسيج العام للمجتمع والمتمثل في الطابع السوسيولوجي للمعرفة العلمية، إلى جانب إدراكه لتاريخه.

[1]- ماهر عبد القادر محمد علي، نظرية المعرفة العلمية، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، (بـ ط)، 1985م، ص76.

1- تطور العلم في نظر كون:

تطور العلم في نظر "كون" اتخذ أبعاداً أخرى تختلف عن التصورات السابقة حيث أصبح العلم متعلق من جهة بالمجتمع و من جهة أخرى بتاريخ العلم، فاهتم كثيراً بالنواحي السوسيولوجية والسيكولوجية لنمو العلم، واقتصر اهتمامه بالدرجة الأولى على ما أسماه "الجماعة العلمية"، "فما يتفق عليه جماعة العلماء في عصر معين يمكن تحديد هذه الجماعة بأنها ما يشترك أفرادها في نموذج ما، وبصفة عامة فالنموذج هو شبكة من التصورات والنظريات والمنهج والأدوات، أي أنه يمثل المجتمع العلمي في خضوعه لنظرية واحدة وقيم مشتركة، فالنموذج هو المنظم لنشاط العلماء والموجه لعملهم أثناء قيامهم بحل المشكلات المختلفة، فالنموذج هو صياغة منسقة تضع العناصر المتشابهة في إطار محدد ووظيفته الأساسية تقديم نسق موحد من النظريات."[1]

يرى "كون" أن النظريات العلمية تنشأ من خلال التفاعل الذي يحدث بين العناصر السيكولوجية والسوسيولوجية داخل المجتمع، فالتقدم العلمي مرتبط بالنسق الواقعي والاجتماعي، ففعالية الممارسة العلمية لا تكون إلا من خلال التنقيب في تاريخ البحث العلمي لا عن طريق إتباع المناهج الشكلية، فلا يوجد منهج علمي شامل وكامل يستطيع أن يفسر حركة تطور العلم، هذا الطرح أخذ به "**فيرابند**" وتبنته الإبستمولوجيا الفوضوية، فكثير من التحولات العلمية حصلت دون إتباع منهج معين.

"أسس "كون" لعقلانية جديدة ترفض سلطة المنهج الصارم الوحيد في بناء العلم وتتفتح على تقاليد المجتمع العلمي، الذي يحدد المعايير التي يتخذها أعضاء هذا المجتمع في أبحاثهم، والمجتمع هنا يأخذ مفهوم المؤسسة التي يعمل كل أفرادها بالمشاركة في الإنتاج العلمي، ومن هنا جاءت تسمية هذا التوجه الجديد في فلسفة العلم بـ "العقلانية المؤسساتية."[2]

---

1 - عادل عوض، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، مرجع سابق، ص291.

2 - بوصالحيح حمدان "العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها" "بول فيرابند" أنموذجا" أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الفلسفة، تحت إشراف أد الزاوي عمر جامعة وهران 2، كلية العلوم الاجتماعية قسم الفلسفة السنة الجامعية 2014/2013، ص77.

يقسم "كون" مراحل تطور أي علم إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة ما قبل العلم أو ما تسمى "**بالعلم غير الناضج**" وهي مرحلة تسبق انبثاق النموذج الإرشادي الأول وتتميز باختلاف الآراء الذاتية وتباينها التي لا تستند إلى أي موضوعية أو منهجية علمية، بسبب خلفياتها الميتافيزيقية والفلسفية، يقول "كون": "إن مراحل التطور الأولى لمعظم العلوم تتميز بمنافسة مستمرة بين عدد من الآراء المميزة عن الطبيعة...وهناك عنصر بديهي واضح يتكون من الحدث الشخصي والتاريخي وهو مقوّم من مقومات التي تبناها مجتمع علمي بالذات في وقت بالذات."[1]

[1]– توماس كون،تركيب الثورات العلمية، ترجمة وتقديم الدكتور ماهر عبد القادر محمد علي،ج 5 ،دار النهضة العربية،للطباعة والنشر،(بط)،1988م،ص45.

إن مرحلة العلم غير الناضج التي تسبق انبثاق النموذج الإرشادي الأول تعبر عن مرحلة الفوضى بسبب غياب أسس معيارية عقلانية، فكل المدارس المتباينة يعتقد أصحابها أنهم يمتلكون الحقيقة، بحيث تفسر الظواهر الواحدة تفسيرات مختلفة، وهذا راجع إلى المعتقدات التي يؤمن بها أفراد المجتمع المتواجدة خارج النسق العلمي لأنها تحمل المقومات اللاعقلانية، لكن أهميتها تكمن في الدور الذي تلعبه هذه المعتقدات في تماسك الروابط الاجتماعية بين أفراد المدرسة الواحدة. فاختلاف الآراء وتنوعها تساهم في ظهور النموذج الإرشادي، ويستند "كون" لتاريخ العلم "ليوضح ذلك بأمثلة من علم البصريات الفيزيائية، حيث وقع اختلاف في تفسير ظاهرة الضوء قبل "نيوتن" ففسرت إحدى المدارس أن الضوء جزئيات تنبعث من الأجسام المادية، وأخرى فسرت الضوء على أنه تعديل الوسط الواصل بين العين والجسم، بينما فسرته مجموعة أخرى بأنه تفاعل بين الوسط المحيط وبين انبعاث صادر عن العين... وكل مدرسة من المدارس استمدت قوتها من علاقتها بميتافيزيقا خاصة، إلى أن حصل أول نموذج إرشادي لعلم البصريات الفيزيائي مع نيوتن."[1]

يتضح مما سبق أن مرحلة العلم غير الناضج مرحلة ضرورية في بناء العلم، لأنها تمثل الخلفية الفكرية التي فتحت المجال للتنافس بين مختلف الآراء والتصورات، حتى يتأسس النموذج الإرشادي الأول، وهنا مرة أخرى يتقاطع "كون" مع "**فيرابند**" الذي يولي أهمية بالغة للتقاليد المختلفة، ورغم عدم عقلانيتها فهي تفيد العلم وتقود البحث نحو الأفضل وتحرر الفكر من قيود المنهجية، ويؤكد "كون" أن مرحلة العلم غير الناضج تنتهي بتفوق وانتصار إحدى المدارس المتنافسة، فينتقل المجتمع العلمي إلى مرحلة البحث العلمي لينجز ما يسمى بالعلم الناضج، فيتحقق أول إجماع فكري يتواضع على أسسه الباحثون في مجال من مجالات العلوم، وهذا ما يسمى "**بالعلم الناضج السوي**".

---

[1] - توماس كون، تركيب الثورات العلمية، المرجع السابق، ص56.

بعد أن يستقر العلم الناضج "النموذج الإرشادي" "وتبدأ حركته الموجية التناوبية، بحيث يتناوب فيها التراكم مع الانفصال ويتناوب فيها التقدم العلمي مع التحول العلمي، وتوصف هذه المناوبة على شكل موجي، لأنها تشبه الموجة الفيزيائية التي ستعيد نفسها بعد أن تستكمل شكلها المتكامل، وشكل الموجة الكلية العام هو الثلاثي(النموذج الإرشادي- ومن ثم الأزمة- ومن ثم الثورة العلمية) وعند النهاية سنبدأ بموجة جديدة، بنموذج إرشادي جديد لا علاقة له بالنموذج الإرشادي القديم".[1]

يمثل العلم السوي(النموذج الإرشادي) مجموع النشاطات العلمية والإنجازات المحققة من طرف العلماء في فترة معينة تسبق العلم الثوري أو الشاذ، فالعلم في الفترة التي يسودها النموذج القديم هو ما يطلق عليه كون "بالعلم السوي"، الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي(paradigme) وهو يمثل" مجموع النظريات العامة التي يلتزم بها المجتمع العلمي في مرحلة ما، وبلوغ النظرية مرتبة النموذج الإرشادي يعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي تثبت ووجب التسليم بها وبكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وخلفياتها الميتافيزيقية، فتغدو النظرية بكل هذه الأبعاد بمثابة نموذج إرشادي يحدد مدلول الوقائع التجريبية، يطرح معايير الاختبار والتقويم والتنقيح والتعديل إذا لزم الأمر."[2]

إن النموذج الإرشادي يساعد على حل المشكلات التي تواجه العلماء ويفسح لهم المجال لإثبات قدراتهم ومهاراتهم، فالعلم العادي يتقدم ويتطور من خلال حل الألغاز التي يثيرها النموذج المسلم به، فيزداد المحتوى المعرفي و يتراكم، فالنموذج الإرشاد(العلم السوي) لا يهدف إلى اكتشاف الجديد من الوقائع والنظريات، بل يسعى إلى حل معضلات النظرية وذلك بالالتزام بالقواعد والمعايير والتقاليد التي يفرضها النموذج السائد، وبمجرد ظهور الشذوذ يتوقف التراكم، بحيث يعجز العلماء عن حل هذه الحالة الشاذة، وهذا راجع لعدم قدرة

---

[1] – موسي كريم، فلسفة العلم من العلانية إلى اللاعقلانية،دار الفارابي، بيروت- لبنان،ط 1،2012م،ص267.

[2]– يمني طريف الخولى،فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول –الحصاد- الأفاق المستقبلية،مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، 2009م، ص444.

النموذج على احتواء المشكلة الجديدة، فتبدأ المقاومة تتلاشى وتظهر الأزمة ويتراجع النموذج الإرشادي ليحل محله نموذج إرشادي جديد، فننتقل من الطابع التراكمي للعلم إلى طابعه الثوري، حينها نكون أمام ما يسمى بالثورة العلمية، بحيث يتمكن النموذج البديل من حل المشكلات العالقة في النموذج القديم، وعدم تمكن هذا الأخير من حلها بعد محاولات عديدة، حيث يحدث تغيير جذري بين النموذجيين يصل إلى حد اللامقايسة بمفهومها الواسع، سواء من حيث المنهجية والمعاني المستخدمة والمفاهيم الخاصة بكل نموذج، " فالتحول من نموذج إرشادي إلى أخر لا يحدث لأن النموذج الجديد يقدم حلولا أفضل للمشاكل القديمة، أو لأنه تم اكتشاف دليل للنظريات أفضل من ذلك الدليل الخاص بالنظريات في النموذج القديم، وإنما هذا التحول كان نتيجة للتزايد المستمر والمتكرر لعدم قدرة النموذج القديم(أو النظرية السائدة)على حل المعضلات."[1]

2- موقف فيرابند النقدي من كون:

من المتعارف عليه أن مرحلة ما بعد التفنيدية شكلت تحول في فلسفة العلوم المعاصرة تمثلت في ظهور التوجه النسباوي بدءاَ بتوماس كون وامري لاكاتوس وصولاً إلى "**فيرابند**"، فالكثير من الأفكار المشتركة بين عقلانية "توماس كون"و"فيرابند" ترجع إلى رفضهما للعقلانيات المنغلقة كالوضعية المنطقية والتكذيبية واهتمامهما بدور الجوانب الميتافيزيقية والمعتقدات الفكرية والتقاليد المختلفة، والإشادة بها في التأثير على رؤية العلماء للعالم، والتأكيد على الخيال اللاعقلاني والحدس في تطوير العلم وبنائه، كذلك استثمار تاريخ العلم في تفسير النظريات العلمية وتغير مسار المعرفة العلمية، وذلك بتتبع العلوم تاريخياً والتقليل من شأن الطرق المنطقية الصارمة، إلى جانب رفضه للعقلانية التي تبنتها الوضعية المنطقية، فقام بهدم أسسها ومهّد الطريق لـ"**فيرابند**" في شن حرب ضد العقل والعقلانية مشيراً

---

[1] - سهام النويهي، تطور المعرفة العلمية،مقال في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر التوزيع،القاهرة(بط)1988م،ص22.

إلى أهمية اللامعقول ودوره الفعال في بناء المعرفة، والاهتمام بكل التجارب الإنسانية التي بإمكانها أن تقدم الكثير للبشرية، منكراً القول بالمنهج العلمي الواحد الكلي.

إن النزعة النقدية التي اتسمت بها فلسفة "**فيرابند**" جعلته يوجه سهام النقد لكل الميثودولوجيات بما فيها محاولات "كون"، إلا أنها كانت أقل حدَة من تلك الموجهة للنزعة الاستقرائية والتكذيبية.

يرى "**فيرابند**" أن فكرة البراديغم التي جاء بها "كون" لا تخلو من السلطوية، يعني سلطة المجتمع العلمي الذي يفرض نموذجا إرشادياً محدداً، يوصف بأنه موضوعي علمي، في حين أن ما يقدمه النموذج هو محاولة من بين المحاولات المتعددة، ولا يكتسب صفة التميز العلمي التي تمكنه من إقصاء المحاولات الأخرى أو ما يسمى بالنموذج القديم بحجة عدم قدرته على حل المعضلات، إن المنهجية التي قدمها "كون" لا تخضع لحتمية تاريخية ضرورية تجعل مسيرة العلم داخل قوالب حديدية صلبة، تكون سبباً في عرقلة الحركة التطورية للعلم، وتقف عائقاً أمام الإبداع الفردي بحكم عدم انتمائه للمجتمع العلمي، حيث يضع النموذج الإرشادي في مرحلة العلم السوي آليات ومعايير تفرضها الجماعة العلمية على كل النشاطات العلمية المقترحة، لذلك رفض "**فيرابند**" تعددية "توماس كون" للنماذج الإرشادية التي سرعان ما تتوحد على الإجماع والاستقطاب باتجاه قبول نموذج إرشادي واحد، هو الأجدر لقيادة المشروع العلمي والتحكم بمجريات البحث العلمي في حالته القياسية المقبلة"، بينما التعددية التي يشيدها "فيرابند" هي ذات نزعة فوضوية،لا تسلطية لا تؤمن بمنح سلطة مركزية ذات توجه فكري واحد أو نظرية واحدة، وأن التسلط الذي يفرضه "كون" لنموذجه الإرشادي لا يتماشى مع روح الحرية والتعددية"[1]

يتضح أن "فيرابند" يعيب على "كون" ترويجه لإيديولوجية المجتمع العلمي ومؤسساته، فالتسلط العلمي في مجال تخصص معين يجعل أصحابه أكثر غطرسة وتسلطاً، وهذا يعيق التقدم العلمي ويقوم بإقصاء التقاليد الاجتماعية الأخرى، بحجة عدم تماشيها مع الإنجازات

[1] – موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص371-372.

العلمية داخل النموذج الإرشادي الجديد فلا يمكن وصف العلم الحديث بالتقدم على حساب التفسيرات العلمية القديمة.

يرفض "**فيرابند**" الإقصاء الذي يمارسه المجتمع العلمي ضد البدائل الأخرى، مع العلم أن النموذج الإرشادي هو نتاج لمنافسة بين مختلف المذاهب الفكرية والميتافيزيقيا في مرحلة العلم غير الناضج حسب تفسير "كون"، فهذا الإقصاء لا يوجد ما يبرره، لذا استبدل "**فيرابند**" المجتمع العلمي بالمجتمع الحر، الذي يرفض كل قيد وتسلط مهما كان نوعه أو مصدره، ولا يعني ذلك إهماله للمبادرات الفردية عكس "كون" الذي فسر التطور العلمي باعتماده التحليل السوسيولوجي، مركزاً في ذلك على الأفكار العلمية في عملية التأريخ للعلم دون غيرها من الأفكار التي كان لها دور في ظهور الدول والحضارات، فقام بفصل العلم عن جانبه الحضاري، وعلى الرغم من أن "كون" ينكر ذلك مؤكداً على ضرورة الجوانب الحضارية الأخرى كالأدب والفن والنظم السياسية والإنسانيات ودورها الفعال في تقدم العلم، إلا أن "نظريته في العلم كانت أقرب للسوسيولوجيا وذلك بالتركيز على الجماعة العلمية أو المؤسسة العلمية، واقتطعها عن سائر المجتمع الذي تحيا في سياقه الثقافي، فعزل اكتشافات الوقائع والابتكارات النظرية عما يحفز إليها في الواقع المتغير للمجتمع والثقافة، فأوشكت الجماعة العلمية أو المؤسسة العلمية أن تكون صومعة رهبان أو تكية للصوفية يديرونها بأنفسهم، ولا تختلف عنها إلا في أن الانقلابات والثورات تقع فيها بين الحين والأخر."[1]

إذا كان "كون" يؤكد على أهمية العلم السوي الذي تستتب فيه النظريات العلمية الجديدة بعد استبدالها بأخرى قديمة، فإن هذا الطرح لا يؤكده تاريخ العلم، لأن عملية الحذف والاستبعاد كما طرحها "كون" بعيدة عن التحقق، فحالات الشذوذ التي تتسبب في عملية الاستبدال لا تتم بالطريقة التي طرحها"كون"، بل تعالج بطرق عادية لا تستدعي بالضرورة عملية الانتقال من نموذج إلى آخر، وبالتالي نتجنب الثورات. إن العلم

---

[1] – نقلاً عن يمني طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق،ص450.

في نظر "**فيرابند**" يمكن أن يسير في ظل تفاعل بين النظريات العلمية اللامتناسقة والمتخاصمة فكرياً، ففي مجال علم النفس هناك الكثير من النماذج الفاعلة في تفسير السلوك الإنساني كالمدرسة السلوكية والفرويدية والخشطلتية، وبالتالي لا نحتاج إلى أزمة في نموذج حتى ننتقل إلى نموذج أخر، كما أن "اللااتساق المنطوي في فلسفة الكوانتم لم يؤثر في أي حال من الأحوال على التقدم العلمي الهائل الذي يمضي فيه ميكانيك الكوانتم، نقول ربما هو الذي يقف وراء تبني "**فيرابند**" فكرة اللاإتساق مفهوم جوهري في العلم، وكل شيء في تصوره ينبع من اللاإتساق، حتى إنه يعارض توماس كون في مسألة من يقف وراء الأزمة التي تحل في المجتمع العلمي وتجعل الثورة العلمية على وشك الحصول، فبرأيه لم نقف وراء ذلك الشواذ المستعصية على الحل التي يواجهها النموذج الإرشادي السائد كما يرى كون بل الذي يدفع بالأزمة إلى الأمام هو اللاإتساق الحاصل بين النماذج الإرشادية المتنافسة"[1]

إن المجتمع العلمي الذي يشير إليه "كون" هو المجتمع الأوروبي الذي يعتقد أنه تحرر من الأطر الميتافيزيقية في مرحلة العلم غير الناضج، وانتقل إلى العلم السوي وهذا يكشف عن الخلفية الفكرية لـ"كون" ومركزيته الأوروبية، هذا الطرح يرفضه "**فيرابند**" عندما يشير إلى أهمية الطرح الأنثروبولوجي في دراسة المجتمعات البدائية والتعرف على الأساليب الفعالة المستخدمة من طرف الإنسان في مواجهة الطبيعة، إلى جانب دور الحضارات الأخرى خاصة الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها الفعال على العلم الأوروبي، لقد وصف لنا "كون" مسيرة العلم وصفاً سينمائياً مبني على الخيال لا يتحقق إلا في قاعات السينما بينما واقع تاريخ العلم يؤكد غير ذلك.

---

[1] - نقلا عن موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص374.

إن العلم في نظر "**فيرابند**" ليس أفضل من أنساق التفسير الأخرى، وهو لا يسير وفق خطة ثابتة ومحددة سلفاً كما يعتقد "كون"، بل هو نتاج لتفاعل مجموعة من المجهودات في مجالات متعددة ومختلفة ولا تكون معروفة دائماً، بل قد يتم إنتاجها بالصدفة، لذا يدعو "**فيرابند**" للأخذ بأكبر عدد من النظريات وهذا تماشياً مع مشروعه الفوضوي الذي يستند إلى مبدأ "كل شيء جائز".

المبحث الرابع : نقد فيرابند للعقلانية الميتودولوجية "إمري لاكاتوس"

قبل التطرق إلى أهم الانتقادات التي قدمها "**فيرابند**" لـ "ميثودولوجيا برامج البحث" التي طرحها "لاكاتوس" كمعيار للحكم على النظريات العلمية، يجدر بنا أولاً تبيان فلسفته وتفسيره للكيفية التي يتقدم بها العلم.

تأثر "لاكاتوس" بفلسفة "بوبر"شانه في ذلك شأن زملائه "كون" و"فيرابند" وهذا التأثر يكمن في تبنيه فكرة "التكذيبية" التي اعتبرها معياراً ووسيلة فعالة تساهم في تقدم العلم، لكن ما يقصده لاكاتوس هو التكذيب الواعي وليس التكذيب المنهجي الساذج البوبري، ذلك أن العلماء لا يمكنهم أن يتخلوا على نظرياتهم العلمية المتعارف عليها بمجرد وجود شاهد واحد سلبي يكذبها،"فمعيار القابلية للتكذيب عند بوبر يتجاهل التماسك الشديد والصلابة العنيدة التي تميز النظريات العلمية فالعلماء على حد تعبيره يكون لهم جلد سميك."[1]

العلم لا يمكنه أن ينمو بهذه الكيفية التي طرحها "بوبر" حيث يجعل من الحالات المنفرة الناتجة عن الاختبار الحاسم لنظرية منعزلة أساساً لقيام العلم وانهياره، فطريقة المحاولة والخطأ التي يقترحها "بوبر" لا يمكنها أن ترق إلى مرتبة العلم الناضج، رغم اعترافه بوجود حالات شاذة، لكن تفسر في إطار برامج البحث الذي بإمكانه أن يجذ حلاً لكل الحالات الشاذة، أو التسامح معها حفاظاً على تماسك البرنامج العام، يقول لاكاتوس:" العلم الناضج يحتوي على برامج للبحث يتنبأ فيها ليس فقط بالوقائع الجديدة، بالمعنى الهام، لكن أيضاً

[1] – محمد أحمد السيد، التمييز بين العلم واللاعلم، دراسة في مشكلة المنهج العلمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1996م، ص171.

بالنظريات المساعدة الجديدة، والعلم الناضج –ليس مثل المحاولة والخطأ المبتذلة–لها قوة تجريبية، لنتذكر المحاولة التجريبية الموجبة للبرنامج القوي يوجد مند البداية مباشرة خط عام للطريقة التي يتم بها بناء أحزمة الأمان: هذه القوة التجريبية تولد الحكم الذاتي للعلم النظري".[1]

أما فيما يخص "كون" يعيب عنه تمسكه بالتفسير السوسيولوجي و السيكولوجي في تقدم العلم، مشيراً إلى أن هذا التفسير يخل بالجانب العقلاني ويقترب أكثر بالتفسيرات اللاعقلانية، فهو يختزل العمل العلمي في قوالب الجماعة العلمية، وتحت تأثير سلطة المجتمع، وعلى الرغم من ذلك فإن فكرة برامج البحث تتشابه إلى حد بعيد مع فكرة النموذج عند "كون"، وعليه يمكن القول أن فلسفة "لاكاتوس" تتخذ مكان الوسط بين كل من فلسفة "بوبر" فلسفة "كون"، فما هي الأبعاد الإبستمولوجية لبرامج البحث عند"لاكاتوس" وما هو البديل الذي يقدمه.

1–ميثودولوجيا برامج البحث العلمي:

بعد أن رفض "لاكاتوس" المنهجيات السابقة لكل من "بوبر" صاحب مبدأ القابلية للتكذيب و "كون" صاحب فكرة "البراديغم"، يقترح نموذج مخالف يتمثل في "ميثودولوجيا برامج البحث العلمي" ويعتبرها البديل الأمثل في تفسير النظريات العلمية، مستعيناً بتاريخ العلم كشرط ضروري لتقدم المعرفة العلمية، إذ يقول:" فلسفة العلم بدون تاريخ العلم خواء، وتاريخ العلم بدون فلسفة العلم عماء".

إن التطور الذي يحدث في العلم في نظر لاكاتوس يشمل سلسلة من النظريات العلمية المتزاحمة والمتنافسة، لينتهي الأمر بتفوق إحداهما عن الأخرى، فتتقدم المتفوقة وتتأخر المنهزمة، وسبب التأخر يرجع لغياب الخصائص والشروط التي يجب أن يتمسك بها

[1]- أمري لاكاتوس، برامج الأبحاث العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي،ج السادس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص187.

البرنامج، فكلما زاد تدهور البرنامج ازداد ابتعاده عن النجاح، وبالتالي يترك المكان للبرنامج المنافس الأكثر تمسكاً بشروط التقدم، بحيث تكتسب النظرية مشروعيتها من خلال تزايد محتواها التجريبي، من هنا "يجعل "لاكاتوس" من درجة اعتماد نظرية ما على وقائع استقرائية مقبولة معياراً شمولياً، أي إن قرارات المشتغلين بالعلم يقودها ويوجهها، صاحب النزعة العقلية–المعيار الكلي الشمولي–ومن ثم نستبعد النظريات التي لا تتطابق مع هذا المعيار."[1]

فالنظريات تكتسب الصدق من خلال تطابقها مع هذا المعيار والذي يستند بدوره إلى الحقيقة في عالمنا الواقعي، فالعلم يتقدم من خلال التنافس بين برامج البحث العلمي والتقدم فيه مرهون بمدى تماسكه وقدرته على التنبؤ، ويتم ذلك بواسطة الإثباتات وليس التكذيبات.

يتكون برامج البحث عند "لاكاتوس" من مجموعة من العناصر منها "**النواة الصلبة**" "تتكون من بعض الفرضيات العامة والتي تشكل القاعدة التي ينبغي للبرنامج أن ينمو ويتطور انطلاقاً منها ولدينا بعض الأمثلة على ذلك فنظرية "كوبربيكوس" في الفلك تنطلق من فرضيتين وهما أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس مستقرة وأن الأرض تدور حولها في مدة يوم، وفي فيزياء نيوتن تتشكل النواة الصلبة من قوانين الحركة ومن الجاذبية...وتصير النواة الصلبة لبرنامج ما غير قابلة للتكذيب."[2] هذه النواة لكي تحافظ على صلابتها تحتاج إلى "**الحزام الواقي أو الأمان**" وهو عبارة عن شبكة من الفروض المساعدة القابلة للتعديل وظيفتها حماية النواة الصلبة من التكذيب،" إن العبقرية العلمية تلحق بالنواة الصلبة فروضاً مساعدة هي بمثابة الحزام الواقي لها، الحزام الواقي هو الذي يصطلي بنار الاختبارات التجريبية التكذيبية، ويتحمل التفنيدات والتعديلات والتصويبات، بل حتى قد يستبدل به حزام واق ’خر، ليحمي ويصون النواة الصلبة لبرنامج البحث الذي يزداد قوة وصلابة بفضل كل هذا."[3]

---

[1] - عادل عوض، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، مرجع سابق، ص305.
[2] - ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص86-87.
[3] - يمني طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق،ص456.

فضلاً عن النواة الصلبة وحزام الواقي يحتوي برنامج البحث أيضاً على موجه مساعد على الكشف، يوجه عمل العلماء و يعين القواعد الواجب إتباعها وينقسم حسب"لاكاتوس" إلى "**كاشف ايجابي**" و"**كاشف سلبي**"، فالكشافة السلبية تلعب دور المدافع عن النواة الصلبة فهي التي تحافظ على ثبات البرنامج خلال نموه وتطوره، أما الكشافة الإيجابية فهي بمثابة النور الذي يشع الطريق للعلماء من أجل البحث المستمر حتى يتم تطوير البرنامج والمحافظة على صلابة النواة.

2-موقف فيرابند من ميثودولوجيا برامج البحث:

يؤكد "**فيرابند**" على أهمية فلسفة "لاكاتوس" فهو يقرّ بايجابيتها ومدى تأثره بها، مشيراً إلى أهمية النقاش الذي دار بينهما حول أهمية المنهج في البحث العلمي، حيث وقف "لاكاتوس" مدافعاً عن المنهج بينما وقف "**فيرابند**" ضد إقامة أي منهج ومهما كان نوعه في توجيه النظريات العلمية، وانبثق عن هذا النقاش مشروع بحث يتمثل في كتاب مشترك "مع وضد المنهج" يقوم "**فيرابند**" بعرض أفكاره الأساسية في مجال فلسفة العلوم، ثم يقوم "لاكاتوس" بالرد عليه في نفس الكتاب، لكن الرحيل المفاجئ للاكاتوس حال دون استكمال هذا المشروع، فأنجز "**فيرابند**" الجزء الخاص به وهو كتابه "ضد المنهج" والذي أشار فيه إلى التقارب الموجود بينه وبين "لاكاتوس"، يقول "فيرابند":" ينتقد "لاكاتوس" المناهج الموجودة ويصل إلى نتيجة تتطابق تقريباً مع نتيجتي وباعتبار الطريقة التي تحذف بها النظريات...وهو أحد المفكرين القليلين الذين لاحظوا الهوة الشاسعة الموجودة بين الصور المتعددة للعلم والشيء الحقيقي وأدرك كذلك أن محاولة إصلاح العلوم عن طريق تقريبها إلى الصورة سوف تفسدها أو حتى تحطمها، وأنا أتفق تماماً مع هذه النتيجة."[1]

لكن هذا الاتفاق لا يعني مسايرته لكل أفكاره، بل واجه الكثير منها بالنقد والتمحيص، فدفاع "لاكاتوس" عن العقل والعقلانية والموضوعية معتبراً العلم أرقى أشكال المعرفة الإنسانية، بحكم شمولية المنهج المتبع، فالعناصر التي يستخدمها "لاكاتوس" مثل "النواة

[1] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق،ص 276-277.

الصلبة أو الكشافة الإيجابية والكشافة السلبية، جعلت من فلسفته تأخذ منحى دوغمائي، بحيث قام بإقصاء الكثير من المعارف بحكم أنها غير عقلانية، هذا الطرح يرفضه "**فيرابند**" ففند كل المحاولات التي تقرّ بمشروعية المنهج العلمي الواحد في بناء المعرفة العلمية، يقول فيرابند":"حتى المحاولة الذكية من لاكاتوس لبناء منهجية لا تصدر أوامر وتضع قيوداً على أنشطة زيادة معرفتنا، وتظهر فلسفة لاكاتوس متحررة فقط لأنها فوضوية في زى تنكري، كما أن مقاييسه المأخوذة من العلم الحديث لا يمكن النظر إليها على أنها أدوات تحكيم حيادية في الموضوع أو قضية بين العلم الحديث وعلم أرسطو والأسطورة والسحر والدين."[1]

فالعلم في نظر "**فيرابند**" لا يمكنه أن يتقيد بالأطر العقلانية التي فرضتها الميثودولوجيات المعاصرة بما فيها "برامج البحث العلمي" بل هو "نشاط ومغامرة ذهنية متحررة تتجاوز كل الحدود ولا تخضع للأي قواعد حتى ولو كانت قواعد المنطق."[2] مؤكداً على النزعة الفوضوية في تقدم العلم معتبراً لاكاتوس شريكاً له في هذه الفوضوية إلا أنه يعيب عنه إعادة بناء تاريخ العلم من منطلق عقلاني وضعي يفصل فيه بين سياق الكشف وسياق التبرير، في حين أن تاريخ العلم يسخر بأنماط كثيرة من المعارف تتجاوز هذا الطرح، والمبنية على سياق الكشف حيث تلعب الشروط الاجتماعية والنفسية دوراً هاماً في تقدم العلم، وهذا ما لم نجده في التحليل الذي قدمه "لاكاتوس" في برامجه البحثية. فهذا الإقصاء جعل محاولة "لاكاتوس" محدودة ولا تتلاءم مع طموح البحث العلمي" فبدلاً من أن يهتم بالنظريات نراه يتحدث عن برامج البحث التي تعد نتائج لنظريات مرتبطة بمناهج تعديل أطلق عليها المساعد على الكشف، وفي النتيجة قد تكون كل نظرية مليئة بأخطاء، كما قد تكون محفوفة بمحاليات وتناقضات والتباسات، فما يأخذه بعين الاعتبار ليس هو الشكل الذي تكون عليه النظريات بمفردها، وإنما هو الهدف الذي يبدو من قبل النتيجة حيث أننا نحكم على التطورات والإنجازات التاريخية خلال فترة من الزمن، لا من خلال موقف في

1 - المصدر نفسه، ،ص173.
2 - المصدر نفسه، ص275.

زمن خصوصي...ومعنى هذا أن لاكاتوس يطرح علينا في الواقع ألفاظاً رنانة مثل عناصر الميثودولوجيات، ولا يطرح علينا أنه ميثودولوجياً، فطبقاً لأكثر مناهج البحث تقدماً ورقيا في عالم اليوم، لا نجد عنده منهج بهذا المعنى"[1]

إن العقلانية التي يدعيها "لاكاتوس" لا تخرج عن إطار الفوضوية ولا تحتكم لمقاييس علمية مضبوطة، "والأحكام التي يصدرها ليست نتيجة البحث أو أجزاء من الممارسة العلمية، إنها أجزاء من الإيديولوجية التي يحاول فرضها علينا متنكرة في شكل الحكمة العلمية العامة، للمرة الثانية نجد اختلافاً مثيراً بين صياغة عروض لاكاتوس وقيمتها الفورية، لقد رأينا أن منهجية برامج البحث تم تقديمها بهدف إعانة العقلانية، ويمكن أن تدين تصرف منفرد على أنه غير عقلاني."[2]

بناء على ما سبق يرى "**فيرابند**" أن العقلانية المقدمة من طرف لاكاتوس تعد مجرد تقييم نظري تفتقر للعمل والتوجيه الميداني، هذا التوجيه يستدعي من الباحث أن يكون متفتحاً على كل الخيارات التي يفرضها البحث العلمي،"إن ميثودولوجيا لاكاتوس لا تعطي قواعد للاختيار لصالح نظرية أو برنامج ما، فهي تقدم معايير تساعد المشتغل بالعلم على تقييم الوضعية التاريخية التي يتخذ ضمنها قرراته، ولكنها لا تتضمن القواعد التي تقول له ما ينبغي فعله، لا ينبغي للعلماء إذن أن يدعوا أنفسهم يسجنون داخل قواعد يفرضها عليهم أحد الميثودولوجيين، بهذا المعنى كل شيء حسن."[3]

لقد حرص "**فيرابند**" على الفوضوية واعتبرها الوسيلة الوحيدة المساعدة على التنوع والتعدد لأنها تتيح الفرص للجميع بالمشاركة في بناء صرح العلم وتقدمه، وعدم السماح للعقلانية مهما كان نوعها بالسيطرة على مجرياته، لذا عمد إلى نقد كل الميثودولوجيات

1- بول فيرابند، كيف ندافع على المجتمع ضد العلم، مرجع سابق، ص235.
2- فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق،ص308.
3- ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص135.

المتوفرة، متيحاً الفرص أمام التقاليد اللاعقلانية من المشاركة في العملية العلمية، وهذا ما سوف نتطرق إليه في الفصل الثالث من البحث بنوع من التفصيل.

الفصل الثالث

الفوضوية وتفتحها على اللامعقول

المبحث الأول: محدودية العلم والتعدد المعرفي

المبحث الثاني: الفوضوية الإبستمولوجية ودورها في تقدم العلم

المبحث الثالث: التفتح على اللامعقول

مدخل: بعد مجمل الانتقادات التي وجهها "**فيرابند**" للعقلانيات المعاصرة سواء تعلق الأمر بالتجريبية و التفنيدية وما بعدها، تبين قصور فعالية هذه العقلانيات في بناء العلم بسبب إقصاءها لكثير من التجارب الإنسانية بحكم أنها غير عقلانية رغم أهميتها، فتراجعت الأنساق ذات الأبعاد المنطقية والصرامة المنهجية وانفتح البحث أكثر على دور الحدس والخيال وتمكين جميع التقاليد الأخرى من المساهمة في إثراء المعرفة العلمية وتحريرها من هيمنة سلطة العقل التي حصرت الخطاب المعرفي وجعلته أسير ما ندعوه علماً، ومن بين المحاولات التي ساهمت في ظهور هذا التوجه الجديد في العلم القائم على تحرير الفكر من قيود المذهبية والعوائق الميثودولوجية، ما طرحه "**فيرابند**" في فلسفته الفوضوية* مبيناً دور اللامعقول وأهميته في تنويع مصادر المعرفة، فجميع التقاليد الإنسانية التي تمارسها المجتمعات بمختلف ميزتها ومستوياتها تلعب دور هام في تقدم المعرفة، فالدين والفن و الأسطورة، كلها تقاليد لا تقل أهمية عن العلم، لذلك فهو يدعو إلى "تفتح العقل على مضامين اللامعقول فالصدفة ومظاهر عدم الانتظام والنقائض والثغرات المنطقية التي تتميز بها الكثير من التقاليد يمكن أن تكون مصدر بحث معرفي، إن العقل المتفتح ليس كبتاً بل هو حوار مع اللامعقول."[1]

إن العقلانية الفوضوية التي يدعو لها "**فيرابند**" لا تنحصر في خطاب العلم المحدود فهي ترفض بشدة تنصيب السلطة المعرفية للعقلانية العلمية على حساب المعارف الإنسانية الأخرى بل تتعداه لتتفاعل مع وقائع الحياة المتنوعة وتتحاور مع خطابات وأراء مختلفة لا

*- الفوضوية (Anarchisme) مصطلح أساسي في فلسفة فيرابند يعبر من خلاله على التعددية بحيث لا يوجد منهج وحيد يمكن أن نقول عنه بكل يقين أنه أحسن المناهج وأفضلها، إنما هناك ما يطلق عليه "كل شيء جائز" بمعني إتاحته الفرصة لجميع التقليد بالمشاركة في بناء المعرفة العلمية وهي تختلف عن الفوضوية السياسية القائمة على تحطيم كل جوانب الحياة المتمثلة في السلطة.

[1] – ادغار موران: من أجل عقل متفتح، نقلاً عن : محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: دفاتر فلسفية، نصوص مختارة،العقلانية العلمية وانتقاداتها، دار توقبال الدار البيضاء، المغرب،ط2004؟1م، ص39.

تلتزم بقواعد المنهج و لا المنطق، فالعلم المعاصر في نظره أصبح أكثر توجهاً نحو الدراسات المعمقة التي لا تكتفي بالنظر إلى مظاهر الأشياء بل تنغمس في جواهرها الميتافيزيقية، فهل العلم يمثل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية؟ ما هي القيمة المعرفية لمختلف النشاطات الإنسانية كالدين و الفن مثلاً ؟ وهل بإمكان العلم التطرق إلى قضايا اللامعقول؟ هذه التساؤلات كلها سوف نحاول الإجابة عنها في مباحث هذا الفصل بما يقدمه "**فيرابند**" من أطروحات في الفوضوية واللامعقول.

المبحث الأول: محدودية العلم والتعدد المعرفي:

شهد القرن الواحد والعشرين تحولات عميقة على جميع المستويات العلمية والفلسفية أدت إلى إعادة النظر في قيمة العلم ومدى قدرته على التعامل مع مستجدات العصر وتحدياته خاصة مع ظهور النظرية النسبية و نظرية الكوانتم التي أدت إلى تراجع فكرة اليقين العلمي، فلم يعد العلم ذلك النموذج الذي يقتدي به، لذا أصبح من الضروري فتح المجال أمام جميع التقاليد والأنشطة من المشاركة في عملية النمو والتطور.

1 –العلم باعتباره تقليد

يرفض "**فيرابند**" الرأي القائل بتفوق العلم عن باقي التقاليد الإنسانية الأخرى، فهو لا يمثل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية ولا يمكنه أن يشكل نموذجاً للمعقولية بل هو مجرد تقليد من بين تقاليد متعددة، فالعلم هو نشاط إنساني مرتبط بالفعاليات ونشاطات غير علمية يتفاعل معها ويستفيد منها، فالعلم لا يمتلك السلطة بل هو معرض للنقد والتمحيص والخطأ أحياناً، فلابد أن يكون أكثر تفتحاً على العالم، يقول **فيرابند**":" فالواقع أن للعلم نتائج تحسب لأفضاله فقط لو أن العلم وحده هو الذي أحرز هذه النتائج بدون أية مساعدة خارجية، بيد أننا إذا ألقينا بنظرة فاحصة على تاريخ العلم لتبين لنا أن من الصعوبة بمكان أن يتوصل العلم إلى تلك النتائج."[1]

---

[1] – إيان هاكينج، فيرابند بول، كيف ندافع على المجتمع ضد العلم، مرجع سابق، ص237

يشيد "**فيرابند**" بدور المعارف الأخرى غير العلمية التي كان لها الفضل في ظهور الكثير من النظريات العلمية، فنظرية "كوبرنيك" استندت إلى أفكار "فيلولاوس" المتصوفة الفيثاغوري وضمها إلى تصوره الفلكي مخترقاً القواعد العقلانية السائدة ومثلما انتفع علم الفلك من المذهب الفيثاغوري، نجد أن الميكانيكا والبصريات تدينان كثيراً لحرفة الصناعة، ويدين الطب للقابلات والعرافين وبائعي الأدوية المتجولين."[1]

يتضح أن "**فيرابند**" يستقي أمثلته لتدعيم أفكاره من تاريخ العلم، وهو في ذلك يريد أن يبين فكرة ذات أهمية بالغة مفادها عدم الحكم المسبق على أي شكل من أشكال المعرفة دون معرفة قيمتها، فالقول بمعرفة أنها ليست علمية هو حكم قائم على التقليد السائد والفحص السطحي هكذا كتب "**فيرابند**" متحدثاً عن "لاكاتوس":"بعد أن أنهى وأتم إعادة بناء العلم الحديث أخذ يسخر نتائج هذا العلم ضد ميادين المعرفة الأخرى وكأنه أمر ثابت كون العلم الحديث أرقى من السحر، أو من العلم الأرسطي وأن نتائجه ليست وهمية، إننا لا نجد فيه على الرغم مما في هذه الأمور من إشكالات أدنى أثر لمناقشة هذا الموضوع، إن ما أسماه إعادة البناء العقلي لتغيير الحكمة العلمية الأساسية من قبيل المكتسبات النهائية وذلك دون أن يبرهن على أن هذه الحكمة أرقى من الحكمة الأساسية التي يمتلكها الساحرات والسحرة."[2]

يؤكد "**فيرابند**" على ضرورة وأهمية المعارف غير العلمية فهي تمثل إنتاج إنساني قدم الكثير من الخدمات طلية مراحل تاريخ البشرية، فلقد تمكنت المجتمعات القديمة من التعامل مع المواقف الصعبة والحرجة بكل حكمة وباستعمال طرق تلقائية لا تستند لمنهجية ولا

---

[1] – فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي وسمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر(ب ط)،200م، ص92.

[2] – ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص135.

لمنطق معين، فلقد تمكن الإنسان القديم إنسان العصر الحجري من التعامل مع الطبيعة واستغلها لصالحه مستعملاً قدراته الذكائية التي لا تقل أهمية عن ذكاء الإنسان المعاصر [1]

إن تفوق العلم عن باقي المعارف الأخرى مرده تلك المعايير التي استند إليها كالموضوعية والعقلانية والمنهج والصدق واليقين التي جعلت منه سلطاناً يتربع على عرش المعرفة، لكن وبالرجوع إلى تاريخ العلم يتبن لنا أن هذه المرتبة المرموقة التي تحصل عليها العلم لا تعود لنتائجه ولا للمنهج المتبع، فتاريخ العلم يشهد أن فكرة وجود منهج علمي ثابت ينظم عملية اكتساب المعرفة العلمية الصحيحة لا يوجد ما يبرره، فالكثير من النظريات العلمية حققت تقدماً في العلم لأنها تجاوزت وانتهكت المناهج العلمية الثابتة والمتعارف عليها.

يؤكد "**فيرابند**" أن المعرفة العلمية استفادت من الدعاية التي تلقتها من طرف مناصريها والتي سمحت لها من السيطرة على الساحة المعرفية دون منافس لذلك فهو يدعو إلى إتاحة الفرصة للمعارف الأخرى غير العلمية من دخول مجال المنافسة من خلال تسليط الضوء عليها و تمكينها من الدعاية نفسها التي أعطيت للمعرفة العلمية، حينها سوف نتفاجيء أن هذه المعارف سوف تقدم حلول مناسبة أفضل من تلك التي تقدمها المعرفة العلمية ولذا يتعين علينا أن نبحث عن ذلك[2].

إن المجتمع الإنساني يسخر بأنشطة وتقاليد متعددة ولا يمكن اختصار نشاطه فيما يقوم به العلماء فقط، فدور العلم داخل المجتمع يمثل جزء من النسق العام للنسيج الاجتماعي المختلف والقول بتميز العلم عن باقي هذه الأنشطة بسب الحجج القطعية التي جعلته ينال تأييداً عن باقي المعارف الأخرى هو مجرد وهم، بل ليس للعلم في نظر "**فيرابند**" أي سمة

[1] - Feyerabend Paul ; philosophie de la nature ; tra de l'allemand par Matthieu Dumont et Arthur Lochmann ; édition du seuil ; paris ; p69.
« Admettons donc qu'à l'âge de pierre l'être humain n'était pas diffèrent de celui que nous sommes, il était d'une curiosité et d'une intelligence comparables aux nôtres »

[2] – فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص121.

تجعله أسمى من السحر والشعوذة أو التنجيم، فالعلم ليس إلا تقليد من بين التقاليد الأخرى الموجودة في المجتمع.

يوضح "**فيرابند**" من خلال هذا الطرح المتميز أن الالتزام بمعايير عقلية مسبقة على المستوى النظري لا توصلنا للحقيقة وإنما كل شيء يتحدد بالممارسة التي قد تكشف عن أسلوب بحث مغاير للأساليب المتعارف عليه داخل الأنساق العلمية النظرية، لذا فهو يدعو للتفتح على مختلف الممارسات الإنسانية بما فيها تلك التي استعملت من طرف المجتمعات البدائية، إذ يقول: "إن فكرة المنهج الثابت أو النظرية العقلانية الثابتة تقوم على رؤية ساذجة جداً للإنسان وما يحيط به في المجتمع، ولهؤلاء الذين ينظرون إلى المادة الغنية التي يقدمها التاريخ، والذين لا ينوون إصابتها بالفقر لإرضاء غرائزهم الأقل، وبحثهم عن الأمان الثقافي الذهني في شكل الوضوح والدقة والموضوعية والحقيقة سوف يتضح أن هناك مبدأً واحداً يمكن الدفاع عنه تحت كل الظروف وفي كل مراحل التطور البشري وهو مبدأ أي شيء يصلح."[1]

يلخص هذا المبدأ فلسفة **فيرابند** الفوضوية القائمة على رفض التوجه السلطوي في العلم مؤكداً على ضرورة الاهتمام بالأنشطة التي يقوم بها الأفراد داخل المجتمع، فلا يمكن تقديس العلم وجعله ديناً يحكم على من يخالف أحكامه بالكفر و الزندقة بل هو نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، وإذا كان العلم الذي ساد في القرنين السابع والثامن عشر قد اعتبر أداة للتنوير والتحرر، فمن غير الملزم أن يظل دائماً أداة للتحرر والتنوير، فالتمييز الذي أقامته الإبستمولوجية السابقة على النتائج الباهرة للعلم لم تنجح في تأسيس معرفة علمية بالطريقة اللازمة، يؤكد "**فيرابند**"قائلاً: "إن أمثلة كوبربيكوس، النظرية الذرية، الفودو*والطب الصيني توضح أنه حتى أكثر النظريات تقدما وأماناً ليست آمنة

---

[1] – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق،ص39–40.

*– منهج قائم على التوفيق بين مجموعة من العبادات

ويمكن تعديلها أو استبعادها بمساعدة الآراء التي وضعها غرور الجهل بالفعل في سلة مهملات التاريخ، بهذه الطريقة قد تصبح معرفة اليوم حكاية خيالية غدا، وقد تتحول أكثر الأساطير إثارة للضحك إلى أقوي جزء من العلم."[1]

يؤكد "**فيرابند**" على عدم وجود حجة قاطعة نهائية توضح أفضلية العلم عن باقي المعارف الأخرى، "لأن العلم لا يقبل المقايسة مع هذه المعارف بسبب المكانة التي اكتسبها بفضل الدعاية وإذا كان العلم يقبل أن يقارن مع أشكال المعرفة الأخرى، فهذا يدفعنا للبحث عن طبيعة العلم وأهدافه ومناهجه والبحث كذلك عن طبيعة وأحداث المناهج الأخرى، ولكي يتحقق ذلك نلجأ إلى الدراسات التاريخية للبحث في الآثار والوثائق والرسائل والمصنفات والتقارير."[2]

يتبين لنا من خلال هذا القول أن "**فيرابند**" يشيد بأهمية الدراسات التاريخية باعتبارها شاهد على الممارسات العلمية التي لم تتقيد بعقلانية معينة يعتقد أصحابها أنها العلم، فهذا التاريخ يؤكد على أن الكثير من المعارف أثبتت جدارتها وأصبحت تمثل بديلاً للمعرفة العلمية الرسمية، فلقد عجز الطب عن حل الكثير من الأمراض التي أصبحت تهدد البشرية في حين تمكن الطب البديل من إيجاد حلول لها يقول "**فيرابند**":"يكون لدى بعض أشكال الطب القبلي البدائي وسائل أفضل لتشخيص علاج المرض من الطب العلمي المعاصر."[3]

إن هذه البدائل التي يقدمها ليس معناه رفضه للعلم بل فتح المجال أمام التعدد لكي يخرج البحث والباحثين من ضيق المنهج الرسمي الذي يدعي العلم والعقلانية، إلى سعة التعددية المنهجية التي يعتبرها "**فيرابند**" الوسيلة الوحيدة لتقدم العلم لأنها ترفض بشدة تنصيب السلطة المعرفية لعقلانية محددة أو منهج معين، فالتقدم العلمي لا يتحقق إلا من خلال إطلاق الطاقات الإبداعية وخلق الابتكار على جميع المستويات والأنشطة الاجتماعية

---

[1] – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق،ص75–76.

[2] – ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص141.

[3] – فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص16.

سواء تعلق الأمر بالمعتقدات الدينية أو حتى الفنية منها وليس التشديد على إتباع منهج واحد صارم أو إقتفاء خطى نظام معرفي محدد دون سواه يدعي أصحابه اليقين المطلق، "إن العلم هو نشاط حضاري كباقي النشاطات الأخرى ولا يمكن اعتباره حكماً على باقي النشاطات الأخرى وإنما هو في حد ذاته تقليد."[1]

يريد "**فيرابند**" أن يغير النظرة المقدسة للعلم التي أعطته سلطة متعالية عن باقي الأنشطة الإنسانية وجعلت منه المعيار الوحيد لتحديد مسار المعرفة والحكم عليها، بينما الأصل في تعدد معارفنا وتنوعها، فما هي النتائج الإيجابية المستخلصة من فكرة التعدد؟

2-التعدد المعرفي ودوره في بناء العلم:

لم يعد العلم في نظر "**فيرابند**" قادراً على تفسير جميع الظواهر وهذا راجع إلى تلك النسقية الصارمة التي تتخذ من المنهج والمنطق وسيلة للتعامل مع الظواهر، بل إن فهم الظواهر فهماً واضحاً يستدعي الاستعانة ببعض المناهج غير المعروفة في الوسط العلمي، والحقيقة أن العلماء المعاصرين في شتى التخصصات قد انتبهوا لنجاعة التعددية في فك ألغاز الطبيعة، ولقد أكد عالم الاجتماع المعاصر"كلوزميترز" على ضرورة التعدد المنهجي حيث تفاعل مجموعة من الأنظمة العلمية في دراسة ظاهرة ما أو معالجة إشكال معين، كما تبنت عالمة الثقافة البريطانية "سادي بلانت" هذه الطريقة وطورت فكره مبرزة أهمية التعددية في الجمع بين المنظومات المختلفة سواء اقتصادية، اجتماعية، عضوية، بيئية التي تتولى تنظيماً متداخلاً تلقائياً في دراسة الظواهر[2]

إن التقدم العلمي يفرض على العلماء نوع من التواضع في التعامل مع المعارف التي توصف باللاعلمية لأنها قد تخفي حقائق عجز العلم الرسمي عن الكشف عنها، فالنظرة التسلطية التي تفرضها العقلانية العلمية تؤدي إلى إهمال أرقى صيغ العقل حينما يبحث عن

---

1 – فيرابند بول، العلم في مجتمع الحر، مصدر سابق، ص43.

2 – سامي خشبة، مصطلحات فكرية، الجزء الثاني مصطلح تضافر تكامل، الهيئة المصرية العامة، للكتاب(ب ط)(ب ت)، ص42.

جوهر الوجدان المعرفي المتعددة، فيمزج الثقافي مع العلمي وننتقل من أحادية النظرة إلى حرية الأفكار وتعددها، وهذا الأمر سوف يغير من طبيعة الإدراك للمواضيع والظواهر، فيساعدنا على التفتح أكثر على نظريات ومعارف أخرى غير معروفة في أوساط العلماء، فنرى النظريات لا النظرية والمنهجيات لا المنهج الواحد.

لا يمكن عزل المعرفة الإنسانية في شكل فروض وإنما يجب النظر إليها بإتباع برامج متعددة تجعل مفهوم الحقيقة يتغير ويتحول من الثابت المطلق إلى النسبي المتغير، فتعدد صور الحقيقة وتداخلها تقدم لنا صورة شاملة عن هذا العلم ومن منافذ متعددة، فالعلم صار اليوم ابن الواقع المتعدد الذي تتداخل فيه جميع مكونات المجتمع النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية معاً.

لم يعد العلم العقلاني القائم على المنطق والمنهج هو الواحد القادر على إعطاء تفسير شامل للظواهر بل فتح مجال أما العديد من التقاليد المحسوبة على اللامعقول في إعطاء رأيها وتقديم حلول لقضايا أصبحت مستعصية عن الحل، يقول "**فيرابند**":"إن العقلانية لا يمكنها أن تكون عامة، واللاعقلانية لا يمكن إقصائها"[1]

أمام عجز العلم في تقديم تفسيرات مناسبة للكثير من الظواهر قد تؤدي التفسيرات غير العلمية والمنسوبة لعالم اللامعقول من تقديم نتائج مرغوبة لم تتحقق في مجال المعقولات، يقول "**فيرابند**":"فنحن نعلم أن الطب العشيري البدائي والطب الشعبي، والأشكال التقليدية للطب في الصين التي لا تزال قريبة الصلة برؤية الحس المشترك والإنسان والطبيعة، لديها في الغالب وسائل أفضل لتشخيص والعلاج من الطب العلمي كما أننا نعلم أيضاً أن

1- Paul Feyerabend, contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance,1975, trad.b.Jurdant et A.schlumberger, Seuil, points Sciences, 1988, p, 196.
« Le rationnel ne peut pas être universel, et l'irrationnel ne peut pas être exclu »

الأشكال البدائية للحياة، قد ساهمت في حل مشكلات الوجود الإنساني التي تعد بعيدة المنال بالنسبة للمعالجة العقلانية."[1]

لا يمكن اعتبار الممارسات العقلية حكماً على كل التقاليد التي يمارسها الإنسان في حياته لأن متطلبات هده الحياة تستدعي التعامل مع جميع جوانبها التي تفلت من قبضة الحكم العقلي "فلا يمكن السماح للعقل بأن يكون موضوعياً شاملاً ويجب التغاضي عنه أحياناً أو حتى حذفه لصالح الكيانات الأخرى، وليست هناك قاعدة واحدة تظل صالحة تحت كل الظروف أو أي كيان يتم اللجوء إليه دائماً."[2] أو كما يقول الدكتور "يحي الرخاوي":" ليس مجرد النظر العقلي بل صار حقل العلم هو فعل إنساني كلي يتميز أساسا بفعلية نوع من التفكير يتصف بالتسلسل المنظم من الملاحظة إلى الفرض إلى التحقق إلى التكذيب، إلى فرض التوسع إلى إعادة صياغة الفرض، وهكذا باستمرار، وكثيراً ما يسمى فعل العلم باسم "التفكير العلمي" وقد قصدت من استعمال كلمة فعل هنا قصداً حتى أنفي أنها علمية تنظيرية معقلنة فقط."[3]

يرى "**فيرابند**" أن وفرة النظريات ضروري لتقدم العلم حتى ولو كانت هذه النظريات غير متسقة وغير منطقية، فالنظرية عند "**فيرابند**" لا تحمل معالم العلمية دائماً بل هي عامة تشمل كل معالم الحياة،إذ يقول :" عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية والمذاهب الدينية كما أرى أن تعبير وجهة نظر ينطبق على الأقل على بعض جوانب كل ماهو موجود."[4]

من خلال هذا المفهوم الذي وضعه "**فيرابند**" للنظرية رفض التمييز الذي أقامه الإبستمولوجين بين العلم واللاعلم واعتبر هذا التميز مزيف ولا يبني العلم، إذ يقول: "أن العلم

---

[1] – فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص79.

[2] – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص270.

[3] – يحي الرخاوي، مراجعات في لغة العلم، دار المعارف، (ب ط)،1997م، ص13.

[4]– فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد منشأة المعارف،الإسكندرية، مقدمة المترجم،(ب ط) (ب ت) ص22.

لا يستند إلى منهج معين بذاته، هذه القناعة أوصلتنا إلى نتيجة معينة هو أن التمييز بين العلم واللاعلم ليس مزيف فقط بل يشكل عائق أمام تقدم المعرفة، فإذا أردنا أن نفهم الطبيعة وأن نتحكم في بيئتنا ومحيطنا الفيزيائي ينبغي الاستناد إلى كل الأفكار وكل المناهج، وليس إلى نوع معين فقط."[1]

من هنا بدأت تتراجع الأطروحات القائلة بفكرة النظرية الموضوعية الصارمة، وانفتح العلم على المحيط العام وبدأ ينمو داخل بنية تعترف بالتعدد وبتداخل الفيزيقي بالميتافيزيقي، والمعقول مع اللامعقول، وصار العلم يعترف ضمن حدود التجريبية المادية الخالصة بمبادئ الإبهام والالتباس إلى جانب التعدد والتداخل إزاء التنوع العلائقي الهائل في بنية المادة نفسها، فاتجه البحث في خصائص غير مادية تنتمي إلى عالم النفس والروح، تتفاعل مع العالم المادي تؤثر فيه وتحدد مساره، فالقوانين الفيزيائية ذاتها مطروحة الآن في صورتها الرياضية سواء الفيزياء النيوتونية أو نظرية النسبية أو ميكانيكا الكم تقبل جميعاً التطبيق على باقي مستويات الوجود المادي والنفسي وحتى الاجتماعي، "فتصوراتنا عن القواعد والقوانين التي تحكم العقل الإنساني في الاستقبال والتحليل واتخاذ القرار، والتي هي غائية في طبيعتها تنطبق أيضاً ولكن بصورة كيفية على المواد الحية وبصورة كمية على المواد غير الحية وهذا ينتج في النهاية مجموعة واحدة من القوانين الطبيعية تنطبق على كافة مستويات الطبيعة ولكنها ليست مماثلة عند التطبيق، وإنما يكون تطبيقها مرتبطا بمستوى الموجود على سلم التطور... أي أن تصورنا على قوانين الطبيعة هو أن قوانين الطبيعة الموحدة تقبل التطبيق على الجانب العقلي أو النفسي للوجود وكذلك هي ذاتها تقبل التطبيق

---

[1] -Feyerabend Paul ;contre la méthode Op cit ;p346.

« la science n'a pas de méthode particulière, nous arrivons à la conclusion que séparer science de la non science est non seulement artificiel, mais aussi nuisible à l'avancement de la connaissance. Si nous voulons comprendre la nature. Si nous voulons maitriser notre environnement physique, nous devons nous servir de toutes les méthodes et non pas seulement d'une sélection de quelques-unes d'entre elles »

على الجانب المادي أو الفيزيائي للوجود، فهي قوانين لها شقين تطبيقين في النفس الوقت عقلي- مادي أو نفسي – فيزيائي أو كما تسمي في الأدبيات "القوانين السيكوفيزيائية"(Psycho-physical laws)."[1]

أصبح العلم الآن أكثر تفتحاً عن مجالات الحياة المتعددة بما فيه جوانب اللامعقول والتي لا يمكن إخضاعها لقواعد المنطق، يقول "فليب فرانك": " إن فهم مبادئ العلم سواء الفيزياء والبيولوجيا لا يتطلب فحسب فهماً للأدلة المنطقية بل وكذلك فهماً للقوانين النفسية والاجتماعية، وإن شئنا الإيجاز نحن في حاجة إلى إكمال علم الطبيعة بعلم الإنسان."[2]

يصر "**فيرابند**" على عدم التمسك بالطرق الصارمة ويدعو إلى إيجاد بدائل متنوعة ولو كانت تسير في اتجاه معاكس للمناهج العلمية، لأن ذلك يفيد العلم وينوع من مصادره فالبدائل توسع من مجال البحث العلمي وتجعله يقتحم الكثير من المواضيع التي كان يعتقد أنها خارج الدراسة العلمية،" فباستخدام البدائل فقط عندما تقدم التفنيدات بالفعل أدلة سحب الثقة من النظرية المتشددة عندما تضع العربة أمام الحصان، كذلك بعض أهم الخصائص العامة لأي نظرية يتم الوصول إليها بالتضاد والتقابل وليس بالتحليل والعالم الذي يريد زيادة المحتوى الإمبريقي للآراء التي يقدمها والذي يريد فهمها بشكل واضح بقدر الإمكان، يجب أن يقدم لذلك أراء أخرى: يجب أن يطبق **منهج التعددية**، يجب أن يقارن الأفكار مع أفكار أخرى بدلا من مقارنتها مع الخبرات والتجارب."[3] فالتعددية المنهجية هي السبيل الوحيد والأمثل في نظر "**فيرابند**" لتحقيق التقدم العلمي والمعرفي وتفتح مجال الخيال والإبداع وتضع الباحث أمام خيارات متعددة، فالعقل الفعال المتفتح يناقش ويعالج قضايا متشعبة وبإتباع أساليب بحث متنوعة تساهم في تقدم العلم.

---

[1] – انظر بحث سمير أبو زيد "من الحتمية إلى القدرة على الاختيار نحو صياغة للنموذج اللاميكانيكي الجديد للطبيعة. ص24.

[2] – صلاح قنصوه، فلسفة العلم، دار قباء للطباعة والنشر للتوزيع، القاهرة، (ب ط) 1998م، ص169.

[3] – فيرابند بول، ضد المنهج ،مصدر سابق، ص44

تسمح التعددية بطرح بدائل ووجهات نظر مختلفة تعمل على مقارنة الأفكار ببعضها البعض حتى تلك التي تم رفضها من قبل، مما يتيح التنافس بينها لصالح العلم والمعرفة، يصرح "**فيرابند**":"إن العقلانية التي انشدها ليس في الوصول إلى نظرية مثالية إنما بالأحرى زيادة محيط البدائل واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت مند زمن بعيد وأصبحت في طي النسيان لأنها ربما يكون بها عنصر يوتوبي يفيد معارفنا."[1]

إن الغرض من وراء هذا التحليل هو فتح الطريق أمام المحاولات المتعددة حتى تلك التي تخالف المنهجية العلمية المتعارف عليها، ومن بين هذه المحاولات ما يسميه بالاستقراء العكسي أو المعاكس مبيناً دوره في تطوير النظريات العلمية.

3- تطوير العلم عن طريق الاستقراء المعاكس:

يرفض "**فيرابند**" القول بالمنهج الواحد الصحيح الملائم لجميع الحالات والظروف، فالمناهج المقترحة من طرف الاستقرائيين أو التكذيبيين لم توفي بغرض العلم ولم تمكن العلماء من الوصول إلى نتائج علمية واضحة بسبب ضبابية خطوات المنهج وإرشاداته التي لا تتماشى مع الشواهد الواقعية التي يقدمها لنا تاريخ العلم، فلا يمكن حصر العلم في قواعد ميتودولوجية ضيقة، فمضامين العلم المعقدة والمتشابكة لا تحل و لا تفكك في إطار مخطط نسقي محدود بل الأمر يستدعي فتح المجال أمام كل الطرق حتى تلك التي لا توصف بالعلمية لأجل ذلك أشارة "**فيرابند**" "**بالاستقراء العكسي**" أو "**مضاد الاستقراء**". بحيث يستدعي البحث اختبار المبدأ بالتفصيل الملموس يعني أننا نتعقب القواعد المخالفة التي تتعارض مع بعض القواعد المعتادة للمشروع العلمي، فالخبرة الحسية والنتائج التجريبية هي معيار الذي نقيس به مدى نجاح نظرياتنا، فإذا وقع التوافق بين الخبرة والنظرية كانت النظرية ناجحة وإذا وقع اختلاف فشلت النظرية.

[1] – نقلاً عن عادل عوض، بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص99.

يرى "**فيرابند**" بأن هذه القاعدة لا يوجد ما يبررها بحكم أن النظرية محمل حمولة اجتماعية أيديولوجية تنعكس على أحكامنا اتجاه الخبرة من هنا يقترح مضاد الاستقراء "بحيث يتم التوسع في تقديم فروض غير متسقة مع النظريات المؤكدة والصحيحة والأكثر ثباتاً."[1]

هذه الفروض غير المتسقة تجد نفسها مجبر على الاتفاق مع النظريات والوقائع بحكم ضرورة التناغم والاتساق المنطقي بينما يسير الاستقراء المعاكس في اتجاه مغاير االإستقراء التقليدي، فتتعارض النظرية مع الخبرة وشرط الاتساق ذلك أنه لا يمكن معرفة العالم الطبيعي معرفة وافية ومطلقة ولا يوجد أي نظرية تتمتع بالتناسق بل كل النظريات مخترقة من طرف التناقض وعدم التماسك، فالاستقراء المعاكس يمكننا من إعادة النظر في البناء العلمي القائم، وذلك من خلال إتاحة الفرصة لكل الفروض المهمشة وغير المتسقة مع القواعد التقليدية من المشاركة في بناء العلم، إذ بإمكانه أن يقترح صيغ وجودية جديدة للوقائع بحيث يتم تطوير الأفكار سواء تلك التي لا تتسق مع النظريات المقبولة التي تؤيدها الخبرة أو مع الملاحظات والنتائج التجريبية القائمة، وهنا تكمن العملية الإبداعية للإستقراء المعاكس.

يستدل "**فيرابند**" على ذلك وكعادته من تاريخ العلم، "كان وقع الثورة التي دشنها "كوبرنيك" كبيراً على الأذهان لأنه سار ضد الأفكار التي اعتبرت من صميم الحقائق منذ زمن بعيد ولا يمكن تفسير ثورة من هذا الحجم إلا بواسطة مفهوم "مضاد الاستقراء" لأنه يترجم عملية الإبداع التي تتحدى كل الوقائع والأفكار السائدة، ففي الوقت الذي قدم "كوبرنيك" نظريته كان التصور الفلكي البطلمي في صعوبات وكان تصور كوبرنيك في صعوبات أكبر، غير أن هذا الأخير فرض نفسه بحكم ما أتى به من أفكار مغايرة جديدة."[2]

يبدو أن "الاستقراء المعاكس" الذي ناد به "**فيرابند**" ينبع من فلسفته الفوضوية القائمة على الحرية من منطلق شعاره "كل شيء مقبول" لأنه يقدم الفرص لكل الفرضيات حتى تلك

---

[1] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص43.

[2] – البعزاتي بناصر،الاستدلال والبناء، بحث في الخصائص العقلية العلمية، دار الآمال للنشر والتوزيع، الرباط، ط 1، 1999م، ص408.

التي لا تتماشى مع ماهو معهود في الدراسات العلمية، فالكثير من الإنجازات العلمية ظهرت بسبب "الاستقراء المعاكس" فمثلاً نجد أن التصور البطليمي كان يقول بدوران الشمس حول الأرض، فأخذ "كوبرنيك" باستقراء معاكس يؤكد على حركة الأرض حول الشمس مستنداً بذلك إلى فهم رياضي ومن دون أن يكون له سند تجريبي، يقول "**فيرابند**":"يؤكد قاليلي الوقائع لا تدحض بطليموس فقط بل تدحض كوبرنيك كذلك، ويشيد "بأرسطرخس" "وكوبرنيك" لكونهما لم يستسلما في وجه تلك الصعوبات الكبرى، إذ يشيد بهما لأنهما قاما بعملهما بطريقة ضد–استقرائية."[1]

يريد "**فيرابند**" من وراء "الاستقراء المعاكس" تبيان حدود المنهج إذ لا يمكن حصر كل النشاطات التي يقوم بها العلماء في قوالب جاهزة، فالكثير من النظريات يتم تطويرها من خلال التنافس خاصة تلك التي تم الحكم عليها بالفشل من خلال معايير مجهزة مسبقاً. إذ يقول:"يجب أن نخترع نظاما جديداً للمفاهيم يتصادم مع النتائج الأكثر تأكيداً ويخلط بين المبادئ النظرية الأكثر قبولاً ويقدم إدراك لا يمكن أن يمثل جزءاً من عالم الإدراك الموجود، هذه الخطوة بدورها استقراء عكسي، ومن ثم فإن الاستقراء العكسي معقول دائما وأمامه فرصة للنجاح."[2]

إن شرط الاتساق الذي يتكلم عليه الاستقرائيون متخذين من الخبرة الحسية أساس للحكم على صحة النظرية، لا يوجد ما يبرره في نظر"**فيرابند**" بحكم أن الخبرة لا تحدد حقيقة الواقع كما هو بل تتحدد هذه الخبرة من خلال النظرية المحملة بالثقافة الاجتماعية والإيديولوجية المسيطرة، لذلك لا يمكن الإقرار بأحقية الاستقراء في الممارسة العلمية. ولا وجود لوقائع موضوعية ولا لشواهد مخبرة عن ما يدور في الواقع، فهي لا تعكس الواقع الموضوعي إنما هي أراء تنطوي على عناصر ذاتية مصدرها الانطباعات الحسية التي مهما كانت بساطتها

---

1 – المرجع نفسه،ص 408–409.

2 – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص47.

تبقى مجرد مكونات تعبر عن رد فعل فسيولوجي للعضو المدرك، ومن ثم ليس له أدنى علاقة بالموضوعية هذا العنصر الذاتي يتداخل ويندمج مع بقية العوامل، وعليه ينبغي فصله من الخارج باللجوء إلى إجراءات مخالفة للإستقراء."[1] من هنا يؤكد "**فيرابند**" أنه لا يمكن الاستناد إلى النتائج التجريبية والملاحظات والأخذ بها كمعايير صارمة دون تمحيصها، فالاستقراء المعاكس يمثل البديل الإبستمولوجي لكل المحاولات التي تدعي العلم وتتخذ من المنهجيات الصارمة طريق للوصول إلى الحقيقة العلمية مبيناً طريقاً مخالفًا يتمثل في الفوضوية التي يعتبرها الداء للمرض الذي تعاني منه الإبستمولوجيا اليوم.

إن التفكير الإنساني يفترض أن يكون حراً دون قيد أو التزام لذلك فالفوضوية ضرورية من أجل التقدم، فلا يمكن دراسة العلم دون التفتح على دراسة الثقافة العامة التي مهدت لنشأت الكثير من المعارف العلمية، لذلك أشارة "**فيرابند**" لأسلوب النظرة الفوضوية بوصفها بديلاً للمنهج الواحد، وهذا ما سوف نتطرق إليه في المبحث الثاني

المبحث الثاني: الفوضوية الإبستمولوجية ودورها في تقدم العلم:

الفوضوية(Anarchisme) مصطلح أساسي وجوهري في فلسفة "**فيرابند**" استخدمه كبديل يواجه به أصحاب النزعة العقلانية الدين يشيدون بدور المنهج الواحد في الممارسة العلمية، فالفوضوية نجمت عن رفض كل ما هو صارم كالقول بالعقل والموضوعية والمنهج كما هو متداول في العرف الإبستمولوجي، وبالرغم من أن هذا المصطلح يستخدم في أدبيات الفلسفة السياسية إلا أن "فيرابند" حوله من مجال السياسي إلى المجال الأبستيمي

فما معنى الفوضوية؟ وهل تأخذ نفس المعنى المستخدم في المجال السياسي؟ وما المقصود بالفوضوية الإبستمولوجية عند فيرابند؟

1-النزعة الفوضوية لدى فيرابند:

[1] – عادل عوض، بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز ، مرجع سابق،.ص49.

بداية سوف نوضح معنى الفوضوية حسب بعض المعاجم، فهي مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية(avapxia)[1]، التي تعنى بدون حاكم أو ملك أو رئيس وهذا المصطلح ترجمة للاتينية بكلمة "أناركيا" (Anarchia) وهي مكونة من شقين(an) تعني الضد أو النفي، والثاني (Archia) يعني السلطة، فالترجمة الحرفية للفظة هي: اللاسلطة أو اللانظام أو بمعنى اللاحكومة.[2]

الفوضوية حسب المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية مذهب يناهض قيام الحكومات ويدعو إلى إنشاء مؤسسات اجتماعية واقتصادية بمحض اختيار الناس وإرادتهم الحرة.[3] والفوضوية كذلك نظرية سياسية تقول بأن المجتمع يرتكز على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات، وتبنى فيها العلاقات على الأسس الفردية الحرة.[4]

ذكر تعريف للفوضوية في قاموس الفلسفة لـ "جوليان ديدي"(Julia didier) على أنها وضعية شعب بدون حاكم وفيه إشارة إلى تعريف أفلاطون، فالفوضى هي حالة محدودة من الديمقراطية حين يريد كل فرد أن يفرض إرادته على السلطة وتريد السلطة من جهتها أن تحقق غرض الجميع حينها تحل الفوضى.[5]

في المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا الفوضى(Anarchie) هي الخلل الذي ينشأ عن فقدان السلطة الموجهة أو عن تقصيرها في القيام بوظائفها أو عن تعارض الميول والرغبات أو نقص التنظيم وهي ضد النظام والترتيب.[6]

---

[1] – نور علي، قاموس عربي يوناني، مكتبة لبنان، بيروت، 1990م، ص276.

[2] – بيلي فرانك، معجم بلاكويل للعلوم السياسية، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث، ط1، 2004م، ص25.

[3] – الخفي عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000م، ص224.

[4] – موسي خليل توفيق، معجم معاصر، دار الإرشاد للنشر، ط1، 2001م، ص435.

[5] –Julia Didier. Dictionnaire de la philosophie. Larousse. Librairie Larousse paris 1964.p18.

[6]– جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، الجزء الثاني من ط إلى ي بيروت، لبنان، (بـ ط)1979مص168.

مصطلح الفوضوية في المعجم الفلسفي لمراد وهبة يعرف على أنه مذهب ينادي بإلغاء الرقابة السياسية داخل المجتمع مقرراً أن الدولة أكبر أعداء الفرد وأن إلغائها قضاء على الآفات والشرور الإنسانية، فهي إجمالاً تعني تدميراً للسلطة ومؤسسات الدولة بدعوى أنها ضد الإنسانية.[1]

أما في الموسوعة الفلسفية لـ "لالاند" فالفوضوية مذهب سياسي تكمن سمته المشتركة في رفض كل نظام دولة يفرض نفسه على الأفراد من فوق.[2] في حين يعرف دليل أكسفورد للفلسفة الفوضوية بمعنيين المعنى الضيق وهي نظرية في المجتمع الذي لا تحكمه دولة أما المعنى الواسع الفوضوية نظرية في المجتمع لا تخضع إلى إكراه من أية سلطة في أي مجال- الحكومة، العمل، الصناعة، التجارة،الدين، التربية، الأسرة.[3]

من خلال هذه التعاريف يتبين أن مصطلح الفوضوية مرتبط أكثر بالمجال السياسي فهي إيديولوجية اجتماعية سياسية تمجد الفردانية والإرادية وتجعل من إرادة الإنسان وحريته في التفكير والإبداع أساس كل تقدم، فهذه الإرادة هي التي تحرك عجلة التاريخ من خلال حرية الاختيار في اتخاذ القرار وعلى الرغم من الاختلافات القائمة بين أشياع الفوضوية لأنهم ينزعون بوجه عام إلى التأكيد على الحرية بوصفها قيمة أساسية، وهجومهم على الدولة كونها تتنافى مع الحرية، فمعظم أدبيات الفوضوية تعتبر الدولة أداة للقمع ووفقاً لذلك يعتبر الفوضويون كل أشكال الاستبداد القائمة على السلطوية وتحقيق المصالح الخاصة غير مبررة وبالتالي يجب رفضها.

---

[1]- وهبة مراد، معجم المصطلحات الفلسفية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط2، 1971م، ص166.

[2]-لالاند أندريه الموسوعة الفلسفية، المجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل، تعهد وأشرف عليه حصرا، أحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت، باريس ط1، 1996م، ص68.

5- دليل أكسفورد للفلسفة، تحرير تدهوندرتش، تر،نجيب ألحصادي،الجزء الثاني، من ظ إلي ي، المكتبة الوطنية للبحث والتطوير ليبيا،(بط) (بـ ت) ص 692.

لقد استلهمت الفوضوية مفاهيمها من أفكار الكثير من الفلاسفة أمثال "السفسطائيين" و"شوبنهاور" و"نيتشه" الذين غلبوا الإرادة عن العقل وجعلوا منها الجوهر الحقيقي الباطني للشخصية فهي التي تحرك الحياة النفسية والسلوك كما تحدد الوجود كله.

بعد تحديد معنى الفوضوية حسب ما طرح في الكثير من المعاجم في مجال الفكر السياسي فإن السؤال المطروح هل معنى الفوضوية في المجال السياسي تؤدي المعنى نفسه في المجال الأبستيمي؟.

يجب الإشارة أولاً إلى الفرق الموجود بين مصطلح الإبستمولوجيا ومصطلح الفوضوية فحسب "لالاند" "الإبستمولوجية هي إعادة بناء عقلاني للعلم من خلال الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها الرامية إلى تحديد أصلها المنطقي ومداها الموضوعي."[1]

يتضح من هذا التعريف أن الإبستمولوجية تسير في اتجاه معاكس لمعنى الفوضوية لأنها تمثل أساس البناء المنظم للعلم والمعرفة باتخاذ النقد وسيلة، لأن الغرض منها هو تحديد مدى مشروعية البحث العلمي ومصداقيته في حين نجد أن الفوضوية تحيل إلى الهدم من خلال الرفض وعدم القبول واللاّانقياد واللاتحديد واللانظام، وبالرغم من هذا الاختلاف نجد أن "**فيرابند**" جمع بينهما من خلال مصطلح الفوضوية الإبستمولوجية، فحول مصطلح الفوضوية من مجاله السياسي إلى مجال الإبستمولوجيا وإعطائه معنى مخالف لما هو متداول في المجال السياسي، فالفوضوية السياسية تسعى إلى إلغاء نمط حياة معين وتبديله بأخر فهي ذات طابع دوغمائي لا تصلح أن تكون قاعدة للمجتمع، أما الفوضوية الإبستمولوجية فهي تدافع عن أية فكرة مهما بدت مبتذلة وعن أي توجه مهما كان نوعه أو مصدره، فهي تفتح المجال أمام كل المشاريع للمشاركة في البناء العلمي، وتدافع عن كل القضايا حتى تلك التي تبدو غريبة ومثيرة، فكل ماهو إنساني لا بد أن يحظى بالاحترام

1- موسوعة لالاند الفلسفية،المجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل تعهد وأشرف عليه حصرا، أحمد عويدات، منشورات أحمد عويدات باريس، ط1 .1996، ص357

والتقدير، يقول "**فيرابند**": "العلم من الجهود الفوضوية الأساسية وتعتبر الفوضوية النظرية أكثر إنسانية وأكثر قدرة على تشجيع التقدم مقارنة بالبدائل ذات القوانين والنظم."[1]

يتضح أن فوضوية "**فيرابند**" تتيح الفرصة للجميع بإدلاء بآرائهم ومقترحاتهم في بناء العلم دون إقصاء ولا تهميش وهذا ما يفيد العلم ويساهم في تقدمه، إذ يقول:" أما نظريتي فتتمثل في أن الفوضوية تساعد على تحقيق التقدم بأي معني من المعاني التي يختارها الفرد، وحتى العلم ذو القوانين والنظم سوف ينجح فقط إذا سمح بحدوث خطوات فوضوية من أن لأخر"[2].

يقصد "**فيرابند**" بالخطوات الفوضوية كل المحاولات التي يمارسها الأفراد فمن خلال تجاربهم الحياتية المتنوعة وعبرة أزمنة مختلفة، وهذا التراكم يضم التقاليد الاجتماعية من دين وفن وأسطورة وكل معالم الحياة البشرية من اتجاهات وتصورات وأفكار، ولذلك اختار شعار 'كل شيء جائز" للتعبير عن قبوله لكل المحاولات والخبرات، فالفوضوية تساهم في إحراز التقدم من خلال احتوائها لجميع العوامل المتعددة والمتنوعة للعلم، مهما كان المعنى الذي تحمله وحتى العلم القائم على النظام والقانون لا يحقق نجاحاً، إلا إذا فتح المجال أمام جميع الحركات الفوضوية من المساهمة في تطور العلم، والقول بوجود عقلانية متميزة تتبع منهج معين لا أساس لها من الصحة بل تبدو هذه الفكرة ساذجة بالنظر إلى تاريخ العلم الزاخر بالأحداث و التجارب المخالفة لما يدعيه أصحاب العقلانية العلمية، يقول "**فيرابند**":" من الواضح أن التبادل المثمر بين العلم والرؤى العالمية(غير العلمية) سوف يكون في احتياج أكبر للفوضوية مقارنة بالعلم نفسه، بذلك ليست الفوضوية ممكنة فقط بل هي ضرورية للتقدم الداخلي للعلم ولتطوير ثقافتنا ككل."[3]

---

[1]– فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص21.

[2]– المصدر نفسه، ص39.

[3]–فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص270.

كما يؤكد على أن الفوضوية التي يشيدها ذات طبيعة إنسانية قائمة على حرية الفرد في التفكير كما يبدو له معقولاً وليس كما يفرض عليه، وبهذه الطريقة "يدافع "**فيرابند**" عن الموقف الإنسي الذي يفترض أن الكائنات البشرية حرة، ومتمتعة بالحرية بالمعنى الذي نجده عند "جون ستيوارت مل."[1]

إن الفوضوية تنبذ كل أساليب القمع من خلال تجاوز كل العراقيل والعوائق التي تقف أمام حرية الأفراد وسعادتهم وضد كل من يدعي أنه يمتلك الحقيقة بالاستناد إلى عقلانية معينة توصف بالعلمية، فكل وجهات النظر مقبولة وهي تعبر عن الواقع بطريقتها الخاصة التي لا يمكن وصفها باللاعلمية لعدم وجود معيار نحكم به على علمية الشيء من دونه، فبإعطاء الفرص لكل الأفكار بالظهور يتقدم العلم ويتطور، فكلما كان التعدد أكثر كان التطور أفضل.

إن رفض "**فيرابند**" لهذه العقلانيات نابع من تأثره "بالمذهب المعروف في الفن باسم "**الددائية**"*(**Dadaisme**) أكثر من تأثره بالفوضوية السياسية، "ذلك أن الفوضوي السياسي يرغب في تحطيم أو تنحية جانب من جوانب الحياة والمتمثل في السلطة بينما الفوضوي الإبستمولوجي يدافع عنها بحيث ليس له ولاء دائم ولا نفور دائم اتجاه بعض المؤسسات و الأيديولوجيات مهما كانت مثل الددائي ليس له برنامج فكري محدد، وهو ضد كل البرامج."[2]

---

[1]– آلان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص142.

*الددائية:حركة ثقافية في الفن والأدب، ظهرت في سويسرا، أثناء الحرب العالمية الأولي،ترفض كل ما هو تقليدي، وتتبني الفوضى والرفض، ذات طابع احتجاجي نقدي،من أهم مبادئها القول إن الفن والأدب لا يعتمد على أية قواعد، والحقيقة الوحيدة المقبولة هي الخيال.

[2]-Feyerabend.Paul. Thèse sur l'anarchisme épistémologique, (revue alliage numéro 28,1996) texte publié sur le site bibliolib, confié par m.g.ruiz, p4.https://raforum.info/spip.php ?article 7065.publié le 23avril 2015 Consulté le 21 dècembre2017.

« L'Anarchiste épistémologique n'a aucun scrupule à défendre les énoncés les plus triviaux, ou les plus provocants. Tandis que l'anarchiste politique veut éliminer une certaine forme de vie, l'anarchiste épistémologique peut vouloir la défendre, car il n'a aucune loyauté durable, pas plus qu'il n'a pas d'aversion durable envers quelque institution ou quelque idéologie que

يبين "**فيرابند**" في كتابه المشهور "ضد المنهج" الفوضوية التي يحبذها والتي تتماشى مع الددائية وليست الفوضوية السياسية التي يرى أنها ذات طبيعة سلبية إذ يقول:" عند اختيار مصطلح الفوضوية اتبعت ببساطة الاستخدام العام، مع ذلك فإن الفوضوية كما تم ممارستها في الماضي وكما تمارس اليوم، لها ملامح لست مستعداً لتدعيمها وتأييدها ولا تهتم الفوضوية بالحياة وسعادة البشرية فيما عدا حياة وسعادة من ينتمون لمجموعة خاصة، لهذه الأسباب فإنني أفضل استخدام مصطلح "الدادية"، ذلك لأن الدادي يترك الكائن البشري لشأنه ولا يتأثر بأي مشروع جامد."[1]

يستخدم "**فيرابند**" مصطلح الفوضوية عن الوضع بالنسبة للمناهج فليس هناك منهج وحيد يمكن أن نقول عنه بكل يقين أنه أحسن المناهج وأفضلها للإبداع العلمي، لذلك يحبذ التعدد المنهجي وفقاً لشعاره المفضل"**كل شيء يصلح**" فالمنهجية الفوضوية وما يتبعها من علم فوضوي يمثلان معاً نظرية المعرفة المثلى.

تقوم فوضوية "**فيرابند**" على رفض كل أشكال السلطة المعرفية التي تمارس من طرف أصحاب النزعات العقلانية، كما " ترفض بشدة تنصيب السلطة المعرفية لمنهج محدد أو لعقلانية معينة بل ترفض تنصيب السلطة المعرفية للعلم ذاته، فالعلم في نظره يتقدم من خلال فتح مجال البحث والمعرفة لتسمح بتفجير الطاقات الإبداعية في ظل تعدد المناهج وليس بالتركيز على إتباع منهج معين، فالعلم ليس نظاماً معرفياً مقدساً بل إنه نظام عقلاني وجب أن ينمو أو يزدهر ويتطور في وسط الأنظمة المعرفية الأخرى."[2]

يؤكد "**فيرابند**" على أهمية الفوضوية ودورها في تفعيل حركية التقدم العلمي ذلك أن البحث الناجح والفعال لا يتبع معيار ولا يسير في اتجاه واحد بل في اتجاهات متعددة، وعليه

---

se soit. Tout comme le dadaïste non seulement il n'a pas de programme, mais il est contre tous les programmes »

[1] – فيرابند بول،ضد المنهج، مصدر سابق، ص28.

[2] - محمد أحمد السيد، التميز بين العلم واللاعلم، دراسة في مشكلة المنهج العلمي، منشأة المعارف بالإسكندرية، (بـ ط)(بـ ت) ص26.

فهو يؤسس لاتجاه فلسفي معاصر قائم على الفوضوية الإبستمولوجية متأثراً في ذلك بعلم الاجتماع المعرفة لدى "كون" أو ما يسمى بسوسيولوجيا العلم، فالعلم ظاهرة اجتماعية تتضافر في قيامه عوامل عديدة ومتنوعة.

2-نزعته النسباوية:

اهتم فلاسفة العلم المعاصرين بفكرة النسبية حيث تكاد جل فلسفاتهم تتجه نحو القول بعدم مطلقية المعارف العلمية، حيث أشار " توماس كون" إلى فكرة النموذج ومن خلالها عبر عن انتمائه للنسباوية، فالأحكام العلمية هي أحكام نسبية أي بالنسبة للنموذج الإرشادي المعمول في إطاره، فالحكم لا يمكنه أن يتجاوز النموذج بل يبقى محصوراً في إطاره، ولا يمكن تعميمه في نموذج أخر، لأن لكل نموذج طابعه الخاص ولكل نظرية علمية مقاييسها الخاصة تنتج فعالية داخل النموذج وتتعثر خارجه، " فالنماذج عند "كون" ليست من الدقة بحيث يمكن أن تستبدل بها سلسلة صريحة من القواعد...ففي وسع علماء مختلفين أو جماعات مختلفة من العلماء أن يؤولوا ويطبقوا النموذج بأشكال مختلفة."[1]

من خلال هذا القول يتضح الطابع التاريخي والسوسيولوجي في فلسفة "كون" التي تأثر بها "**فيرابند**" "إذ يقر صراحة أنه أخذ النسباوية من "توماس كون" حين تعلم منه ومن آخرين أن يتناول الموضوع تناولاً تاريخياً وليس تناولاً منطقياً."[2]

كل أبحاث "**فيرابند**" في مجال فلسفة العلم تؤكد تمسكه القوي النسباوية رافضاً بذلك كل قواعد المنهجية والتصورات العقلانية التي تقيد حرية الإنسان في البحث، فالمفاهيم التي يعتقد أنها أساسية في البناء العلمي كالموضوعية والعقلانية والمنهج هي مفاهيم نسبية بحكم تغيرها من نموذج إلى أخر ومن نظرية إلى أخرى، فتختلف معانيها حسب السياق الذي وردت فيه، فكل نظرية تدعي أنها موضوعية وعقلانية فلا يوجد نظرية أحسن من أخرى فكل نظرية

---

[1] - ألان شالمرز، نظريات العلم، مرجع سابق، ص104.

[2] - طريف الخولى يمنى، فلسفة العلم في القرن العشرين،الأصول –الحصاد–الأفاق المستقبلية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط1، 2009م، ص467-468

وجدت في حقبة زمنية تاريخية معينة ونشأت تحت ظروف خاصة وبتأثير أفكار إيديولوجية التي تسعى لتحقيق التفوق اللامشروع تحت غطاء شعارات براقة.

يريد "**فيرابند**" أن يوضح فكرة ذات أهمية بالغة لكل من يطلع على فلسفته، "بأن كل دليل مهما كان نوعه يبقى ظرفي تتحكم فيه معتقدات المجتمع وثقافته في لحظة معينة تجعله محدوداً وغير كاف مما يسمح بقبول تصورات ودلائل مخالفة."[1]

إن دعوة "**فيرابند**" للنسباوية يرجع إلى تفكيره المتفتح على تقاليد المجتمع وعاداته فمهما حقق العلم من نتائج لا يمكنه أن يقصي التجارب الأخرى التي لم تعطي لها الفرصة للإفصاح عن مكانتها وقدراتها التي لا تقل أهمية عن العلم، فالنسبية ظاهرة ملتصقة بالعلم ولا تنفصل عنه ذلك أن الحقائق العلمية ليست مطلقة مما يفتح المجال لأساليب أخرى للمشاركة في العلم، "إن العقل العلمي الذي يؤمن به "فيرابند" هو ذلك العقل المتفتح الذي يعترف بوجود اللامعقول وما يتضمنه من مظاهر الصدفة وعدم الانتظام والتناقض، والتغيرات المنطقية، ويمكنه إن يشتغل على ما ليس معقولاً، إن العقل المتفتح ليس كبتاً بل هو حوار مع اللامعقول."[2]

لا يمكن حصر الحقيقة في المجال العلمي محدد أو بيُد جماعة معينة إن تجارب الحياة كلها مفيدة، فالعالم اليوم طوائف وأحزاب وأمم ولكل واحدة منها أسلوب في الإبداع والإنتاج لابد أن يحترم وتستفيد منه البشرية جمعاء، وحتى تلك التجارب التي توصف باللامعقولة، لذلك يرفض "**فيرابند**" العقلانية المؤدلجة الداعمة لموقف معين على حساب مواقف آخر،

---

[1]-pierre-Antoine, Pontoizeau « Paul Feyerabend et les chemins de la liberté » les cahiers psychologie politique article n 28 janvier 2016 url :http://lodel .irevuesinist. fr/cahierspsychologie politique/index, php ?id=3192

« Feyerabend cherche alors les voies d'une éducation du lecteur pour lui faire comprendre que la preuve est elle- même circonstancielle. Elle se dans les limites des croyances et des certitudes d'une société à un moment donné .et cette insuffisance de la preuve conduit à accepter l'altérité »

[2] – ادغار موران، من أجل عقل متفتح، نقلاً عن :محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، العقلانية وانتقاداتها، دار توقبال الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص39.

ويشير في ذلك للحضارة الغربية التي أضفت صفة الشرعية على العقل، على الرغم من أنه مجرد تعبير عن إيديولوجية معينة، يقول "**فيرابند**": "إن الأفكار والممارسات كلها نسبية، فهي ليست إنتاج العبقرية الغربية ولا تشكل ترفاً فكرياً بل وجدت من قبل في الحضارة الصينية، وتطورت على شكل فنون متخفية داخل المجتمعات الإفريقية بعد أن وقع التجانس بين مختلف الأعراق والعادات والأديان مما يدل على وجود أشكال متنوعة من الحياة في هذا العالم."[1]

إن نسباوية "**فيرابند**" دفعته ليقف ضد العقل الذي يدعي امتلاك الحقيقة ويمنعها عن غيره مستخدماً مجموعة من الأسس المنطقية والموضوعية التي شكلت عائق أمام التقاليد الأخرى التي قد تساهم في تطوير المعرفة العلمية، ويناصر في نفس الوقت العقل المتفتح الذي يتقبل كل التجارب الإنسانية مهما كان نوعها، إذ يقول:"إني أؤكد أنه لا يوجد أي مبرر موضوعي يجعلنا نفضل العلم والعقلانية الغربية عن باقي التقاليد الأخرى."[2]

يتضح أن فلسفة "**فيرابند**" النسباوية تفتح المجال أمام كل الاتجاهات التي لها منطقها الخاص، فهي تعطي الفرصة لكل الأفراد والجماعات خلافاً للعقلانية التي تحصر النقاش في إطار الأنساق الضيقة والمناهج المبرمجة لذلك ينفي أن " تكون التجريبية المعيارية عن التحقق بواسطة الحواس تعبيراً عن العقلانية ولا الفكرة البوبرية الأكثر تعقيداً عن القابلية

---

[1]-Feyerabend Paul Adieu la raison Tr. De l'anglais par b .jurdant édition seuil : paris 1996, p 27

« Les idées et les pratiques relativiste ne sont pas l'apanage de l'Occident. Elles ne constituent pas un luxe intellectuel. Elles ont existé en chine et se sont développées en art subtil dans les sociétés africaines a la suite de rencontres avec déférentes races, coutumes et religions qui leur ont montré qu'il existait de nombreuses façons de vivre sur cette terre »

[2] - Feyerabend Paul. A dieu la raison ; op.cit .P338.

« J'affirme qu'il n'existe aucune raison objective pour préférer la science et le rationalisme occidental à d'autres traditions »

للدحض التجريبي بقادرتين على تسويغ أية مزاعم في الموضوعية النهائية... بل تمتد إلى أوسع من ذلك لتكون معياراً لكل خطاب إنساني."[1]

لقد تفطن "**فيرابند**" إلى أهمية الثقافات الإنسانية باعتبارها نشاطاً إنسانيا يعكس خبرات تجارب تفيد البشرية جمعاء، ويرسم طريق التقدم ويشجع التعامل مع جميع المعارف حتى تلك التي توصف بالبدائية لغرض بناء تصورات جديدة مبنية على التعددية وذلك من خلال فتح المجال لكل المحاولات التي يقوم بها البشر في شتي أرجاء العالم، إن النسباوية التي يشيدها ذات نزعة إنسانية وفقت ضد كل التيارات العقلانية الدغمائية، "فرفضت التوحيد والتنميط، فهي فلسفة مستوحاة من تنوع الثقافات الإنسانية التي تقابل النشاط المعرفي البشري الخام الذي لا يعرف أي منهج ويجهل المبادئ العامة التي تقيد السلوك المعرفي للإنسان المتحضر."[2]

لقد استثمر "**فيرابند**" كثيراً في تاريخ العلم ليبين فعالية النسباوية وأهمية الاعتراف بها فبظهور النظرية النسبية وأبحاثها العميقة في عالم المتناهي في الصغر إلى جانب أبحاث "هايزنبارغ" التي أعادت النظر في المسائل العلمية اليقينية، فبدأت التساؤل من جديد حول حقيقة العلم وتوصل الجميع إلى نتيجة مفادها أن العلم غير قادر على احتواء كل المعارف وضمها إلى نسقه المنطقي، بل عليه أن يتفتح على المسائل الأنطولوجية والبحث في خبايا الوجود الإنساني واحترام خصوصيات الثقافة دون ممارسة التهميش والإقصاء، إذ يقول:"النسباوية مذهب شعبي يقف ضد كل أشكال الدغمائية، وضد النزعة العقلانية التي يعتقد أصحابها امتلاك الحقيقة التي تفرض نمط حياة موحد تكون نتائجه وخيمة، لكن هؤلاء لم يدركوا أن ماهو حقيقي بالنسبة لشخص أو جماعة أو ثقافة ما قد لا يكون بالضرورة حقيقة بالنسبة لشخص أو جماعة أو ثقافة أخرى."[3]

---

[1] -كونفنهام جون، العقلانية تر، محمود منقذ الهاشم، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1997م، ص 166.

[2] - عبد السلام بن مسيس : قضايا في الإبستمولوجيا والمنطق،شركة النشر والتوزيع، دار البيضاء، المغرب،ط1، 2000م، ص124.

[3] -Feyerabend Paul. Adieu la Raison. Op cit. p93-94.

إن التصور النسباوي بصورة عامة بما فيه فلسفة "**فيرابند**" توحي بوجود تحولات إستراتيجية في فلسفة العلم من منطلق التعددية، وهذه الفكرة تطورت تماشياً مع الممارسات الإبستمولوجية من خلال العقلانيات المختلفة التي بينت تعدد المناهج والتصورات داخل البناء العلمي مما دفع بـ"**فيرابند**" إلى محاولة توسيع البحث على مجالات اللامعقول، لذلك نجد أن نسباويته قائمة على تمجيد التعدد وعدم الاعتراف بالنسقية والنمطية ذات البعد الواحد، فالمعرفة العلمية قادرة على امتصاص كل التقاليد المعرفية والاستفادة منها، فهي جزء لا تتجزأ من الممارسة المتطورة للعلم والحضارة الإنسانية، فكل التقاليد بما فيها العلم قابلة للتغير المستمر والدائم وهذا أمر ضروري لحركية وصيرورة المعرفة العلمية التي لا تعرف الثبات و لا اليقين المطلق، فالعلم هو نتاج لتضافر مجموعة من القيم والتقاليد المتفاعلة مع بعضها البعض التي تشكل نسيجاً اجتماعياً، إذ يقول:" يمكن للكاثوليك الروماني أن يستفيد من دراسة البوذية، ويمكن للأطباء أن يستفيدوا من طرق التطبيب الطبيعي لدي الصينيين و السحر الإفريقي ويمكن لعلماء النفس أن يستفيدوا من دراسة الطرق والأساليب التي يعتمدها الروائيين والممثلين في بناء الشخصيات ويمكن للعلماء أن يستفيدوا من دراسة الطرق ووجهات النظر لا علمية، وبوجه عام يمكن للحضارة الغربية أن تتعلم أموراً وأشياء كثيرة من اعتقادات وعادات، ومؤسسات الشعوب البدائية."[1]

« Le relativisme est une doctrine populaire. Rebutés par la présomption de ceux qui croient savoir la vérité et témoins des désastres engendrés par la volonté d'imposer une manière de vie uniforme beaucoup de gens croient aujourd'hui que ce qui est vrai pour une personne, un groupe ou une culture, n'est pas forcément vrai pour une autre »

[1] -- Feyerabend Paul. Adieu la Raison. Op cit . P29.
« Les catholiques romains peuvent tirer profit de l'étude du bouddhisme ; les médecins peuvent tirer profit d'une étude du nei ching ou d'un contact avec des sorciers africains ; les psychologues peuvent tirer profit d'une étude des méthodes et des conception non scientifiques ; enfin, la civilisation occidentale dans son ensemble peut apprendre beaucoup de choses à partir des croyances, des habitudes et des institutions de peuples primitifs »

إن إصرار "**فيرابند**" على دراسة ثقافة الشعوب البدائية دفعه للإشادة بأسلوب تتعدد المناهج ووقوفه ضد فكرة المنهج الواحد والصارم.

3-ضد المنهج:

من بين أهم الأفكار النقدية الأساسية في فلسفة "**فيرابند**" رفضه للمنهج العلمي الواحد فهو يعارض أي مبدأ أو منهج يتسلح بدعاوى المنطق والعقل في إيجاد الطريق المناسب في الوصول إلى الحقيقة، فلا يوجد منهج ثابت كلي ولا يمكن أن يلتزم الباحث بمجموعة من الإجراءات الجامدة التي تقيد فكره وتجعله يشتغل داخل نسق معين يحد من إبداعاته لذلك دعا للتحرر من قيود المنهج حتى يتمكن العلماء من الاستفادة من التجارب المتنوعة التي لا تخدع لمنهج معين، فلا يمكن حصر الحقيقة داخل أسوار المنهج، فكل الإنجازات التي تمت في العلم لم تكن وليدة المعايير المحددة ومقاييس جاهزة، بل هي نتاج لخيال الإنسان الحر المبدع.

إن الالتزام بقواعد المنهج تؤدي حتماً إلى الحد من قدرات العقل وتثبط عزيمة الخيال في الإبداع وتجعل العقل حبيس المعايير والقواعد المنهجية، فرفض بذلك المنهج الكلي وجميع العقلانيات التي تستند إليه إذ يقول :" إن فكرة منهج كلي راسخ، والتي تعد مقياساً ثابتاً للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية، مثلها في ذلك مثل الفكرة التي تقول بأداة قياس راسخة يمكنها أن تقيس أية كتلة من دون أي اعتبار إلى الظروف المحيطة بها."[1]

يؤكد "**فيرابند**" أن الممارسة العلمية لا تتبع أي منهجية خاصة، فالمناهج المقترحة سواء أكانت استقرائية أم استنباطية لا تتوافق مع معطيات وشواهد واقعية تاريخ العلم، وان كل الميثودولوجيات التي تدعي العلمية تخفق بشكل كبير في تقديم أسلوب عمل يفيد العلماء أو تظهر حقيقة الظواهر الطبيعية كما هي في الواقع، فهي مجرد تصورات خاصة لا تعكس

---

[1] - نقلاً عن موسي كريم فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص363-364.

حقيقة العلم بل حولت العلم لبعض القواعد الجافة، فكل محاولاتهم تبقي مجرد تنظيرات سطحية تعبر عن وجهة نظر عامة وليست مستقاة من الممارسة الحقيقية للعلم. فالعلم هو عبارة عن نظريات يحمل تصورات لها حمولة ثقافية واجتماعية لا تعكس حقيقة الظاهرة المراد دراستها والمنهجية المتبعة في العلم لا يمكنها أن تكشف الواقع.

فكل المناهج و العقلانيات تقدم وجهة نظر معينة تختلف عن وجهات أخرى وهذا راجع لاختلافات الأنماط الثقافية إذ يقول:"إن الفكرة القائلة بأن العلم يستطيع ويجب أن يعمل وفق قواعد ثابتة وكلية، هي فكرة مثالية، وهادمة في الوقت ذاته، فهي فكرة مثالية لأنها تنطوي على تصور في غاية السذاجة عمّا بحوزة الإنسان من إبداعات، وهي فكرة هادمة لكون محاولتها فرض قواعد كهذه، تصمم على زيادة قدراتنا المهنية على حساب إنسانيتنا

فضلاً عن أن هذه الفكرة مضرة بالعلم لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي،إنها تجعل مشروعنا العلمي أقل مرونة وأكثر ذوغمائية...فلجميع الميثودولوجيات عيوب تحددها، والقاعدة الوحيدة التي تصمد هي 'كل شيء مقبول.'"[1]

يستشهد "**فيرابند**" كعادته بتاريخ العلم ليبين مدي تهافت فكرة المنهج الوحيد في العلم، لقد كان الفلاسفة قبل سقراط يمارسون فعل التفكير دون قيد وبدون الالتزام بقواعد منطقية

---

[1] - paul feyrabend ; contre la mèthode ;esquisse d'une thèorie anarchiste de la connaissance,tra ;baudouin jurdant et Agnès Schlumberger ;seuil ;paris 1979p332.

« L'idée que la science peut ; et doit ;être organisée selon des règles fixes et universelles est à la fois utopique et pernicieuse ;Elle est utopique ,car elle implique une conception trop simple des aptitudes de l'homme et des circonstances qui encouragent , ou causent leur développement. Et elle est pernicieuse en ce que la tentative d'imposer de telles règles ne peut manquer de n'augmenter nos qualifications professionnelles qu'aux dépens de notre humanité En outre, une telle idée est préjudiciable a la science car elle néglige les conditions physiques et historiques complexes qui influencent en réalité le changement scientifique, elle rend notre science moins facilement adaptable et plus dogmatique...toutes les méthodologies ont leurs limites, et la seule règle qui suivit, c'est tout est bon »

جافة، حيث كان الخطاب السفسطائي يتمتع بحرية جعلته يعالج كل القضايا من منطلق شخصي، هذا الخطاب جعل الأفكار والتصورات تتلاطم مع بعضها البعض فاندفع الجميع للنقاش، بكل حرية وكان ذلك مفيداً للمعرفة.

لقد عرف تاريخ الفلسفة والعلم على حد سواء مناهج متعددة، بدأ بأرسطو الذي وضع للفكر قواعد قصد تنظيمه وحمايته من الوقوع في الخطأ، ثم ما لبث أن ينتقد هذا المنهج بسبب تطور المعرفة فتجاوز ديكارت المنطق الأرسطي واعتبره عقيم لأنه لم يتمكن من مسايرة التطورات التي عرفها علم الرياضيات، وبعدها ظهر المنهج التجريبي كمنهج يوجه الفكر الإنساني نحو الطبيعة واعتبر عنواناً للعلمية، من هنا يريد "**فيرابند**" أن يوضح ضرورة التعددية المنهجية، وأنا كل هذه المناهج تفيد العلم وتساهم في تطوره.

إن الممارسة الواقعية للعلم تفترض وجود مناهج متعددة تتماشى وطبيعة الموضوع المراد دراسته والقول بالمنهج الواحد في العلم يؤدي حتماً إلى تقليص مساحة العلم ذاته ويهدد كيانه ويجعله غير قادر على مواجهة واقتحام الأفكار والتصورات والتقاليد اللامعقولة فيحرمنا من الكثير من النظريات التي قد يحالفها الصواب في توسيع معارفنا فليس هناك منهج شامل صالح لكل الممارسات العلمية التي تفرض على الباحث أن يكون قادرا على معرفة التفاصيل وجزئيات البحث حتى يتمكن من الوصول إلى نتيجة، وإلى حكم منظم للمعايير الموجودة والقدرة على إبداع معايير أخرى جديدة، يقول "فيرابند"" ليس هدفي هو استبدال مجموعة من القواعد العامة بمجموعة أخرى، بل هدفي هو إقناع القارئ أن كل المناهج، وحتى أكثر وضوحاً لها حدود وأفضل طريقة لتوضيح ذلك هو تحديد الحدود وعدم عقلانية بعض القواعد التي ينظر إليها على أنها أساسية."[1]

يرى "**فيرابند**" أن العلم في تطور مستمر وتطوره لا يرجع لقوة المنهج بل يرجع لمحتوى الموضوع المدروس الذي يفرض نموذجاً معيناً في الدراسة والبحث، فالقواعد تتغير وتتمحوراً

[1] - فيرابند بول، ضد المنهج ، مصدر سابق، ص48.

تماشياً مع ضرورة البحث العلمي ومنطلقاته ولا يمكن تفضيل فترة زمنية عن الأخرى بل الكل يقدم معرفة ومن التهور والعجرفة إلى أقصى الحدود أن نؤكد وبصورة قطعية أن جيل القرن الواحد والعشرون، قد أنتجا الحلول النهائية لكل المشكلات الني تعاني منها البشرية لكن المهم هو استمرار البحث والحوار.

يتبين أن العلم معقد ومتشابك ومتعدد الجوانب فلا يمكن لمنهج واحد أن يتسع لكل متغيرات العلم وليس معنى هذا أن البحث العلمي يترك للصدفة وإنما يخضع لمعايير تستنبط من عملية البحث ذاته وليس من وجهات نظر عقلانية خالصة مجردة، فملابسات البحث العلمي وممارسته هي التي تفرض معايير معينة غير مجهزة مسبقاً، ضف إلى ذلك فإن العلم ليس نشاطاً عقلياً خالصاً بل تتدخل فيه بعض الأفكار والتصورات الخارجة عن قبضة المعقول، فالعوامل اللاعقلانية كالخيال والحدس والأسطورة والعاطفة والدين والفن لها دور كبير في تطور العلم وتقدمه، يقول "**فيرابند**":" إن المنهج الذي يشجع التنويع هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية."[1]

إن الاعتقاد بوجود منهج وحيد للعلم يقلص من فرص النجاح لأنه يتنافى مع طبيعة العلم القائمة على الإبداع الناتج عن الخيال، فالمعرفة العلمية تسير في سياق عام يمتزج فيه العلمي بالثقافي والاجتماعي والتاريخي والفلسفي، ويمتزج فيه المعقول مع اللامعقول والخيال مع الواقع فلا يمكن حصر هذا التنوع والقضاء عليه وإقصائه باسم صرامة المنهج الواحد.

لقد أفرزت أزمة المنهج في الفكر الغربي تحولات إستراتجية تزعزعت من خلالها الكثير من المفاهيم التي مثلت مرحلة الحداثة، كالعقلانية والمنهج والموضوعية، وتعد فلسفة "**فيرابند**" وجهة جديدة من أوجه الصراع في تاريخ الفكر الإنساني القائم بين قيم التفلسف وحركة الفكر الحر من جهة وبين التوجهات الدوغمائية من جهة أخرى، "فجاء نقده مرتبط بأزمة المنهج في الثقافة الغربية المعاصرة، بدأً من نقد الاستقراء عند "هيوم" ثم "بوبر" في القرن العشرين وكذلك نقد الكثيرين من أصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية للمنهج الاستقرائي والمنهج

1 - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص65.

البوبري لصالح أطروحات منهجية متباينة، ولعل هذا ما دفع الكثيرين إلى تبني أطروحة تعدد المنهج عموماً."[1]

يدعو "**فيرابند**" لميثودولوجيا مفتوحة تتماشى وشعاره "كل شيء جائز"،إذ يقول رافضاً فكرة المنهج الكلي الشامل،" إن الاعتقاد في مجموعة وحيدة من المعايير قادت دوماً إلى النجاح وستقود دائماً إليه ليس سوى أسطورة."[2] فالشجاعة العلمية تفرض على الباحث مخالفة القواعد المتعارف عليها قصد الوصول إلى اكتشافات أخرى وعلى عوالم مختلفة لم يعرفها المتمسكين بالقواعد المألوفة بحيث يعلن "**فيرابند**" "أن معظم القواعد التي يدافع عنها اليوم علماء وفلاسفة العلم بوصفها شكلاً تنظيمياً للمنهج العلمي إما عديمة النفع–فهي لا تثمر النتائج التي من المفترض أن تثمرها– أو ضعيفة، وقد نعثر بالطبع ذات اليوم على قاعدة تعيننا على مواجهة جميع الصعاب مثلما قد نعثر ذات اليوم على نظرية تمكننا من تفسير كل شيء في عالمنا، ونطور مثل هذا ليس محتملاً فحسب، بل ويكاد يميل المرء إلى استحالته منطقياً، إلا أنني مازلت غير راغب في استبعاده."[3]

لا يفهم من رفض "**فيرابند**" للمنهج معناه أنه يطرح منهج بديل فهو يؤكد على تقبل كل المناهج دون استثناء بل يعترف بكل المناهج والأفكار ورفض الأحادية، فالممارسة الحرة للعمل العلمي ليس حقيقة تاريخية فحسب بل أنها تتمتع بمعقولية فائقة بسبب تنوع الظواهر التي تستدعي بالضرورة التنوع في إتباع الإجراءات حسب طبيعة كل ظاهرة، وحتى إن كانت هذه الإجراءات غير مألوفة يجب تجريبها وليس الحكم عليها مسبقا بالفشل بمجرد أنها تخالف ماهو متبع، فالنظرية الموجية للضوء تم اكتشافها لأن بعض العلماء قرروا تخطى بعض القواعد المنهجية المألوفة والواضحة، لذلك نجده يقترح ما يسميه "مضاد الاستقراء أو

[1] - أحمد أنور أبو النور وآخرون، إشراف وتقديم يوسف زيدان،قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (بط)(بت)، ص205.
[2] - نقلاً عن عادل عوض، الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص75.
[3] - فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص113.

الاستقراء المعاكس" ولقد تطرقنا لهذه الخصوصية في المبحث السابق من هذا الفصل بالتفصيل.

يتضح مما سبق أن "**فيرابند**" يروج لفكرة التعدد في المنهج وفي الأفكار والتصورات لذي نجده يدعو إلى التفتح على مجال مازال لم ينل حقه من الدراسة وهو مجال اللامعقول بحيث يقترح المنهج الأنثروبولوجي، معتقداً أنه الأسلوب الملائم للعلم لأنه يتفاعل مع كل التقاليد على قدم المساواة، ويكشف حقيقة الظواهر الميتافيزيقية، وعلى الجانب اللامادي الوجداني سواء تعلق الأمر بالأسطورة أو الفن أوالدين، وهذا ما سوف نعالجه في المبحث الثالث من هذا الفصل.

المبحث الثالث: التفتح على اللامعقول.

إن التوجه نحو اللامعقول فرضته مسير العلم التي وصلت إلى نتيجة مفادها أن العلم غير قادر على حل كل الصعوبات والمشاكل التي يعيشها الإنسان المعاصر، فتراجعت العقلانية العلمية وتلاشت سيطرتها وزاد الانشغال بتفاصيل البحث المتعلق بالعوامل الحضارية والاجتماعية وتم دمج النواحي اللاعقلانية في مسيرة العلم وأصبح الفن والدين لا يقل أهمية عن العلم، فهل يمكن للامعقول أن يسير موضوعاً للعلم؟ أو بالأحرى هل التقاليد اللامعقولة يمكن لها أن تنافس العلم في تطوير المعرفة الإنسانية؟

1- المنهج الأنثروبولوجي وعلمية الأسطورة:

يشيد "**فيرابند**" بأسلوب البحث الأنثروبولوجي ويعتبره وسيلة فعالة تساعد على تقدم العلم مؤكداً على "أن طريقة الأنثروبولوجية هي الطريقة الصحيحة لدراسة بنية العلم."[1] فالباحث الأنثروبولوجي يتعامل مع قضايا المجتمع من خلال دراسة الثقافة كما تمارس فعلاً في الواقع فهي تعكس حقيقة من خلال البحث في تقاليد المجتمعات وعاداته وطرق العيش المختلفة للحياة البدائية التي تخزن رصيداً معرفيا إنسانيا رغم بدائيتها، وهذا خلافاً لما يقوم به العلماء

[1] – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص380.

الدين يستخدمون طرق منطقية ومناهج صارمة تعرقل البحث، الذي يجب أن يكون حراً غير ملتزم بقواعد تحد من إبداعات الباحثين، يقول "**فيرابند**": "يمكن أن نستعمل المنهج الأنثروبولوجي الذي يعالج سلوك وإيديولوجيا قبيلة مهمة وغريبة تحتاج للمنهج الأنثروبولوجي...بحيث تستبق طريقة الأنثروبولوجي طريقة المنطقي."[1]

إن المنهج المتبع من طرف الأنثروبولوجي لا يعتمد على قواعد مبرمجة سابقاً بل يخضع لمأمورية الواقع فهو يتجرد من كل الخلفيات ويتعامل مع الواقع بصفة مباشرة، يعيش الظاهرة دون الحكم عليها بالمعايير العلمية الحالية التي تقدم قراءة مخالفة لحقيقة الواقع، إذ يؤكد قائلاً:" إن معرفتنا العامة للعلم قد تكون ناقصة بشكل خطير وقد تكون خاطئة تماماً ... في هذه الظروف فإن أكثر الطرق آمانا هي الاعتراف بالجهل والابتعاد عن إعادة البناء والبدء في دراسة العلم عن طريق البحث ويجب أن نقترب من الأمر مثلما يقترب عالم الأنثروبولوجيا من الاضطرابات العقلية لدى رجال الطب في قبيلة تم اكتشافها حديثاً."[2]

لقد مكنت الدراسات الأنثروبولوجية من الكشف عن الكثير من الحقائق المرتبط بمجال اللامعقول وبينت أن البشرية لا تحتاج فقط للعلم بل هي في حاجة إلى معرفة الأطر الثقافية التي ساهمت في بناء المجتمع، يشير "**فيرابند**" لأهمية الأسطورة موضحاً دور المنهج الأنثروبولوجي في الكشف عن بنية الأسطورة التي لا تقل أهمية عن بنية العلم، فالأساطير في نظره أنساق تفسيرية تتمتع بدقة قد تتجاوز دقة التفسيرات العلمية، إلا أن التأويل السلبي لها عبر الزمن جعلها ظاهرة خرافية لا علاقة لها بالعلم متهماً الإيديولوجيات العقلانية من تشويه الأسطورة من خلال زرع فكرة خرافية الأسطورة في الأذهان باللاعقلانية،إذ يقول:" إن العلم كان دائماً ممجداً بسبب انجازاته فينبغي مدح الأسطورة مئة مرة وبحماس أشد لأن انجازاتها كانت أعظم، لقد أنشأ مخترعي الأسطورة الحضارة بينما اكتفى العلماء بتغييرها ولم يكن هذا التغيير دائماً إلى الأفضل...فقد عالجت الأسطورة والتراجيديا والملامح القديمة

---

[1] - نقلاً عن بناصر البعزاتي، الإستدلال والبناء، مرجع سابق، ص394.

[2] - فيرابند بول ، ضد المنهج، مصدر سابق، ص382-383.

المشاعر والانفعالات والوقائع ووضعتها في نفس الوقت في بنية مركبة كان لها تأثير ملموس نافع على المجتمعات التي حدثت فيها."[1]

إن الأسطورة في نظر"**فيرابند**" ساهمت في إحاكة النسيج الثقافي داخل المجتمع الذي يكشف عن عمق العواطف والأفكار والتصورات بين الأفراد كما أنها لعبت دور هام في بناء الكثير من المعارف العلمية ويضرب لنا مثال عن ذلك، "فالفكرة القائلة بأن المذنبات تنذر بوقوع حروب، هذه الفكرة خرافية بالنسبة لمعظم الناس لأنها لا تقوم على أسس منطقية لكن إذا ما فكرنا بنوع من الدقة والتحليل والعناية سوف نبرهن على أهمية هذه الفكرة التي تبدو سخيفة، من المتعارف عليه علمياً أن المذنبات ظواهر جوية، فهي نوع من النار في طبقات الجو العليا، وإذا تحرك في الجو يحمل معه بعض من هذه النار إلى الطبقات الجو العليا، مما يؤدي إلى حركة جوية هائلة، تتصاعد من الأسفل إلى الأعلى، وقد تؤدي إلى عواصف وتتسبب في تعكير الجو...وتؤثر هذه الحركة الجوية على عمليات البناء في الأنسجة جراء التغيرات الكيمائية الحيوية، لدي الإنسان وبأكثر قوة لدي الحيوان، فتزداد الكوارث الطبيعية في هذه الفترة، وتؤدي سخونة الهواء إلى سخونة على مستوي الجهاز العصبي لدي الإنسان فيزداد التوتر والقلق وتزداد معها القرارات غير المسئولة التي يتخذها المسئولين في مواقع السلطة والتي تتسبب في وقوع الحروب."[2]

لذلك يطالب بعدم إقصاء هذه التقاليد من الدراسة العلمية، فالإهمال الذي وقع على الأسطورة بحكم أنها ساذجة وخيالية جعلنا نهمل كذلك الحمولة الثقافية والأخلاقية والفكرية للأساطير التي تكشف عن طبيعة المجتمعات البدائية وتصوراتها للحياة مبيناً في نفس الوقت أن تاريخ العلم يبين أن المجتمعات القديمة عرفت ممارسات واقعية ذات نفع هام، مكنتها من تجاوز الكثير من الصعوبات وفي ميادين متعددة، لذلك يدعو إلى الاستعانة بالمنهج

[1] - فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص179.
[2] - المصدر نفسه، ص166.

الأنثروبولوجي في الدراسات العلمية والتاريخية لمعرفة أهمية وفعالية الأنسجة الثقافية بما فيها الأسطورة،إذ يقول: "يمكننا دعم الدراسة التاريخية بعمل ميداني أنثروبولوجي."[1]

لقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية الجادة على أهمية الأساطير والدور الذي تؤديه في النسيج الاجتماعي من خلال بنياتها العلائقية ووظائفها النفسية والمعيارية، فهذه الدراسات استطاعت أن تتعمق في مدلول الأسطورة وانعكاساتها المعرفية في تفسير الظواهر الاجتماعية، وهذا خلافاً لما تعتقده الإيديولوجيات العقلانية التي رفضت الأسطورة وأخرجتها من التناول المعرفي معتبرة إياها مجرد معتقدات ساذجة وبدائية.

لا يمكن اعتبار العلم معياراً نحكم من خلاله على التقاليد الأخرى، فهو مجرد تقليد مؤكداً على ضرورة إخضاع العلم للدراسة الأنثروبولوجية، فالإقصاء الذي تمارسه الحضارة الغربية بسبب تفوقها المادي والتكنولوجي غير مبرر تعسفي بل عنصري، لذلك يعيب "**فيرابند**" على الكثير من الدراسات الأنثروبولوجية الغربية التي فصلت بين العلم كمعرفة راقية وبين المعارف الأخرى غير العلمية دون فحص وتدقيق في مضمونها، لا يمكن جعل العلم معياراً لتحديد المعارف الشعبية والحكم عليها بالسذاجة، بل يجب فتح مجال المنافسة وتمكين هذه المعارف من المشاركة في العملية العلمية، يقول:"لم تكن على الإطلاق أية منافسة عادلة بين هذا التعقيد الكامل للأفكار وبين أساطير وأديان وتصرفات المجتمعات الغربية، فقد اختفت وتدهورت هذه الأساطير وهذه الديانات و التصرفات، ليس لأن العلم كان أفضل لكن لأن رسل العلم كانوا مظفرين وذوي عزيمة، ولأنهم طمسوا وبنوع أخص حاملي الثقافات البديلة، فلم يكن ثمة بحث كما لم تكن ثمة مقاربة موضوعية للمناهج والإنجازات."[2]

إن إصرار "فيرابند" على الاهتمام بالأسطورة راجع إلى قناعته الفلسفية القائمة على التعددية الفكرية التي جاءت كرد فعل على تسلط العلم ودوره في تهميش الثقافة الشعبية بما

---

[1] - فيرابند بول،ضد المنهج، مصدر سابق، ص381.

[2]- فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي وسمير حنا صادق، المجلي الأعلى للثقافة، مصر(بط)، 2000م، ص117.

فيها الأساطير، ويدعو في نفس الوقت إلى إعادة النظر في أطروحات العلم ويتم ذلك كم خلال تخليص العلم ذاته من قبضة العقلانيات المتطرفة وفسح المجال أمام كل التجارب والتقاليد الإنسانية، إذ يقول:إن الأساطير مؤولة بطريقة قويمة تحولت إلى سجلات للمعرفة لم يكن العلم ليتوقعها... ومتعارضة معه أحياناً هناك الكثير مما يمكن أن نتعلم ويجب أن نتعلم من أجدادنا القدامى ومن أقراننا البدائيين."[1]

فالميراث الإنساني في نظره هو ملك للبشرية جمعاء وهو حافل بالإنجازات والدراسات في علم الإنسان وتاريخ العلم وفي التعامل مع الطبيعة باستخدام التنجيم وبعض البحوث البيولوجية وذلك باستعمال طرق ووسائل مكنته من إخضاع الطبيعة واستغلالها لصالحه،" فلقد طور إنسان العصر الحجري مدارك مهمة وعندما واجهته مشكلات شديدة التعقيد تصدى لحلها بعبقرية فائقة وإذا كان العلم مقبول بسبب إنجازاته فإنه لا ينبغي أن ننسى أن مخترعي الأسطورة اخترعوا النار وأوجدوا وسائل للحفاظ عليها وبذلك أحدثوا إنجازا أسطورياً، فضلاً عن أنهم استأنسوا بالحيوانات واصطنعوا أنواعاً جديدة من النباتات مع الاحتفاظ بأنواع متفوقة هذا الإنجاز يتحدي ماهو موجود في الزراعة العلمية المعاصرة"[2]*

تحمل الأسطورة في نظر أنصار المذهب العقلي نسقاً فكرياً خاطئاً أو ناقصاً من منظور العلم يستوجب إقصائها من معارفنا، إلا أن هذا القرار في نظر "**فيرابند**" تعسفي قائم على

---

[1] - البعزاتي بناصر، الإستدلال والبناء، مرجع سابق، ص395.

[2] -Feyerabend Paul ; Dialogues sur la connaissance. Traduit de l’anglais par Baudouin Jurdant. Editions du seuil. Paris. P158.

« L’homme de l’âge de pierre était déjà un homo sapiens complètement développé. Il faisait face à de terribles problèmes ; et il a fait preuve d’une grande ingéniosité pour les résoudre. La science est toujours admirée à cause de ses exploits. Mais n’oublions pas que les inventeurs de mythes ont inventé le feu avec les moyens de le maintenir ils ont domestiqué des animaux ; cultivé de nouveaux types de plantes ; en gardant ces types séparés à un point qui excède ce qu’il est possible de faire dans l’agriculture scientifiques de aujourd’hui »

*- هناك ترجمة مشابهة من الإنجليزية للعربية للسيد النفادي وسمير حنا صادق، من كتاب العلم في المجتمع الحر لبول فيرابند الصفحة118 .ونفس الفقرة موجودة باللغة الفرنسية من كتاب ثلاث محاورات في المعرفة لبول فيرابند الفقرة الموجودة أعلاه. ص158.

مبررات اعتباطية وليست عقلية، حيث تم تهميش القوى السيكولوجية للأسطورة التي كانت تلعب دور في تماسك المجتمع من خلال فك الكثير من الأسرار وتدليل الصعاب التي يواجهها الأفراد خاصة تلك المتعلقة بالجانب النفسي والإعتقادي،"إن الأسطورة قادرة على تبيان فعاليتها داخل المجال العلمي البرهاني ...وبإمكانها كذلك تغيير حياة الناس...من هنا يتبين لنا أن الأسطورة هي كيان قوي والأكثر استقرارا."[1]

يرى "**فيرابند**" أن العقلانية الغربية تسببت في تدمير وحدة العقل والطبيعة وفصلت بين الأمور الفكرية والأمور العاطفية وأعطت للعقل سلطة مزيفة جعلته يعيش في عزلة بعيداً عن متغيرات الحياة المتعددة، لقد حول الفلاسفة العقلانيين المعرفة إلى جسم مصنع ومجرد خال من الروح، لقد أكد أفلاطون عن ذلك بالقول أتركنا نقيم علماً للفلك دون الاهتمام بالسماء، لقد أدى هذا الأمر بالإنسان إلى مغادرة الطبيعة والنظر إليها من منطلق الاستغلال وكأنها عدو لابد أن يحارب وخلافاً لذلك تعامل الإنسان الحجري مع الطبيعة تعاملاً إنسانيا وأدرك أن الطبيعة كائن يحترم ويقدر فكانت الأسطورة هي منبع هذا الاحترام والتقدير، إن الأسطورة في نظر "**فيرابند**" كيان وجودي يتكون من مجموعة من التصورات حول الإنسان والطبيعة، والمعرفة والقيم التي يمكن أن تتطور "فالأسطورة بكل تأكيد أكثر تقدماً من بعض الأفكار العلمية النقدية الأكثر تعقيداً وعقلانية."[2]

إن الكثير من الدراسات العلمية المعاصرة تفطنت لأهمية الأسطورة ويضرب لنا "فيرابند" مثال عن "علم الفلك الأثري القديم (l'astro-archéologie) الذي يجمع بين المصادر العلمية وبين مدخل جديد أكثر واقعية لدراسة الأسطورة والذي بيّن اتساع مجال ودقة مستوى

---

[1]-Feyerabend Paul. Une connaissance sans fondements. Introduction ; traduction ; notes ; bibliographie et index par Emmanuel Malolo Dissaké ; p87, 88.
« Un mythe est aussi capable de prouver sa validité à un niveau purement intellectuel et argumentatif…Ajoutons à cela le changement de la vie humaine…nous voyons qu'un mythe est l'entité la plus solide et la plus immuable qui puisse être imaginée »

[2] - فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص180.

فكر العصر الحجري، وترتب عن ذلك أن أصبح لدينا الآن علم الفلك عالمي يتم استخدامه واختباره بالملاحظات ويدرس في الجامعات ...وقد حل هذا العلم مشكلات فيزيائية اجتماعية ويقدم دليلاً لما يحدث في السماء وللانسجام الكائن بين السماء والأرض وبين المادة والحياة والإنسان والطبيعة وهي علاقات حقيقية أغفلتها وأنكرتها المادية العلمية المعاصرة."[1]

يتضح أن فلسفة "**فيرابند**" في اللامعقول تريد أن تفتح مجال طالما كان يشكل حاجز أمام البحث العلمي والمتمثل في الجوانب الخفية سواء في طبيعة الإنسان أو الطبيعة الفيزيائية، فالعلاقة بين الروح والجسد والعقل والمخ والمادة والجوهر، كلها مواضيع مازالت بعيدة عن الدراسة العلمية، وكأن "**فيرابند**" يريد من العلماء أن يلتفتوا إلى مواضيع تتعلق بالبعد الإنساني ومجاله الميتافيزيقي، إلى العالم الحقيقي لا العالم الظاهري، عالم الحياة الحقيقية عالم المشاعر والعواطف عالم القيم الأخلاقية والاجتماعية، باختصار العودة إلى عالم الإنسان، إذ يقول :"معظم الإبستمولوجيين والفلاسفة ينجحون من آن لآخر في إيجاد الآلية الاجتماعية التي قد تعمل في ظروف مثالية معينة في اكتساب المعرفة، لكن السؤال المطروح: هل هذه الآلية تتماشى مع عالمنا الحقيقي، إن هذا التساؤل يدفع بالفلاسفة للبحث عن الطريق التي يجب أن يتعامل بها العلماء بالفعل مع ما يحيط بهم وسيضطرون لاختيار الشكل الفعلي لمنتجهم أي المعرفة والطريقة التي تتغير بها هذا المنتج نتيجة للقرارات والأفعال في الظروف المادية والاجتماعية المعقدة، في كلمة واحدة سيكون على هذا التساؤل أن يكون انثروبولوجياً."[2]

يعتقد "**فيرابند**" أن سلطة التصورات القائمة في العلم أدت إلى عدم الاهتمام بالأسطورة بل تسببت في انقراضها وزوالها، وهذا راجع لعدم نزاهة الباحثين الأنثروبولوجيين الغربيين الذين جعلوا الدراسات لصالح فئة استعمارية، فلم تعالج التصورات بصورة دقيقة ولم تمنح للأفكار فرصة التداول لكي تظهر نجاعتها وفعاليتها في الدراسات العلمية المعاصرة،إذ

[1] - المصدر نفسه، ص180-181.
[2] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص 391.

يقول:"لقد هجرت نظريات وتم التخلص منها عن طريق تناولات موضة ظرفية، قبل أن تعطى لها فرصة لكي تكشف عن مزاياها بكثير زيادة على ذلك، تبدو المذاهب القديمة والأساطير البدائية غريبة وبدون معنى لأن مضمونها العلمي غير معروف فقط أو لأنه مشوه من طرف الفيلولوجيين والأنثروبولوجيين غير المطلعين على أبسط المعارف الفيزيائية والطبية والفلكية."[1]

إن العقلانية لا تملك البراهين الكافية ولا الوقائع التي تمكنها من رفض الأسطورة بل أن الرفض تم من خلال الصورة السلطوية التي اكتسبها العلم بفضل السياسة التي قدمها العلماء عن انتصار العلم وانهزام باقي التقاليد والتصورات الكوسمولوجية الأخرى، وتحديد دورها في بناء العلم، فالثقافات البديلة تمثل سنداً قوياً لمعارفنا العلمية، وهذا خلافا للكثير من التصورات في فلسفة العلم التي طالبت بقطيعة بين العلم والمعارف الشعبية السابقة، بحجة أنها تشكل عائق أمام تقدم العلم، فالتقدم في نظر "غاستون بشلار""مرهون بهذه القطيعة، فكل جديد للعلم هو بؤرة التقدم، والانفصال عن الماضي، فالتقدم عنده يتم بواسطة قفزات ثورية تعقبها أفكار تصحح أفكاراً، فروح العلم هي تصحيح المعرفة وتوسع نطاقها إلى ما أسماه منطق التصحيح الذاتي."[2]

رفض "فيرابند" هذا التصحيح للمعرفة وإن كان هناك تصحيح فليكن للعلم ذاته إن فهم الطبيعة ومعرفة أسرارها تستدعي الإلمام بكل الخبرات والتجارب بما فيها تلك التي توصف باللامعقولة، فكل الأفكار والمناهج والطرق مباحة في العمل العلمي، لذلك يعيب على الإبستيمولوجيات التي ميزت بين العلم واللاعلم، مؤكداً على أن أي رفض لنوع من المعرفة الإنسانية ليس مبرراً بل قائم على اعتبارات ذاتية إيديولوجية، ويشير في ذلك إلى تصور"كارل بوبر" ويصفه بالدوغمائي بسبب إقصائه لكثير من المعارف ووصفها بالعلم الزائف لمجرد أنها لا تقبل التكذيب كما فعل مع النظرية الفرويدية والنظرية الماركسية، فمثل

---

[1] - نقلاً عن بناصر البعزاتي، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص396.
[2] -غاستون بشلار، العقلانية التطبيقية، ترجمة بسام الهاشمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد (بط)1987م، ص57.

هذه التصورات في نظر "**فيرابند**" لا تفيد التقدم العلمي بل تتسبب في انغلاقه والحد من طموحه والتفتح مرهون بتجاوز مثل هذه الأطروحات، يقول : إن طبيعة العلم مازالت مغلقة بحجب من الظلام ولا يزال الموضوع قيد المناقشة وثمة فرصة سانحة لمعرفة متواضعة عن العلم سوف تنشأ ذات يوم."[1]

هذه النظرة المتواضعة التي يؤكد عليها "**فيرابند**" تتمثل في إعطاء الفرص وفتح المجال أمام التعدد وتمكين جميع التقاليد من ممارسة حقها في المعرفة، لذلك يطالب بتعليم الأسطورة ودمجها في المناهج التربوية، لما لها من أهمية في توسيع المخيل وتفعيل آليات التماسك الاجتماعي وإهمال الأسطورة في مناهج التعليم التربوية راجع إلى تلك القرارات التعسفية لأصحاب العقلانيات المتطرفة التي جعلت من العلم ظاهرة سلبية احتكرت المعرفة لصالحها، "فكل نظام سواء تعلق الأمر بالأسطورة أو بالنظرية العلمية، هو إنتاج خيال الإنسان."[2]

يرى "**فيرابند**" أن هذا الاحتكار تسبب في إقصاء عناصر أساسية من دائرة الفكر، إن المعرفة تتطور من خلال توسيع دائرة الفكر لتشمل كل التقاليد والقيم الإنسانية منذ القدم فكل الأفكار والتصورات تفيد المعرفة وتضيف الجديد المهم أن تعطى لها الفرصة يقول : "ليس هناك فكرة مهما كانت قديمة سخيفة غير قادرة على تطوير معرفتنا، ولقد تم امتصاص تاريخ الفكر كله في العلم ويتم استخدامه لتطوير كل نظرية منفردة، وقد تكن هناك حاجة إليه للتغلب على الغلو في الوطنية العلمية التي تقاوم البدائل لحالة التعايش."[3]

---

[1] - فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص92.

[2] -François Jacob, mythe-science-rationalité « l'évolution sans projet »entretien avec François Jacob le darwinisme aujourd'hui, le seuil, col. Points, 1979, p145.https://www.ac-grenoble.fr/philosophie/textes/textesm/jacob1 m.htm
« Quoi qu'il s'agisse d'un mythe ou d'une théorie scientifique, tout système d'explication est le produit de l'imagination humaine »

[3] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص67.

لقد تميز العلم بفضل المنهج الصارم الدقيق حيث اكتسب مكانة مرموقة على حساب التقاليد الأخرى لدى حاول "**فيرابند**" البرهنة على عدم وجود منهج شامل كلي في العلم فكل محاولة لفرض منهج على الممارسة العلمية يعوق التقدم ويهدر إمكانات البشر في المزيد من المعرفة، لذلك "كل دعاوى التمييز بين العلم والأسطورة مآلها السقوط ويستند في ذلك إلى بعض الدراسات الأنثروبولوجية التي قدمها "أيفانز ريتشارد"و"هاملتون" وغيرهم ساهمت هذه الكتابات في رصد تشابهات كثيرة بين العقل العلمي والعقل الأسطوري."[1]

وعليه يؤكد "أن العلم والأسطورة يقفان على قدم المساواة ويتنافسان كرؤى مختلفة للعالم من حق الفرد أن يقبل واحدة منها دون الأخرى، لا تميز للعلم من الناحية المعرفية، على الإطلاق حين نقارنه بأساطير البدائيين أو بالأنساق الميتافيزيقية التي قدمها فلاسفة ومفكرين في عصور سابقة، أو برؤى للعالم مستقاة من النصوص الدينية السماوية."[2]

يتضح أن "**فيرابند**" لا يريد حصر التفكير في نطاق ضيق يسمى العلم والتغاضي عن التقاليد الأخرى لدا فهو يدعو للإبستمولوجية الفوضوية حيث تتعاون كل التجارب وتتضافر الجهود خدمة للمعرفة، فعندما نقارن الأساطير بالعلم يحدث تقدماً وتطورا في العلم ذاته من خلال التعرف عن الطرق البدائية في مواجهة الصعاب كطرق التطبيب وتدبير شؤون المعيشة، إن التأويل الأسطوري مبني على تفسير حقيقة الوجود الطبيعي والاجتماعي من هنا آمن "**فيرابند**" بحقيقة الأسطورة وأهميتها في إنتاج المعرفة، "فإذا اعتبرنا أن المعقولية هي نتيجة عمليات فكرية توضح القوانين التي تحكم الواقع الطبيعي والاجتماعي، وتدخل نظاماً داخل الفوضى وداخل الظواهر المبهة، فإن الأسطورة إذا معبرة عن معقولية ومعان، وحقيقة خاصة بها مختلفة عن معقولية العلم التجريبي أو الفلسفات العقلانية."[3]

---

[1]- أحمد أنور أبو النور وآخرون، إشراف وتقديم يوسف زيدان،قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، مرجع سابق ص201.

[2] - أحمد أنور أبو النور وآخرون، إشراف وتقديم يوسف زيدان،قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص202.

[3] -العتيري رجاة، جدلية المعقول واللامعقول، دار سحر للنشر، تونس(بط)2001م، ص33.

لا يقتصر الأمر على الأسطورة فقط بل جميع التقاليد من بينها الفن الذي لعب دوراً هاما في تطوير المعرفة العلمية خاصة والمعرفة الإنسانية عامة.

2-العلم والفن:

من المتعارف عليه أن الخلفية الثقافية للأي مجتمع تضم معارف متعددة من اكتشافات علمية وإبداعات فنية وحركات أدبية وكل القضايا الاجتماعية والشؤون العسكرية والمواقف الإيديولوجية والتيارات الفلسفية ومن البديهي أنه كلما كان إلمام الإنسان بالخلفية الثقافية كبيراً كلما كان فهمه للظواهر بمختلف أنواعها أعظم، ومن أهم مظاهر الخلفية الثقافية الفن.

يفصل أنصار العقلانية بين الفن كذوق جمالي يعبر عن ذاتية الإنسان ودوافعه وأهوائه وعواطفه وبين العلم كظاهرة موضوعية تعكس الواقع على حقيقته من خلال تحديد الأسباب الواقعية للظاهرة المراد دراستها، وباعتماد منهج واضح يوصلنا إلى معرفة القوانين، فالقيمة الفنية في نظر هؤلاء محدودة تتفاوت حسب الذوق والرغبة من فرد لأخر مصدرها الخيال، فكلما كانت المخيلة أكثر اتساعا كلما مكنت الفنان من الإبداع ليس بالاعتماد الطرق العقلية المنظمة، وهذا خلافاً للعالم الذي يأتي بالحقائق ويصفها بالمعقولة ويضع قطيعة تامة مع كل التقاليد اللامعقولة، فالعلم في نظرهم يمثل مجال المعقول بينما الفن يمثل مجال اللامعقول، بمعنى أن الفن يعالج قضايا خارجة عن الدراسة العلمية.

يرفض "**فيرابند**" هذا الفصل ويعتبره سلطوي قائم على الإقصاء التعسفي مبيناً أن تاريخ العلم يؤكد عدم مصداقية أطروحة الفصل بين الفن والعلم، فبدايات عصر النهضة الأوروبية تشهد بالتعايش السلمي بين العلم والفن، "إذ أصبح واضحاً لدى جل المهتمين آنذاك أن الفن سواء في المعمار أو النحت أو التصوير أو الموسيقى أصبح يستخدم آليات هندسية علمية للتعبير عن تفاصيل الموضوعات، ولم تقتصر علاقة العلم بالفن على التشكيل فقط وإنما

ارتبطت بالموسيقى، إذ يؤكد بعض المؤرخين وجودة علاقات بين التحول الذي عرفته النظرية والتحول الذي عرفته الفيزياء في زمن غاليلي."[1]

يرى "**فيرابند**" أنه لا يمكن فصل مكونات الحياة الذهنية المختلفة عن بعضها البعض فهي تشكل كلاً متكاملاً يعمل داخل نسيج اجتماعي واحد وكل تقليد يستفيد من الأخر، فهي متداخلة بدرجات متفاوتة في بناء الأحكام، فالاندماج بين مختلف المفاهيم العلمية والفنية هو نتاج لذلك التفاعل العام الذي يحدث داخل المحيط الثقافي والاجتماعي، فتطور الفنون هو دليل على تطور العلوم والعكس صحيح، فبقدر ما يكون المجتمع على درجة عالية من الإبداعات الفنية معنى هذا أن درجة العلمية في أوساط المجتمع مرتفعة، فتطور العلم ينعكس على تطور الفن فهو مظهر من مظاهر تطور المجتمعات وتحضرها.

لقد تمكن الإنسان قديماً أن يبدع وسائل لمواجهة الطبيعة واستغلالها لصالحه، وذلك بتفعيل مخيلته الفنية في صنع أدواة الصيد والزراعة وطريقة بناء المأوى وحياكة الملبس، فالفنون سبقت العلوم ولفترة زمنية طويلة، حيث كانت كل الإشباعات الاجتماعية تتم من خلال الفن، ويضرب لنا "**فيرابند**" مثال عن تاريخ الفن المصري الذي يعد نموذجاً عن القدرة الفنية الطبيعية للإنسان الفرعوني التي فاقت القدرة العلمية بتجاوزها لتلك الطرق الصلبة التي لم تعرف التغيير لمدة قرون."[2]

والسبب يرجع إلى القداسة التي امتلكتها هذه الطرق بفضل التزكية المجانية المقدمة من أنصار النزعة العقلية، فالنسيج الاجتماعي الذي يضم الفن لعب دوراً هاماً في بناء القدرة الخيالية للعلماء، فالكثير من النظريات العلمية نشأت بفضل ما يمتلكه الفنان العالم من حس

---

[1]- البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص399.

[2] -Feyerabend Paul , Adieu la raison ,Op.cit.p173.
« l’histoire de l’art égyptien est un excellent exemple historique ;ici, un style naturaliste précoce et tout à fait raffiné fut remplacé par un formaliste sévère qui resta inchangé pour des siècles »

فني اكتسبه من الثقافة العامة للمجتمع، فلا يمكن إهمال الفن كقيمة اجتماعية راقية تضاهي قيمة المعرفة العلمية، فهو يصر على أن المنطلقات العلمية ترجع بالدرجة الأولى إلى قدرة العالم على استخدام خياله الواسع، وهذا الخيال هو نتاج لشبكة اجتماعية تتداخل وتتفاعل فيها جميع الأنشطة الحياتية.

يؤكد تاريخ العلم على وجود تداخل بين الفن العلم والفلسفة معاً خاصة عندما تتوفر الشروط الملائمة لبناء النهضة، فلقد اهتم علماء الفلك والجغرافيا والتشريح بالفنون بنفس المستوى من الاهتمام الذي كان لدى الفنانين بالأمور العلمية، فالتفاعل بين العلم والفن، مستمر يمتد إلى عمق التاريخ، فكل الحضارات الإنسانية تتحدد من خلال الآثار الفنية التي تشهد على انجازاتها الحضارية خاصة في ميدان العمران، الأهرامات في مصر مثلاً، وصور الصين العظيم، وقليلاً ما تذكر الحضارات بانجازاتها العلمية، فيؤصل "**فيرابند**" للفن إذ يقول" كل النشاطات الإنسانية الحالية ومهما كان نوعها ترجع في الأصل إلى الفن."[1]

يؤكد "**فيرابند**" على التفاعل الموجود بين العلوم والفنون بحيث تطورت الفنون عندما أصبحت تستخدم من طرف العلماء خاصة في مجال الهندسة والعمران والرياضيات في تحديد الأشكال والرسومات والألوان، أعطى المنشآت والعمران الصفة الجمالية، واستعانت العلوم بالفنون من خلال الذوق الجمالي الناتجة عن مخيلة الفنان في مساعدة العالم على تجاوز الواقع وتحرر الفكر ليصل إلى درجة الإبداع، لذلك يدعو "**فيرابند**" العلماء للتقرب من الفنانين لأن ذلك يساعدهم على إنتاج نظريات تصف الواقع بطرقة جمالية" إذ يقول:" يستطيع علماء النفس وعلماء البيئة وخبراء العلاقات الإنسانية أن يتعلموا الكثير من الشعراء وكتاب القصة و الممثلين."[2]

---

[1]-Feyerabend Paul, la science en tant qu'art, tra de l'allemand par Françoise Pèrigaut ,édition Albin Michel S.A, 2003, paris. p10.

« Toutes les disciplines actuelles étaient à l'origine des art »

[2] - فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص 205.

يعتقد الكثير من علماء الفيزياء المعاصرين أن الصفة الجمالية ضرورية في البحث العلمي، فبقدر ما تكون الظاهرة ذات طابع جمالي بقدر ما يكون لها جدب يحفز الباحث على الاكتشاف والتعرف عليها أكثر "فالفيزيائي "ريتشارد فيمان(Richard Feynmann) "يرى أن المرء يمكن أن يستبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها ويعلن هايزنبارغ، إن الجمال في العلوم الدقيقة وفي الفنون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الاستنارة والوضوح."[1]

إن الإنسان كائن وجداني فهو لا يحتاج فقط للمعارف العقلية الموضوعية التي ينتجها تحت الطلب وبإتباع نسق معين كثيراً ما يكون مخالفاً للوقائع ولا يعكس حقيقتها، بينما الأمور الوجدانية كالأحلام والخيال والاعتقاد وكل مظاهر الجمال تستجيب إلى حاجاته النفسية كما يراه الفرد ويعتقد فيها دون زيف ولا تحريف، فاللامعقول يحمل ويعكس حقيقة التوازن الشخصي وأي هيمنة من العقلانية المتطرفة تخل بهذا التوازن وتمحو منابع الوهم والخيال الفني فيبقى حبيس المخيلة ولا يفصح عن نفسه بسبب الرقابة التي تمارسها العقلانية العلمية والمنهج المتصلب، لذلك يدعو "**فيرابند**" إلى التحرر من هذه الهيمنة وترك العنان للقدرات الذاتية القائمة على الخيال بتنمية التنوع والاختلاف والابتعاد عن التنميط المميت، وتمجيد التعدد الذي يخرج الباحث من ضيق المنهج إلى سعة التعددية التي تفتح مجال الاشتغال على المسار التخيلي، إذ يؤكد قائلاً: إن تاريخ الفن قدم لنا طرق تقنية مختلفة ووسائل متنوعة استعملت لأغراض عديدة تتأقلم مع ما يحدده الإنسان من أهداف."[2] خلافاً للعقلانية العلمية التي أصبحت تعالج قضايا ضيقة تم تصنيفها ضمن المعقولات.

يرى "**فيرابند**" أن الفن يمثل علاجاً لأمراض العقلانية العلمية الداعية إلى تجاوز كل التصورات الميتافيزيقية، فالنشاطات الفنية تنمي رغبة الإنسان في الحياة من خلال تفعيل

---

[1]- نقلاً عن روبرت م.أغروس وجورج ن. ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب -الكويت، 1989م، ص44.

[2]- Feyerabend Paul, A dieu la raison, Op.cit., p177.
« L'histoire des arts nous présente une variété de techniques et de moyens de représentations qui ont été utilisés pour des raisons diverses et adaptés à déférents buts »

الإحساس والوجدان والخيال، ولا يفهم من هذا أنه يريد استبدال الفن بالعلم بل يريد فقط أن نعطي للتقاليد الاجتماعية من بينها الفن نفس الفرصة التي أعطيت للعلم بل يدعو إلى تعايش بين قوى العقل و قوى اللامعقول دون إقصاء عنيف لمتطلبات الخيال والوجدان النفسي والاعتقاد ودون تفضيل للأحكام المطلقة للعقل والمنطق والعلم الموضوعي، " يريد "**فيرابند**" أن يجعل الفن في نفس مستوى العلم مبيناً دور الفنون في تطوير المعرفة الإنسانية، يقول:" إن ثراء عملية المعرفة وتغير الانفعالات والاتجاهات من خلال الفنون، كل ذلك يبدو لي الآن مشروعا، له ثمرات كثيرة جداً، كما أنه ذو طابع إنساني بالغ الأهمية من أي محاولة للتأثير في العقول عن طريق الكلمات."[1]

يشير"**فيرابند**" إلى دور الفن في التعامل مع حقيقة الواقع كما هو خلافاً للعلم الذي يقدم أنماط نظرية لا تعكس لنا حقيقة الواقع ولقد أشرنا إلى هذه الخصوصية، في الفصل الثاني من البحث في علاقة النظرية بالملاحظة والخبرة، وبّين بأن النظرية لا تبنى من خلال الخبرة بل هي محملة حمولة اجتماعية ثقافية وإيديولوجية، لذلك فهو يرى أن الفن أكثر فعالية من العلم اتجاه الواقع لأنه يعكس ماهو معمول به وممارس في الحياة اليومية للإفراد، لذلك دعا إلى إدماج الفن وكل التقاليد الأخرى بما فيها السحر في برامج التعليم، فهو يتساءل والغرض من ذلك تبيان أهمية و نجاعة هذه التقاليد في تطوير الحياة الجماعية نحو الأفضل فيقول:" وليست جماعية النظريات والآراء الميتافيزيقية هامة للمناهج فقط، بل هي أيضاً جزء أساسي من النظرة الإنسانية، ولقد حاول المعلمون التقدميون دائماً تطوير فردية طلابهم، لإظهار المواهب والمعتقدات الخاصة والمتفردة أحياناً، لدي الأطفال، مع ذلك بدا هذا التعليم دائماً على أنه تمرين عقيم على أحلام اليقظة...أليس من الضروري إعداد الشباب للحياة كما هي بالفعل؟ هل لا يعني ذلك لأنهم يجب أن يتعلموا مجموعة محددة من الآراء لاستنتاج أي شيء أخر؟ إذا ظل أثر لخيالهم، هل لن يجد تطبيقه المناسب في الفنون؟ هل لن يؤدي هذا الإجراء في النهاية إلى الانقسام بين الواقع المكروه والخيالات المرحب بها بين العلم والفن،

---

[1] - فيرابند بول،العلم في المجتمع الحر ،مصدر سابق، ص130.

الوصف الدقيق والتعبير غير المقيد عن الذات؟... من الممكن الاحتفاظ بما يسميه المرء حرية الإبداع الفني واستخدامها بالكامل، ليس كوسيلة للهرب، بل كوسيلة أساسية لاكتشاف ملامح العالم الذي نعيش فيه."[1]

هذا العالم الذي نعيش فيه حاول العلم أن يكشف حقيقته لكن بقيت الكثير من الأسرار خفية عن الحقيقة التي لا يمكن الكشف عنها بواسطة العلم فقط بل لا بد أن تتدخل في عملية الكشف تقاليد أخرى، فالعلم أظهر فعاليته على المستوى النظري أكثر وذلك بالحفاظ على التناسق والتناغم المنطقي للأفكار وبإتباع منهج محدد يعمل على المعطيات الشكلية الظاهرية و يهمل حقيقة محتوى الواقع.

أحيانا يجد العلم نفسه في مواجهة مجموعة من التناقضات القائمة بين المحتوى النظري وحقيقة الواقع المراد دراسته، هذا الواقع يفرض على العالم مخالفة الكثير من المعطيات النظرية وممارسة أساليب يفرضها الواقع وهنا يضطر إلى استخدام أساليب فنية تتعلق بالجانب الشكلي دون الخوض في الممارسة الحقيقة لمحتويات الدراسة العلمية فما نعرفه من الطبيعة يتعلق بالجانب الظاهري وليس بما تحمله الظاهرة من حقائق، يقول "**فيرابند**":"إن العلوم تتحول إلى فن، ليس باستخدام الألوان أو النحت على الحجر، أو إنشاء قطع موسيقية لكن بواسطة الأفكار الثائرة التي تؤدي إلى تقدم واقعي."[2]

هذه الواقعية جعلت الفنان يتفاعل مع المجتمع بطريقة ايجابية رغم أنه وفي كثير من الأحيان يقدم أعمالاً تخالف مبدأ المعقولية السائدة ويخالف القوانين المفروضة من طرف السلطة، فالكثير من الفنانين عرفوا شهرة عالمية في أوساط المجتمع الدولي أكثر من الذين تحصلوا على جائزة نوبل في الطب والفيزياء، يستطيع الفنان التأقلم مع الحياة الاجتماعية،

[1] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص76.

[2] -Feyerabend Paul ,la science en tant qu'art ,Op.cit. , p96.
« Les sciences deviendraient ainsi des arts, non pas de la peinture, de la pierre ou des sons, mais des idées, qui seraient parvenus par une Habile manœuvre à créer un progrès réel »

وينشأ حواراً مع المجتمع من خلال انتاجاته الإبداعية المجددة للشعور وللفهم وللعيش كذلك سواء كان ذلك بواسطة الشعر أو الأدب أو المسرح أو الرسم و الموسيقى فالكثير من الفنانين تبنوا قضايا شعوب وكشفوا عن معاناتهم بواسطة الفن أكثر من أصحاب القرار السياسيين، فما يقدمه الفنان في نظر "**فيرابند**" أكثر مما يقدمه العالم، فهو يمجد عمل الفنان و يعتبره عملاً إنسانياً يقدم خدمة للإنسانية دون اعتبارات مصلحيه، إذ يقول:" إن ينسوري، وكوفمان، وإستوفان، في ميزان القيم أعلى عندي من أينشتاين وكانط، وغيرهما."[1]

إن الخطاب الموجه من طرف الفنان هو خطاب عام غير إقصائي غرضه مشاركة الناس أفراحهم وأحزانهم خلافاً لخطاب العالم المترفع الموجه للفئة معينة تدعي النخبوية والعلمية فالفنان يتعامل مع جميع الناس ويستخدم كل طرق التواصل التي يفهمها الجميع، فيعبر بصورة جلية وواضحة عن مشاعر ورغبات ومواقف الإنسان اتجاه قضاياه المصيرية، فلسان الفنان هو لسان الحال الذي يزيل القلق والتوتر الناتج عن الضغط جراء الالتزامات العقلية التي جعلت الإنسان المعاصر أسير الآلة والأنظمة التكنولوجية المادية، إن الفنان يستخدم أساليب مختلفة باختلاف المواقف والمواضيع ليخفف من معاناة الإنسان، ويتجاوز الخطابات اللفظية التي غالباً ما تنظم في قوالب جامدة، إن مفعول الفن على الإنسان أكثر قوة من مفعول العلم، لذا وجب على العلماء السير وراء خطى الفنانين حتى يتمكنوا من الإبداع الحر.

هناك الكثير من الشواهد المقتبسة من تاريخ العلم التي تبين اهتمام العلماء بالفن، فلقد "اهتم "كوبرنيك" بالفنية والجمالية خلال حياته الطلابية واهتم بمسائل المنظور وربما كانت لفكرة زاوية الرؤية الملازمة للمنظور دوراً في بلورة النسق الفلكي–الكسمولوجي– الجديد، ولو بشكل غير مباشر وكان "كوبرنيك" يتابع الإنجازات الفنية عن كتب، وربما مارس الرسم بنفسه إضافة إلى علاقاته مع بعض المتميزين في التصوير والنقش...ولا يشكل "كوبرنيك" حالة منفردة، لأن جل العلماء انشغلوا بفن واحد من الفنون على الأقل، كما انشغل الفنانون

[1] - فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص138.

بالآليات الهندسية، وبالعلوم الأخرى بدرجات معينة، ولم تبرح الاعتبارات الجمالية ساحة العلوم، بل ظلت تشكل مكوناً ملازماً للبناء العلمي في كل الفترات التاريخية من تطوره إلى اليوم."[1]

يتضح من خلال ما سبق أن "**فيرابند**" يدعم دعواه في شأن الفوضوية الإبستمولوجية خصوصاً وأن الأسلوب الفني الذي يفضله ومند صغره، الحركة الددائية في المسرح حيث أنه مارس هذا النوع من المسرح في "براخت" وان عدم استمراره فيه كان خطأ فادحا، فإلحاحه على أهمية الفن في تطوير العلم لم يأتي من فراغ بل هو نتاج لرغبته الفنية التي وجد فيها تناسباً مع فلسفته المتحررة من كل الالتزامات والقيود المنهجية، فالفنان الدادي هو الذي يرفض كل أنماط التقيد والالتزام.

3-الدين وحدود العلم:

إن إشكالية العلاقة بين الدين والعلم تعد من أهم الإشكاليات الفكرية المعقدة وهذا راجع للصراع التاريخي بين الكنيسة والعلم الذي يعود إلى بداية عصر النهضة، حيث استحال الجمع بين الكنيسة والعلم، فنشأ في الوعي الأوروبي صراع القائم على هذه الثنائية المتعارضة، فالمتصفح لتاريخ الغرب وتحولاته الفكرية والمعرفية التي صنعت حاضره يدرك أن قيام حداثته كانت على أنقاض القطيعة مع الدين والجوانب الروحية، هذه القطيعة نقلت المجتمع الأوروبي من سيطرة المسيحية إلى عصر الأنوار، وظهر ما يسمى بالحضارة الغربية، حيث أصبح العلم هو عنوان التحضر ومعيار العقلانية مما أدى بالعالم الغربي اليوم إلى التعامل مع الأفكار وطرق التعبد الدينية بصورة محدودة ناتج عن الفصل بين الدين والعلم، فلكل واحد مجاله الخاص لقد احتل العلم في المجتمعات الغربية مكانة مرموقة

[1] - البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص401.

وأصبح عقيدة، أما الدين وظيفته ثانوية تظهر عندما يعجز العلم عن تفسير قضايا الوجود،"صار الدين غير مرغوب فيه في أوساط العلماء بسبب ما قام به رجال الكنيسة مثلاً من تصرفات لا إنسانية، بحيث فتراء على اليهود، واستحيوا النساء وقتلوا ألآلاف البشر باسم الدين."[1]

يؤكد "**فيرابند**" أن هذه الفكرة السلبية عن الدين مبالغ فيها، فالدين له وجه أخر سلمي يعتني بالإنسان ويحافظ عليه ويحرم قتله أو الإساءة إليه، لقد كان الدين ولا يزال أحد أهم الركائز التي تساهم في بناء المجتمع، فتطور الأمة مرهون بقوة مدى تمسكها بالدين، فالأديان عنصر من عناصر تقوية الأمة، فالتاريخ بين لنا أن الكثير من المجتمعات وصلت إلى قمم الرقي الحضاري بفضل الدين، والمجتمع الإسلامي في العصور الزاهرة إلا دليل على ذلك، كما أن الثورة الفرنسية التي دفعت العالم إلى التحضر هي نتاج للثورة الدينية التي قادها "**مارتن لوثر**"* (Martin Luther) التي فعلت العقل في التفكير ودفعته للبحث عن المبادئ الفلسفية للإحاطة بالنظر في أحوال الكون،" إنه لمن الخطأ – بكلمات الفيلسوف الشاب كانت بناء حكم عام– أن نعتقد بأن العلم الطبيعي اعتمد كشرط أو نتيجة محتمة إطلاق المادة، ميكنة الحياة والإنسان، ووداع الله من هذا العالم وداعاً لا لقاء بعده، إذ على العكس، فقد كان ممكناً فوق أرضيته حكمة دينية جديدة لحقيقة الموقف واتخاذ موقف... من المادة تنزع به الشوائب التي لا زالت عالقة بها من قبل "توماس –اكوين"، وأن يرتفع بها إلى مرتبة برهان إلهي منظور، مدرك، يمكن التعرف إليه، كسبب لكل ماهو صغير وكبير، لكل

---

[1] -Feyerabend Paul , la tyrannie de la science, Op cit, p23.
«Les scientifiques sont déjà beaucoup trop satisfaits d’eux-mêmes. En outre, les chrétiens, pour ne prendre qu’un exemple, n’ont pas été des gens de bien. Ils ont calomnié les juifs, ont humilié les femmes et tué des centaines de milliers de gens au nom de la foi »

*- راهب ألماني وقسيس، أستاذ للاهوت، عرف بإصلاحه للكنيسة من خلال اعتراضه على ما يسمي بصكوك الغفران.

ما فيه حياة وما ليس فيه، ولكل القوى المؤثرة الموجودة في الطبيعة والانتظام الداخلي. وهذه الوحدة الداخلية للكون كله، هي الفرضية الأصلية لكل المعرفة العلمية في الفهم الأوروبي."[1]

لا يمكن لأحد أن ينكر دول العلم في تقدم الإنسانية لكن لا يعني ذلك إهمال عناصر الحياة المختلفة التي لها دور في التعامل مع قضايا لا يستطيع العلم اقتحامها، فنجد أنه كلما أحرز الإنسان تقدماً في العلم أخذته نشوة التقدم وعظمة الانتصار إلى رفض كل التقاليد الأخرى معتقداً في العقل العلمي اعتقاد مطلق لا حدود له، فيندفع للسيطرة على جميع ميادين الحياة فارضاً منطق العقل،"لكن ليس بالعقل وحده يحيا الإنسان فهناك الإيمان يقف شامخاً بجوار العقل، فبالعقل يكتمل الإيمان وبالإيمان يقوى العقل، وإن عجز العقل أمام بعض حقائق الإيمان الغيبية لذلك فعلى العقل أن يسوس القوة الممنوحة له، ويزداد تمسك الإنسان بالإيمان كلما شعر بغربته وضالته في الحياة بل وفي الكون بمساحاته اللامتناهية".[2] إن طريق العقل يختلف عن طريق الأيمان وهذا الاختلاف هو الذي يحمل القيمة الإيجابية للتعايش بين مختلف التقاليد ويجعل المجتمع أكثر تماسكاً دون أن يفرض تقليد قيمه على الأخر هذه الحرية التي ينشدها "**فيرابند**" المبنية على احترام الغير وتقدير ممتلكاته العرفية والقيمية.

لقد كشفت الدراسات النسباوية القائمة على النقد في مجال فلسفة العلم عن تهافت تصورات الوضعية التقليدية التي حاربت الميتافيزيقا، فلم يعد العلم حقيقة مطلقة وأن كل الحقائق تكون فعالة وصحيحة داخل النسق المعرفي التي نشأت فيه، فتراجعت الأفكار القائلة بالموضوعية والحتمية وفتح المجال للتسوية بين العلم والتقاليد الميتافيزيقية بما فيها التفكير الغيبي الديني، فالشعار الذي تبناه "**فيرابند**" "كل شيء جائز" يفتح المجال أمام الاعتقادات الدينية من دخول مجال المنافسة المعرفية ومشاركته في تنمية المعرفة العلمية خاصة وأن للدين دور اجتماعي هام ناتج عن تلك الروابط الروحية التي تجمع بين الأفراد، ورغم

[1]- زيغريد هونكه، العقيدة والمعرفة، ترجمة عمر لطفي العالم، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط1، 1987م، ص232-233.

[2]- إبراهيم مصطفي إبراهيم، في فلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا لطباعة والنشر، الإسكندرية، ط2000 1 م، ص197.

المحاولات التي قام بها دعاة الحداثة للتقليص من دوره واتهام أتباعه بالرجعية والتخلف سار الدين الآن ظاهرة معرفية يستقطب اهتمام العلماء.

يؤكد "**فيرابند**" أن الاعتقاد الديني كان له دور لا يقل أهمية عن دور العلم بل أكثر، فكان الناس يلتجئون للدين للتخفيف من معاناتهم،" فبالرغم من معاناة الناس بسبب الطاعون، والحروب، والجفاف...والعصابات التي كانت تقتحم القرى، تقتل الرجال وتستحي النساء وتحرق المنازل، فحرب الثلاثين سنة مثلاً عرفت كل أنواع القهر والاضطهاد ورغم كل ذلك بقية الناس متمسكين بالإيمان المسيحي وكان الدين بالنسبة لهم الملاذ الوحيد لتخفيف من هذه المعاناة."[1]

يبين "**فيرابند**" أن كل محاولة العلم للتقليص من فعالية الدين داخل المجتمع باءت بالفشل لأن العلم لا يمكنه أن يمثل البديل ولا يمكنه أن يحل محل الدين، فما قدمه العلم عن معرفة الكون والوجود ضئيل ولا يوفي بالغرض، فالكثير من الأسئلة طرحها الإنسان عن حقيقة الكون لم يتمكن العقل من الإجابة عنها، لدى يبقى الاستئناس بالدين ضروري في المسائل الغيبية فهو يخاطب ماهو جوهري في الإنسان "**الروح**"، ويتحدث عن المغزى من وجود الحياة لكن ليس هذا ما في الأمر، أصبح الدين مصدر للمعرفة العقلية ويرجع له السبق في الإخبار عن الكثير من الحقائق قبل أن يخبر بها العلم، يقول "**فيرابند**":"إن الخطاب العلمي سواء أكان استقرائياً أو استنباطياً تجريبياً أو نظرياً لا يمتلك شرعية أقوى من تلك التي تمتلكها النبوءة الدينية."[2]

---

[1] -Feyerabend Paul , la tyrannie de la science ,Op cit, p123.
« Il y a eu des pestes, des guerres, des tempêtes…des bandes de voleurs et des armées envahissaient les villages, tuaient les hommes, violaient les femmes, mettaient le feu à leurs maisons-la guerre de trente ans a été pleine de ce genre d’evenements.et pourtant, la foi perdurait, devenait même plus forte et guidait les gens à travers leurs malheurs »

[2] -science, religion, philosophie une consalutaire, article de Bernard jolibert, revue et corrigée, octobre 2001,p14.
« Le discours scientifique qu’il soit inductive ou déductif, empirique ou théorique ne possède pas plus de légitimité pour rendre compte du réel que la prophétie religieuse »

لقد تغير الأمر في الغرب وأصبح رجال الدين يستقطبون اهتمام الناس أكثر من رجال العلم، فلقد أصبحت المؤتمرات والدورات الدولية تقام بتزكية من رجال الدين، وتشن الحروب باسم الدين، فالحرب التي دعي إليها "بوش الابن" كانت من منطلق ديني عندما صرح بالحرب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين كما أن التكهنات في ميدان السياسة الدولية لم تصر حكراً على المتخصصين في ميدان الجيوسياسية بل أصبح الكهنة والعرافون يدلون بآرائهم في قضايا دولية هامة.

بدأت قيم الحداثة تتلاشى في المجتمع الغربي وظهرت في الأفق ملامح توحي بعودة الميتافيزيقا من جديد، فأصبح الناس يلجئون للعرافين والكهنة والمشعوذين لحل مشاكلهم اليومية أما في مجتمعاتنا العربية فالأمر أكثر تغلغلاً، فطرق المعالجة الدينية (الرقية الشرعية) أصبحت وسيلة لعلاج الكثير من الأمراض النفسية والعضوية منها، في المقابل أفرزت الممارسات العلمية الكثير من المظاهر السلبية بسبب اقتحامها الفطرة الطبيعية وتغييرها عن مسارها التي خلقت من أجله، فنتج عن ذلك مشاكل عديدة أصبحت تهدد البشرية كالاحتباس الحراري والحروب والأمراض الناتجة عن استهلاك المواد المصنعة، لذا أصبح من الضروري العودة مجدداً إلى الإنسان والأخلاق من منظار قائم على تفعيل الوعي الديني واحترام عقيدة البشر وجعلها سنداً للعلم لا مناقضة له، إن تاريخ الفكر البشري شاهد على أن المعرفة الإنسانية ذات طابع متعدد ومتنوع، لقد سيطر الفكر الغيبي حيناً والفلسفي حيناً، والعلم التجريبي حيناً أخر، دون أن يحوز أي منهما النصر الحاسم، لقد أضفى الإنسان على العلم التجريبي صفة التقديس ظناً منه أنه مطية لفهم كافة أسرار الكون، معتمداً في ذلك على التفسير الحتمي للطبيعة وإخضاعها لصارمة نظام العلم، فالتفسير الميكانيكي جعل "نيوتن" يشبه حركة الكون وكأنها ألآلة مضبطة تتحرك بشروط تجعلها تسير على نمط واحد يمتد من الماضي إلى المستقبل، وامتد هذا التفسير ليشمل كل مجالات المعرفة العلمية بعد الفيزياء، وضع "داروين" تصور مشابه لتطور الخلائق، وأصبحت العلوم

الإنسانية تخضع بدورها إلى التفسير الحتمي، لكن بحلول القرن العشرين تعرض هذا التفسير لمراجعة حاسمة خاصة بعد دراسات "ماكس بلانك" في نظرية الكمية، ودراسات "أنشتياين" في النسبية، فتغير الكثير من المفاهيم حول الزمان والمكان والكتلة والطاقة فطبيعة العلم متغيرة نسبية لا تعرف الثبات، فهي قاصرة على تفسير كل الظواهر، يؤكد "أنشتياين" قائلاً:"على كل باحث طبيعي متعمق أن يكون على مقربة من نوع ما من الشعور الديني، لأنه قد لا يستطيع أن يتصور بأن الصلات الدقيقة النادرة، التي يخشاها قد صدرت عنه بادئ الأمر، ففي الكون المبهم يتجلى فهم تأن بغير حدود."[1]

يؤكد "**فيرابند**" من جهته أن العلم حقق نجاحات على مستوى الواقع، فسهل حياة الناس من خلال نتائجه التقنية لكن بقي جزء هام في حياة الناس لا يستطيع العلم أن يسيرها أو يتحكم فيها إنها الحياة الداخلية المرتبطة بالكيان الروحي، إذ يقول" يمكننا أن تتبع العلم عندما يتعلق الأمر بالحياة العملية التطبيقية، حيث أثبت فعاليته لكن العلم يتوقف عندما يتعلق الأمر بجوانب أخرى من الحياة بحيث تتدخل مصادر مخالفة للعلم."[2]، المقصود بهذه المصادر المخالفة "**الدين**".

يرفض "**فيرابند**" القول بفكرة المنهج الصارم القائم على الملاحظة المحسوسة والتجارب المضبوطة والقياسات الدقيقة التي تجعل من المعرفة ذات طابع موضوعي، وتقوم بصقل كل مكونات الثقافة والحضارة وجعلها تسير في خط متعالم واحد منتظم، وإقصاء الأفكار الميتافيزيقية والعقائدية الغيبية من دائرة المعرفة أمر يضر بالعلم، لذا فهو يدعو إلى ضرورة تفعيل كل التقاليد الموجودة في المجتمع، فالثقافة الغنية هي تلك التي استفادت من التنوع والتعدد الموجود في المجتمع، فعلى العلماء التفتح أكثر على مجال اللامعقول مع المحافظة

---

[1] - زيغريد هونكه، العقيدة والمعرفة، مرجع سابق، ص243.

[2] -Feyerabend Paul , la tyrannie de la science, Op cit, p80.

« Vous pouvez tout aussi décider de prendre la science pour guide dans la vie pratique- et ici la science a été efficace mais seulement jusqu'à un certain point – et construire le reste de votre vision du monde à partir de sources entièrement différentes »

على خصوصيته ودون وضعه في قوالب نمطية صارمة تحد من الإبداع، إذ يقول:"العلم، الدين، الفلسفة يقدمون تصورات موحدة تعكس لنا العالم، والمعايير التي من شأنها أن تميز بينها ترجع فقط للاختلافات الثقافية."[1]

لقد صنع العلم لنفسه نمطاً بحثياً يعتمد التجربة في التفسير المادي للظواهر من خلال الكشف عن الأسباب الحقيقية والظاهرية وصياغتها على شكل قوانين، وبإتباع منهج محدد هذا ما جعله يتربع على عرش المعرفة ويكتسب مزايا عظيمة مكنته من وضع اليد على الواقع، لكن هناك الكثير من الأمور في البحث التي تتجاوز الطرح المادي للعلم، خاصة عندما يتعلق الأمر في البحث عن ماهية المادة والقوة، وأصل الحركة ...الخ، هذا البحث يخرج عن نطاق التجربة المادية للعلم "فالتجربة تقرر قوانين أو العلاقات الدائمة بين الظواهر ولكن ليس للتجربة سبيل إلى معرفة أهذه القوانين وقائع أم أنها ترتبط بطبيعة ما ثابتة تهيمن على الوقائع."[2]

لا يمكن للعلم أن يدعي معرفته للواقع فالقوانين التي ينتجها ويصف بها الظواهر تكشف فقط عن علاقات منطقية بينما جوهر الظواهر يبقى خفياً، فالعلم ليس تمثيلاً كاملاً للوجود بل طريقة معينة في إدراكه وهذه الطريقة تبقي محدودة مقارنة بمتطلبات الحياة الاجتماعية والمعتقدات، فإيمان الإنسان بقوانين الإنسانية وقيم الخير هي التي تدفعه إلى الطاعة بل إلى التضحية إن اقتدى الأمر ذلك، فما يفعله الدين في حياة الناس لا يمكن للعلم أن يفعله، فالعلم لا يستطيع أن يكشف عن الحياة الباطنية للفرد بواسطة القوانين والتجارب إن العواطف ومشاعر تتحرك بدافع ديني، وهي أكثر يقيناً في قانعة الفرد من العلم، إن المجتمع الحر

---

[1] - Science, religion, philosophie une consalutaire, article de Bernard jolibert, revue et corrigée, octobre 2001,p15.

« Science, religion, philosophie, tout est équivalent puisque tout est reflet d’une conception singulière du monde et que les critères qui permettraient de les distinguer sont eux mêmes culturellement situées »

[2] - بوترو إميل، العلم و الدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة احمد فؤاد الأهواني،الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ب ط)، 2009م، ص190.

الذي يدعو إليه "**فيرابند**" يجعل الناس يخلصون إلى المجتمع من منطلق إنساني وليس لأنهم نتاج ميكانيكي للتنظيم الاجتماعي.

إن المضايقات التي يمارسها العلم والعلماء على الدين بحكم أنه ظاهرة ميتافيزيقية، يهتم فقط بتحديد علاقة الفرد بربه ويحدد المبادئ الجوهرية التي يتماشى عليها المؤمن، لكن هؤلاء تناسوا التحقيق الفعلي والواقعي للدين داخل المجتمع، فالدين له اتصال مباشر بحياة الناس ومشاكلهم فهم يلجئون للدين في حلها أكثر مما يلجئون للعلم، فالعقائد والشعائر الروحية تعيش وتتحرك داخل التجربة الحياتية أكثر مما تعيش في النصوص.

إن الصدام التقليدي بين العلم والدين هو نتاج القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهما عصر ظهور العلوم الحديثة وبعد الكثير من الاكتشافات العلمية ظنا الناس أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الدين وأنه بإمكان العلم أن يفسر الكون دون العودة إلى التحليل الديني والمعتقدات، لكن هذا الإدعاء أصبح ضعيفاً لأن العلوم اليوم أصبحت تقر بعدم وجود أدلة كافية لمثل هذه الإدعاءات،" لقد فقد العلم اليقين المطلق الذي أراد "نيوتن" تثبيته، وبدخول أبواب القرن العشرين، حل "أينشتاين "محل "نيوتن" كما أن العالمين "بلانك" و"هايزن بارغ" قد أبطلا نظريات"لابلاس".

لقد فقدّ معارضو الدين اليوم تلك المكانة التي كانت تسمح لهم بمثل هذه الإدعاءات التي لا يزالون يرددونها زاعمين أن لها أساساً علمياً، إن نظرية النسبية وقاعدة الميكانيكا الكمية"الكوانتم" قد أوصلتا العلماء إلى الاعتراف بأنه لا يمكن الفصل بين المشاهِّد والموضوع المشاهَد...ومعناه أنه ليس في إمكاننا إلا أن نشاهد بعض مظاهر الخارجية من أي شيء، وأننا لا نستطيع أن نشاهد حقيقته الجوهرية، إن الثورة التي وقعت في الحقل العلمي في هذا القرن قد أثبتت أهمية الدين من وجهة نظر العلم نفسه."[1]

[1]- وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، دار النفائس، بيروت، ترجمة ظفر الإسلام خان، مراجعة عبد الحليم عويس، ط4، 1978م، ص68-69.

4-العلم والإيديولوجية:

كثرت الدراسات حول علاقة السلطة بالعلم واختلفت الآراء بين مؤيد ومعارض لتدخل رجال السياسة في العمل العلمي، فإذا كان الهدف من العلم هو خدمة البشرية وهذا هو الهدف المباشر لأي إنتاج علمي، تحجج المؤيدين بتدخل رجال السياسة حماية للمصلحة، أما المعارضين فيعتبرون تدخل رجال السياسة في العلم يشكل عائق أمام الكشف عن الحقيقة من خلال تسخير العلم لخدمة الأغراض السياسية ومن منطلق تبريرات إيديولوجية، وهذا الطرح يتماشى مع موقف "**فيرابند**" من الأيديولوجية في علاقتها مع العلم.

إن التطور الذي عرفه العلم في ميدان التكنولوجيا خاصة الحربية منها جعل رجال السياسة يتمسكون به ويعتبرونه السند القوي للمحافظة على سلطتهم، فأصبح العلماء عبيداً للرجالات السلطة وأصبح العلم حبيساً داخل أسوار وأروقة النظام الحاكم، لذا يدعو "**فيرابند**" إلى تحرير العلم وفكه من قبضة الصراعات الإيديولوجية، لقد غادرت البراءة البحث العلمي مند أن أصبح العلم في يد السلطة.

يرى "**فيرابند**" أن العلم تحول إلى إيديولوجية بعد أن نصب نفسه حكماً على باقي التقاليد الأخرى، وأراد أن يهيمن على كل الأيديولوجيات الموجودة في المجتمع، "فمند انطلاق النهضة الأوروبية دخل العلم مضمار المنافسة مع باقي الأيديولوجيات من حيث الأهمية والهيمنة على المجتمع خاصة الدين الذي كان جزءاً من البناء الأساسي له، وبما أن

المجتمع والدولة لم يعلنا بعد أفضلية العلم على باقي الإيديولوجيات في ذلك الحين، نرى العلم في هذه المرحلة يتبوأ نزعة وقوة تحررية، يؤكد فيرابند أن هذه النزعة التحررية للعلم ليس بفضل عثوره على الحقيقة، ولا بفضل منهجه الصحيح المطلق، ولكن بفضل دوره الريادي في هذه المرحلة بالحد من تأثير وهيمنة الإيديولوجيات الأخرى وعلى رأسها إيديولوجية الدين."[1]

لقد تمكن العلم من الإنتصارت وفرض إيديولوجيته على باقي الأيديولوجيات الأخرى، وانتقلت قداسة الدين إلى قداسة العلم وتخلى عن مهمة الأساسية في الكشف عن الحقيقة وتحرير الإنسان من الأوهام، لقد أصبح العلم يمثل الجزء الهام من البنية الاجتماعية وتلاشت قوى التقاليد الأخرى التي كان لها دور مهم في تماسك النسيج الاجتماعي، لقد أصبح العلم وبعد هذا الانتصار حقيقة ثابتة تفسر الوجود وفق نظام معين، ويقوم بإقصاء كل محاولات التفسير المخالفة له، إن العلم أنتج نظاماً مغلقاً يفرض أرائه ويعتبرها حقائق لا تقبل النقد ولا ينتابها الشك بذلك صار العلم مجرد إيديولوجية، إن الدول الحديثة في نظر "**فيرابند**" تتظاهر بالديمقراطية وتتغنى بالحرية لكن الممارسة تبين أن البرامج السياسية الحكومية في مختلف المجالات تحمل تأثيرات دينية وخرافات أسطورية وأحكام مسبقة، هذه التأثيرات تسربت إلى منظومة النظام الحاكم بواسطة الأفكار التي تتبناها الأحزاب والجمعيات ذات الطابع السياسي، فهو يؤكد "أن أي نظرية تكتسب نجاحاً بفضل ولائها للسلطة."[2] في مجال التربية والتعليم مثلاً يبين "**فيرابند**" أن مدارسنا تدرس مبادئ الدين باعتبارها معطيات تاريخية لا غير وليس باعتبارها عناصر تحمل حقيقة معينة، "فالمواد العلمية إجبارية بينما التربية الدينية تترك لاختيار الأولياء في إتباع منهج ديني معين دون تدخل من الدولة، فيمكن أن نعلم أولادنا التدين بالبروستنتانية أو بالأيمان اليهودي لكن الأمر في دراسة العلوم

---

[1] -موسي كريم، فلسفة العلم منة العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص409-410.

[2] -Feyerabend Paul, problems of empiricism, philosophical papers, volume 2,cambridge university press,1981,p47.

« the theory is successful, because the rule has been obeyed »

لا يخضع إرادة الأولياء، فالطفل مجبر على تعلم الفيزياء وعلم الفلك والتاريخ ولا يمكنه تعلم السحر والتنجيم ودراسة الأساطير."[1]

لقد انتهكت كرامة الإنسان باسم العلم وتغير مساره وعوض أن يقدم خدمات للإنسانية أصبح يهدد كيانها، كل هذه الاعتبارات دفعت "**فيرابند**" للتساؤل عن مستقبل العلم في علاقته مع السياسة مؤكداً أن الدول الحديثة في أوروبا تمكنت من الفصل بين الدين والدولة، "إلا أن الدولة والعلم لا يزالان يعملان عن كثب بحيث أصبحت الدولة تنفق مبالغ طائلة من أجل تجسيد مشاريع علمية دون الحصول على أية فائدة من ازدهار العلم... حتى العلاقات الإنسانية أصبحت تخضع للدراسة العلمية الصارمة كما هو الشأن في برامج التربية واقتراحات تهذيب السجون إلى جانب التجهيزات والتدريبات العسكرية...الخ."[2]

لقد عانت البشرية كثيراً من تدخل رجال السياسة في العلم حيث استغل البحث العلمي لأغراض حربية أدت إلى نشوب حربين عالميتين ذهب ضحيتها ملايين البشر، إن هدف الرجل السياسي هو تحقيق مكتسبات سياسية ونفعية وإن كان ذلك على حساب الضحايا من البشر" فالعلم ليس في منأى عن التلاعبات والحسابات السياسية الضيقة، فهناك علاقة بين الفرضيات العلمية المدعمة والسلطة السياسية والمؤسسات القائمة."[3]

---

[1] -Feyerabend Paul , Contre la Méthode, OP Cit ,p339.
« toutes les matières scientifiques sont obligatoires dans nos ècoles.si les parents peuvent décider de le faire instruire dans les rudiments du protestantisme ou de la foi juive ou décider tout simplement de ne pas lui donner d'instruction religieuse,il n'ont pas la même libertè dans ce cas des sciences, il faut absolument apprendre la physique, l'astronomie, l'histoire. On n'a pas le droit de les remplacer par la magie,l'astrologie ou l'etude des lègendes »

[2]- Feyerabend Paul, Contre la Méthode, OP Cit, p339
« L'état et la Science, cependant, travaillent en étroite liaison. D'immenses sommes sont dépensées pour le progrès des idées scientifiques. Des disciplines bàtardes qui n'ont pas une seule découverte à leur crédit...même les relations humaines sont traitées de manières scientifiques, comme le montrent les programmes d'éducation, les propositions de réforme des prisons, l'entrainement de l'armée, et ainsi de suite. »

[3] - شحاتة صيام، علم الاجتماع المعرفة والصراعات التأويل، دار ميريت، القاهرة،ط1، (بت)، ص79.

أصبح الإنتاج العلمي يستخدم حسب نوايا وأهداف مستعمليه ومن منطلق إيديولوجي، لذلك لم يكن العلم دائماً في خدمة البشر بل تحول إلى أداة قمع واضطهاد في أيدي من وظفوه لتحقيق طموحات شخصية، "إن العلم لم يساعد على إثراء الحياة العقلية والروحية للإنسان، والمعادلة المشهورة(ط=كxع^2) التي ترجمت في مشروع "**منهاتن**" إلى سلاح نووي أباد مئات ألآلاف في هيروشيما ونجازاكي، كان يمكن أن تترجم إلى مفاعل لتوليد الكهرباء الرخيصة أو إلى أحد النظائر المشعة التي تعالج السرطان."[1]

اكتسب العلم قوة بفضل السلطة وأصبح يسطر على كل العقول وهذا بفضل تزكية رجال الدولة والمال والصناعة، فالعلم ليس عنصراً مكوناً للعقلية ولا شرطاً ضرورياً للمعقولية

[1]- عبد الفتاح بدوى محمد، فلسفة العلم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين، دار قباء الحديثة، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة(د ط)، 2007م، ص365.

اكتسب مكانة افتراضية لا غير، فالعقل والمعقولية يشترطان حرية المواطن في الاختيار من الشتات المتنوع من التقاليد الموجودة في المجتمع، هكذا يدافع "**فيرابند**" عن المجتمع الحر، الذي تتساوى فيه جميع التقاليد دون تميز وكل تقليد له دور داخل المجتمع، والعلم هو تقليد من بين التقاليد الكثيرة، فالمجتمع الحر هو ذلك المجتمع الذي يضم مذاهب وديانات وطوائف تتعايش سلمياً وفي ظل احترام متبادل.

إن إيديولوجية العلم جعلت العلاقات الإنسانية تخضع لدراسة علمية صارمة دون مراعاة أي خصوصية ثقافية أو اجتماعية أو دينية، لقد تحول الإنسان لمجرد آلة مبرمجة يخضع لتحكم عن بعد،" وأضحى العلماء يتدخلون في أدق أمور حياتنا الشخصية، من مأكل وملبس وطريقة النوم إلى أخره فأمسى العلم مؤسسة تفرض سيطرتها على المواطنين وتهدد الديمقراطية."[1]

[1] - عوض عادل، الإبستمولوجية بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص110.

إن غرض "**فيرابند**" في دعواه لفصل العلم عن السلطة قائم على مبدأ الحرية، فجميع التقاليد تتطور جنباً إلى جنب داخل المجتمع الحر ولا يمكننا الدفاع عن العلم والسماح له بالتفوق دون التطلع على أشكال المعارف الأخرى التي وأن قمنا بفحصها لوجدنا فيها ما يفيد العلم في حد ذاته، "يبين "فيرابند" أن النقاد العقلانيين، والمدافعين عن لاكاتوس(بسبب تقديمه لنموذج من العقلانية العلمية) درسوا العلم بشكل مفصل جداً، لكن موقفهم من الماركسية والتنجيم أو ميادين فكرية أخرى التي كانت تعد في التقليد السائد ميادين بدعية (هرطقية)، إن موقفهم من ذلك مختلف جداً إذ يكتفون بفحص سطحي وببراهين أنجزت على عجل."[1]

يعترف "**فيرابند**" بوجود تقاليد مختلفة ومتفاوتة التأثير داخل المجتمع فما تقدمه بعض التقاليد قد يكون أقل مما تقدمه تقاليد أخرى ليس معناه أن التقاليد الأقل عطاء تمحى وتهمش، فكل تقليد مرتبط بظرف معين وإذا ما توفرت الشروط الملائمة سوف يفسح عن إمكانياته المادية والثقافية والاجتماعية والعاطفية، ربما الوضع الآني قلص من دوره، وطالما أن هناك مناصرين لهذا التقليد، فسوف تأتي الفرصة لأن يظهر بقوة ويدخل مجال المنافسة لذلك فهو يدعو إلى المناظرة المفتوحة التي يتم معها فحص التقاليد المفضلة:إذ لا تتحقق هوية مجتمع على الإطلاق مع تقليد خصوصي واحد وإنما الدولة والتقاليد ما يحتفظان بانفصالهما."[2]

يؤكد "**فيرابند**" على أهمية الوعي والنضج المعرفي بأهمية التقاليد وهذا النضج ينمو ويتطور من خلال التواصل المستمر مع جميع التقاليد الموجودة في المجتمع، وهو شرط ضروري للممارسة الحرية لأنه يمكن الفرد من المشاركة في البث في المسائل المتعلقة بشؤون الحياة الاجتماعية واختيار المعلومات الضرورية والهامة التي تفيد المجتمع الحر، إن التفاعل الذي يحدث بين أوساط المجتمع كثيراً ما يدفع للإبداع ويحافظ على تماسك العلاقات

1- نقلاً عن علي حسين، العلم والإيديولوجية، بين الإطلاق والنسبية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان(بط)، 2011م، ص130.

2 - فيرابند بول، العلم في مجتمع الحر، مصدر سابق، ص121.

الاجتماعية ويقلص من السيطرة التي تمارسها السلطة على المواطنين، فالسبيل الوحيد للسيطرة على طغيان العلم في الوقت الحالي هو أن تخضع مؤسساته للرقابة الشعبية وللمؤسسات الديمقراطية ويتولى الرجل العادي الإشراف على العلم فيضحى العلم والعلماء خاضعين للمجتمع وليسوا أسياداً عليه."[1]

يتضح أن فلسفة "**فيرابند**" القائمة على تمجيد الحرية تمتد إلى الحفاظ على كيان الحياة الديمقراطية من خلال الحد من سيطرة العلماء وتدخلهم في الشؤون السياسية، فاستشارة العلماء في الأمور المتعلقة بالبحث العلمي الذي تستفيد منه الدولة لا يخوّلهم اتخاذ القرار في المسائل السياسية بل الأمر يرجع للمؤسسات الاستشارية المنتخبة بصورة ديمقراطية بحيث تتكون التركيبة البشرية لهذه المؤسسات من أناس عاديين.

---

[1] - نقلاً عن عوض عادل، الإبستمولوجية بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق،ص110.

لا يمكن لرجال السياسة التدخل في العمل العلمي ولن يتأتى ذلك إلا من خلال فصل السياسة عن العلم، ولا يمكن كذلك أن يتدخل العلماء في عمل السياسيين المنتخبين من طرف الشعب، يقول "**فيرابند**": "أما أن العلم بحر يصعب سبر أغواره فذلك راجع إلى الحملة المنظمة التي يشنها عديد من العلماء للتشويش علينا ولا ينبغي أبداً أن يتردد رجال الدولة في معارضة قرار العلماء إذا ما توفر لديهم دليل على فعل ذلك، فمثل هذه المعارضة ستكون لها تأثير عظيم في تهذيب القاعدة العريضة من الشعب، ولسوف تجعل الشعب أكثر ثقة بنفسه وقد تؤدى أيضاً إلى الإصلاح."[1]

إن تدخل السياسة في العلم وتدخل العلم في السياسة يؤدى إلى الإخلال بهما معاً فالمصالح الضيقة لرجال السياسة تقحم العلم في مسائل مذهبية، فيصير أداة قمع وهيمنة عوض أن يكون أداة عون للإنسانية، أما تدخل العلماء في الأمور السياسية يدفعهم للتخلي عن الأهداف النبيلة للعلم ويتحول من خدمة المجتمع إلى خدمة الطبقة السياسية، لقد سخرت الدولة العلم لصالحها وأبعدته عن مساره الحقيقي وهذا الاستغلال تجسد في المجال التكنولوجي الحربي الذي ساهم في تدمير البيئة الجغرافية، فالقنابل النووية والهيدروجينية شوهت الطبيعة والإنسان معاً، لذا ألح "**فيرابند**" على تحرير العلم من قبضة السلطة يقول:" ففي المجتمع الحر هناك العديد من المعتقدات والمذاهب والمؤسسات الغربية بيد أن الافتراض بالتفوق الملازم للعلم إلى ما وراء العلم أضحى مادة للإيمان بالنسبة لكل فرد تقريباً فضلاً عن أن العلم لم يعد مؤسسة خالصة، إنما هو الآن جزء من البناء و النسيج الأساسي للديمقراطية مثلما كانت الكنيسة ذات يوم جزءاً من البناء الأساسي للمجتمع، ولقد انفصلت الآن بالطبع عن الدولة انفصالاً بائناً، ومع ذلك فلا تزال الدولة و العلم يعملان معاً."[2]

لقد كان العلم في السابق أداة للتنوير والتحرر عندما كان العلماء يهتمون بموضوع العلم بعيداً عن كل الإغراءات السياسية لكن تغير الوضع وأصبح مجرد إيديولوجية، تسببت في

[1] - عوض عادل، الإبستمولوجية بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص111.
[2] - فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص88.

تدمير الإنسانية وخرابها وحولت العلم إلى بضاعة والعلماء إلى تجار وباعة، يتحكم فيهم قانون السوق وفق العرض والطلب، يقول "**فيرابند**": " إن العلوم بضائع والعلماء أنفسهم بائعو هذه البضائع وليسوا حكاماً على الصدق و الكذب."[1]

يتضح أن القرن الحالي عرف تحولات عميقة وجذرية في العلم والفلسفة معاً ينبأ هذا التحول بالانفتاح على عالم اللامعقول والاعتراف بالتعدد والتنوع لمختلف الثقافات الإنسانية دون ممارسة الإقصاء باسم التحضر والتفوق العلمي والتكنولوجي.

يري فيرابند أن التعدد هو الأصل المعرفة بقدر تنوعها بقدر ما يزداد محتوي المعرفي فلا يمكن تأويل التنوع والاختلاف لصالح الصراع وإنما تأويله على أنه ظاهرة ايجابية يضيف المزيد من المهارات والخبرات والتقاليد للمنظومة الثقافية الإنسانية.

إن انفتاح الثقافات على بعضها البعض ظاهرة ايجابية تدفع لإنتاج المعرفة بحيث تشارك جميعها وبكل مكوناتها المعقولة كالعلم والتقنية واللامعقولة من فن ودين وأسطورة.

إن غرض فيرابند من كل ذلك هو تحطيم العقلانية العلمية التي تدعي الكونية والعالمية وتلغي كل خصوصيات التاريخية للثقافات الأخرى، لقد اكتسب العلم قداسة بفضل الترويج الغربي لكل منتجاته العلمية والفكرية.

---

[1] - البعزاتي بناصر، الإستدلال والبناء، ص380-381.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هل التقاليد اللامعقولة فعلاً لعبت نفس الدور الذي لعبه العلم؟ وهل يمكن أن نضع الدين والفن والأسطورة في نفس مرتبة العلم؟ هذه الأسئلة سوف نحاول معالجتها في الفصل الرابع من هذا البحث.

الفصل الرابع

حدود فلسفة اللامعقول

المبحث الأول: تهافت النقد الفيرابندي لأسس العلم الوضعي

المبحث الثاني : خرافة اللامعقول

مدخل: أثارت فلسفة اللامعقول التي جاء بها "**فيرابند**" تساؤلات عديدة في أوساط الإبستمولوجيين بسبب تلك الأفكار الاستفزازية والغريبة التي طرحها حيث قام بهدم كل الأسس التي يقوم عليها العلم كالمنهج والموضوعية والعقلانية، وفي مقابل ذلك مجد الأسطورة ودعى إلى تعليم السحر والشعوذة وجعلهما في نفس المرتبة التي يحتلها العلم، لذا استقبلت أفكاره بالرفض بسبب خطورتها وعدم تماسكها.

إن رفض "**فيرابند**" للمنهج والعقلانية والمنطق وتقويضه لكل المحاولات العقلانية والترويج للتقاليد اللاعقلانية من منطلق أنها تفيد العلم أمر لا يؤكد منطق صيرورة تطور العلم بحكم أن كل مجهودات العلماء عبر التاريخ العلمي انصبت في تجاوز الفكر اللامنطقي القائم على الطرح الميتافيزيقي الغيبي، لذلك تعرضت أفكاره للنقد والتمحيص من طرف الإبستمولوجيين،أمثال "كارل بوبر" و"ألان شالمرز" وغيرهم، فهاهي أهم الانتقادات الموجه لفلسفة اللامعقول عند "فيرابند"؟

المبحث الأول : تهافت النقد الفيرابندي لأسس العلم الوضعي

لقد قامت فلسفة "**فيرابند**" الفوضوية على مناقشة الأسس التي قام عليها العلم الوضعي، خاصة فيما يتعلق ببناء النظرية العلمية سواء تعلق الأمر بعلاقة الخبرة والملاحظة في بناء النظرية العلمية أو في اللغة المستخدمة في تفسير الظواهر الطبيعية أو في اعتماد المنهج العلمي للوصول إلى نتائج دقيقة وموضوعية.

1-في بناء النظرية العلمية:

إن الفصل الذي قدمه "فيرابند" بين النظرية والتجربة معتبراً النظرية طريقة للنظر إلى العالم لا تعكس حقيقة الخبرة بل تفسرها من منطلقات ذاتية بعيدة عن ما يجري في واقع التجربة كما هي في الطبيعة وإنما هي نتاج لما تضيفه النظرية المحملة بالأفكار والعقائد والأيديولوجيات، في الحقيقة أن الأمر الذي يطرح له نصيب من الصحة ، فالعالم لا يمكنه أن يتجرد من كل الخلفيات الثقافية الاجتماعية وقد تتسرب بعض الأفكار والتصورات إلى

عمله العلمي ويؤثر ذلك على إنتاج النظريات، لكن ليس بالمبالغة المفرطة التي طرحها "**فيرابند**"، يقترح "**ألان شالمرز**"(Alan Charmers) حل لهذه الإشكالية بصورة معقولة تتماشي والبحث العلمي دون تشويش، "فهي ليست مشكلة جوهرية ويمكن تفاديها من خلال محاولة الابتعاد عن الذاتية عند تقرير الملاحظة، فنتجاوز أخطاء الإدراك التي لا ينبغي النظر إليها كحالة جوهرية بل هي مسألة عرضية وهذا ما يسمح بتقدم العلم"[1]، ضف إلى ذلك فإن "**فيرابند**" يدعي أن الحقيقة تختلف عما تقول به النظرية ففصل وبصورة مطلقة بين الحقيقة الموجود في الواقع وبين النظرية التي تصف هذا الواقع مدعياً أن هذه النظريات ما هي إلا انعكاسات لتصورات سابقة محملة بأفكار إيديولوجية وثقافية، "ولئن كان العلم يستمد مبررات وجوده وتطوره من نظم ثقافية معينة، فإنه لا يلبث أن يتخطاها، لما له من فعالية نوعية خاصة لا تتكافأ مع العوامل الباعثة على قيامه ويتطابق معها، فهو يتزود منها ريثما ينطلق متخذا مساره الخاص"[2].

يقترحاً "**فيرابند**" أساليب مخالفة للبحث العلمي المتعارف عليه، فيشيد بـ "ضد الاستقراء" في إشارة منه إلى رفض الاستقراء القائم على الملاحظة والتجربة من خلال طرح فروض لا تتفق مع وجهة النظر المؤكدة والمقبولة بحجة فتح المجال أمام مختلف الآراء بالمشاركة في تنمية المعرفة، لأن الواقع الذي يتغنى به أنصار الوضعية لا يمكن لأحد معرفته والتأكد منه ولا يمكن للخبرة أو الملاحظة أن تخبر عن حقيقته، وبالتالي فإن العلم هو مجرد فروض لا غير والمنهج الاستقرائي مجرد أكذوبة لا يفي بغرض العلم.

إن هذا الاعتقاد الذي يقر به "**فيرابند**" يرجح دور الفروض المسبقة في بناء النظرية العلمية و يهمل الخاصية الأساسية في العلم والمتمثلة في التجربة الميدانية مما يحول بين العلماء واعتقاداتهم في مراجعة انجازاتهم العلمية من خلال الخبرة، بحيث يصبح من المستحيل أن نتوصل إلى أي انجاز علمي، فتتغير النظريات من خلال الافتراض العقلي

[1] A.Charmers : la fabrication de la science, trad., Marie Brigitte Foster (la découverte, Paris 1993, p99.

[2] - قنصوه صلاح، فلسفة العلم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (بط)،1998 م ، ص87.

دون سند تجريبي يقوم على الملاحظة والتجربة من منطلق الواقع، فالملاحظات في نظر "**فيرابند**" هي مجرد انعكاس لتصورات واعتقادات مسبقة، فهو يقرر أن نتائج الملاحظة غير منفصلة عن النظرية، وبالتالي ينكر الصفة الإمبريقية للعلم وينكر عليه قوته المعرفية كذلك خاصة وأن العلم الحديث اكتسب مصداقيته من التجربة، فأصبحت كل معرفة علمية هي بالضرورة معرفة تجريبية وبالتالي يؤدي هذا الأمر إلى فقدان مصداقية التأييد والتكذيب للنظريات العلمية ويترك العلماء ينغمسون في جدال فلسفي أكثر مما هو علمي، "فإذا كان لدينا تقرير الملاحظة(o) الذي يفترض مسبقاً النظرية(T) ، فإن تقرير الملاحظة (O) ، لن يفيدنا في القبول الفعلي لنظرية علمية جديدة(T1) ، على اعتبار أن هذه النظرية الجديدة ليست متسقة مع النظرية السابقة(T) ، وإذا قبلنا النظرية العلمية الجديدة(T1)، يدفعنا أن نشير إلى أن (O)لا هي صادقة، ولا هي كاذبة، حينها يصبح من الصعوبة بمكان أن نبين كيف يمكن لنا أن نستفيد من (O) كتقرير للملاحظة، وكأساس للقبول الفعلي للنظرية العلمية الجديدة(T1)"[1].

إن التصور الذي يقدمه "**فيرابند**" يؤدي إلى تعذر قيام سبل عقلية قائمة على التجربة في بناء النظرية العلمية والتحقق منها لذا نجد موقف "**فيرابند**" قائم على الشك المفرط العبثي خاصة وأنه يتحدث عن الفروض غير المتسقة لمواجهة الاستقراء، هذه الفروض لا تتماشى مع معايير المنطق والعقل، فكيف يمكن الاعتماد عليها في المعرفة وهي تخالف أدنى صور النسقية المنطقية.

كما لا يمكن إنكار المنهج الاستقرائي رغم ما يطرحه من صعوبات لكن ليس معنى ذلك الانحياز للفوضوية، فالنشاط العلمي يهدف إلى جعل الظواهر قابلة للمعرفة متخذاً من التجربة أساسا للكشف عما هو موجود في الطبيعة من انتظام، لا يمكن للمعرفة أن تنقاد

1- ماهر عبد القادر محمد علي، المشكلات المعرفية، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (بط)، 1984م، ص128.

للعشوائية ولا يمكنها أن تحتوي التناقض بل المعرفة لا بد وأن تكون منظمة منسجمة تتماشى والمناهج العلمية.

إن التحليل الذي قدمه "**فيرابند**" كثيراً ما يتميز بالتناقض، وهذا تماشياً مع أطروحته الفوضوية التي تحتوي كل الأفكار مهما كان نوعها ومصداقيتها علمية وغير علمية، فهو يستخدم الطريقة نفسها في كتاباته التي توحي على وجود تذبذب في أفكاره وطريقة تحليله، فلقد صرح في مقال صدر له عام 1970م، "اقترح إدخال وبلورة فرضيات غير متماسكة لا مع النظريات المأخوذة منها ولا مع الوقائع، أو كما سأعبر عن فكرتي أقترح التصرف بطريقة ضد استقرائية، زيادة عن التصرف بطريقة استقرائية وكتب قائلا في كتابه ضد المنهج الصادر سنة 1975م وهو تطوير للمقال "تنصحنا القاعدة المضادة... بالتصرف بطريقة ضد استقرائية."[1]

إن محاولات "**فيرابند**" من طرح مثل هذه القضايا هو الإخلال بالمعايير التي نميز من خلالها بين العلم واللاعلم، بمعنى بين النظريات العلمية وغيرها من النظريات الأخرى غير العلمية، هذا الأمر يؤدي إلى فقدان القدرة على معرفة مدى التزام النظريات بالقواعد المنطقية والعلمية في تفسير الظواهر الطبيعية وترك المجال مفتوح دون قيد، "فإذا كان لكل نظرية خبرتها الخاصة فكيف يمكن تفسير الثورات العلمية التي عرفها تاريخ العلم، فبناءاً على هذا لا يمكن أن تكون النظرية الجديدة (بعد الثورة) بديلاً للنظرية القديمة (قبل الثورة)، ذلك لأنهما ليستا وجهي نظر مختلفتين عن نفس العالم لأن العالم تغير تغيراً جذريا من نظرية لأخرى."[2]

إن المتغيرات التي تحدث في الطبيعة هي التي تؤدي إلى تغير النظريات وليس تغيرها مرهون باختلاف الحمولات الثقافية والاجتماعية كما يعتقد "**فيرابند**"، وهذا التغيير الذي يحدث في الطبيعة يجعل النظريات تتابع في تفسيرها للظواهر الطبيعية، فالتفسير الذي قدمه

[1] - البعزاتي بناصر، الإستدلال والبناء، مرجع سابق،ص410.
[2] - ماهر عبد القادر محمد علي، المشكلات المعرفية، مرجع سابق، ص113.

"اينشتاين" ينطلق من التفسير الذي قدمه "نيوتن" فنفس الحدود استخدمت في النظريتين، فالكتلة والطاقة والمكان والزمان مفاهيم استعملت في الفيزياء الكلاسيكية كما استعملت في الفيزياء المعاصرة.

إن القول بالتغيير الجذري الذي دعى إليه "**فيرابند**" يزعزع المفاهيم العلمية ويؤثر على بناء النظريات العلمية، "فقيام العلم لا يكون إلا من خلال ضبط المفاهيم والأفكار في علاقات دقيقة نسبياً...فلا زالت المفاهيم والقوانين والنظريات العلمية كثيرة التداول بالدلالة نفسها الأولي تقريباً على الرغم من مرور زمن عليها، ويمكن القول أن الدلالة وإن لم تظل قادرة في الحفاظ على ثباتها بصفة تامة، فكذلك تغير الدلالة في العلم لا يكون جذرياً."[1]

إن الفوضوية التي ينادي بها "**فيرابند**" يعارض من خلالها كل التصورات العقلانية في العلم وفي المقابل ذلك يتيح المجال لكل التصورات اللاعقلانية بدخول المنافسة الفكرية، مبيناً أن العلم الحديث لا يشكل تقدماً بالنسبة للتفسيرات القديمة بل هي على قدم المساواة أو أكثر من التفسيرات المعاصرة للعلم، فهو يشيد مثلاً بأبحاث أرسطو ويعتبرها أكثر خصوبة من تجارب المعاصرين، لقد تناسى أن العلم المعاصر هو نتاج للعقل العلمي، الذي استفاد من تراكمات معرفية متواصلة إذ تمثل أبحاث أرسطو مرحلة متقدمة من هذه التراكمات.

لا يمكن إنكار الأبحاث المعرفية العلمية السابقة ودورها في بناء النظريات العلمية، لقد استفادة العلم من التجارب العلمية السابقة وبإتباع مرحلية متصلة حيث أن كل مرحلة علمية تقوم على أنقاد المرحلة العلمية السابقة لها، وبالتالي لا تختلف نظريتان في فهمهما للواقع بينما الاختلاف قائم في مدى قدرة كل واحدة منهما على إيجاد حلول مناسبة لمشكلات طارئة، يقول "لاري لودان": "يمكن أن يحدث تقدم إذ وفقط إذا أظهر تتابع النظريات العلمية في أي ميدان درجة متناهية من حل فعلي للمشاكل...في كل مرة نغير نظرية أو نأتي

[1] - البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص285.

بأخرى مكانها فإن ذلك التغيير يكون تقدمياً إذا وفقط إذا كانت الصيغة المتأخرة أكثر فعالية في حل المشاكل من سابقتها."[1]

هذه الفعالية ناتجة عن نشاط العقل في اتجاه الطبيعة ودور الملاحظة والتجربة في نقل ملابسات الواقع الطبيعي كما هو وليس من منطلق الحمولة الثقافية، فإذا كانت الملاحظات غير محايدة كما يتصور "**فيرابند**" فإنه لن يكون من الممكن القيام بالاختبار ومقارنة النظريات، وبالتالي يستحيل تقدم العلم يؤكد"آلان شالمرز" "أن الفكرة القائلة بأن الإدراك ينطوي على عناصر ذاتية وثقافية هي فكرة مألوفة عند العلماء، وهذا ما فرض على العلماء ضرورة استبدال وتعويض الملاحظة البسيطة بملاحظة مسلحة تحكمها شروط محدودة، وهذا يعني أن "**فيرابند**" لم يأت بجديد عندما تحدث عن ارتباط الملاحظة بالنظرية"[2]

إن الفوضوية المقترحة كعلاج لأمراض الأيبستمولوجيا تزيدها تأزماً بسبب موقفه المخرب لفكرة تقدم العلم من خلال إقحام التقاليد اللامعقولة كالأسطورة والسحر والشعوذة، إن الفوضوية تقضي على الانسجام بين الحياة والمحيط، فهي لا تخرب العلم بل تخرب كل التقاليد الأخرى وكل جوانب الخبرة البشرية، يؤكد "لاكاتوس":"بأن الفوضوية الإبستمولوجية سخافة ويتساءل أين هو الفوضوي الإبستمولوجي الذي يخرج عبر النافدة في الطابق الخمسين عوض استعمال المصعد لمجرد روح المناقضة الخالصة لديه."[3]

إن الفوضوية لا تأخذ معنى التعددية لأن هذه الأخيرة ضرورية لتطور العلم، فالفترات المشعة والخصبة في العلم والأدب والفن والفلسفة، هي فترات عرفت تعدداً في المذاهب والرؤى، وبالتالي فإن فعالية العلم في المجتمع المعاصر حقيقة لا ينكرها إلا جاحد إذ لا يمكن الحط من قيمته ولا يمكن أن يعطي للتقاليد الأخرى نفس مرتبة العلم، بفضل العلم ارتقت البشرية إلى إنسانيتها، فأصبحت الحياة سهلة وميسورة بفضل ما أنتجه العلم من

[1]- زيدان محمود فهمي، من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،(بط)،1989م، ص89.

[2] -A.Charmers :La fabrication de la science. Op Cit.p13.

[3]- رورتي جان فرانسوا، فلسفات عصرنا تياراتها، مذاهبها أعلامها وقضاياها، ترجمة إبراهيم صحراوي، دار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2009م، ص327.

تقنيات مكنت من السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان، لم تصير الكهوف مأوى للبشر ولا الصيد القائم على الغبن مصدر مأكل وعيش ولم تعد الأمراض تفتك بآلاف البشر وأصبحت الكوارث الطبيعية أقل وطأً على الإنسان، مما كانت عليه في السابق.

إن التقدم الذي تعرفه البشرية بفضل العلم ليس بأسطورة يصنعها التفاؤل العقلاني كما يعتقد "**فيرابند**" بل هي حقيقة نلمسها في حياتنا اليومية، لقد صارت معرفتنا بالطبيعة أدق تفوق ما عرفه أسلافنا وذلك بفضل المعرفة الحقيقة للواقع، لقد تم استنطاق الطبيعة بفضل التجارب، فحولت موادها الخام إلى مادة مصطنعة وتم اختراع أدق الآلات بفضل التكنولوجيا المتطورة، لا يوجد أي معرفة بشرية أخرى تنافس العلم ولا يمكن التحدث عن معرفة عرفتها الشعوب القديمة شبيهة بالمعرفة العلمية في وقتنا المعاصر، "كيف يفسر "**فيرابند**" التقدم العلمي الحاصل على الصعيد التقني والصناعي المتراكم مند القدم الذي يمثل ثمرة مباشرة للتحول الجذري في مسار العلم،- بمصطلحات فيرابند انتهاك العقلانية-هل هذه الإنجازات التقنية التي هي بتماس وثيق مع حاجات المجتمع الإنساني، الذي لا يشعر بأثر العلم إلا من خلالها، فكيف يصنفها "فيرابند" هل هي ضمن مقولة العلم؟ أم ضمن مقولة اللاعقلانية؟ ماذا تحدث تاريخ العلم عن التقنية الميكانيك الآلي الذي
جاء كمحصلة للتغيير الجذري الذي حصل في العلم الحديث بعد أن انتهكت قواعد العقلانية السائدة في القرون الوسطى.؟"[1]

إن رفض "**فيرابند**" للعقلانية العلمية في بناء النظريات العلمية قائم على تعسف مفرط، بحيث جعل الأحكام العلمية في شأن التقدم والتراجع غالباً ما تكون اعتباطية وبالتالي فإن كل المعارف ومهما كان نوعها تكون على مرتبة واحد، هذا الأمر مخالف لقواعد النزاهة العلمية والمعرفية إذ لا يمكن أن نضع العلم الذي وضع بين أيدينا حصيلة هائلة من الإنجازات العظيمة في حياة الناس في نفس مرتبة السحر والأسطورة.

---

[1] - موسي كريم، فلسفة العلم، من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي-بيروت- لبنان ط1، 2012م، ص416.

إن التقدم الذي عرفته البشرية في الآونة الأخيرة تجاوز كل التوقعات " فكل شيء يتطور بسرعة مذهلة، فما حققه العلم من تقدم وتحصيل في الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية يفوق كل ما حققته البشرية في تاريخها الطويل."[1]

يركز "**فيرابند**" على تحليله الفلسفي بالاعتماد على "النزعة الثورية في تقدم العلم التي انتهك من خلالها كل القواعد المنطقية والعلمية للنظريات القديمة، وتناسى أن للعلم فعالية أخرى أهم من تلك الفعالية الثورية الأولى وأكثر التصاقاً بالإنسان وهي التي تقوم بابتكار تقنية صناعية مؤسسة على مبادئ العقلانية الجديدة ذات طابع تراكمي ومن خلالها يبرز الوجه العقلاني للعلم الذي لم ينظر إليه "**فيرابند**"، فلم يعرض تاريخ العلم وصلة واحدة بل كان انتقائياً، عندئذ بدت فلسفة العلم لديه بهذا النحو من التطرف."[2]

2-في دور المنهج في بناء العلم:

تقوم فلسفة "**فيرابند**" على رفض فكرة المنهج فهو يهاجم كل التصورات العقلانية التي درست الوقائع بإتباع منهجية معينة تقوم بضبط الملاحظات والنظريات على أساس أنها مستقلة عن ذوات الأفراد، ففي نظره لا يوجد أي منهج علمي يخبر بحقيقة العلم ولا توجد أي قاعدة واحدة يمكن أن يتخذها العلم معياراً للحكم، ويؤكد في المقابل على ضرورة التعددية المنهجية والغرض من ذلك هو فتح المجال أمام المعارف الأخرى اللامعقولة.

يمكن أن نؤكد مع "**فيرابند**" أنه لا يوجد منهج واحد أو معايير عامة تطبق على كل مواضيع البحث لكن هذا لا يبرر إهمال فكرة المنهج، فالعمل العلمي ليس بعمل عشوائي، بل يقوم على معايير تساعد على التحكم في الظواهر وضبط القوانين، ولو بصورة نسبية، فالمنهج العلمي يجعل الباحث أكثر قرباً من الموضوعية والعقلانية وتبعده على العوامل الذاتية والذوقية من خلال الالتزام بقواعد الضبط المنطقي لأفكارنا وتصرفاتنا اتجاه الطبيعة، لقد توصل العلم إلى نتائج من خلال استخدامه معايير الضبط، فالغاية من المنهج هو

---

[1] - عبد الحسين صالح، التنبؤ ومستقبل الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (بـ ط)، 1981م، ص8.

[2] - موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص417.

التحكم في الظواهر وتحقيق الموضوعية، وبالتالي أي إلغاء للمنهج هو إلغاء للأحكام الموضوعية المتوصل إليها، وهذا يخل بالتقدم العلمي، لأن العلم عمل منظم يعرفه "لالاند" على أنه مجموع المعارف والبحوث التي لها قدر كاف من الوحدة وقابلة لاقتياد الناس المشتغلين بها إلى نتائج مترابطة، و لا تعكس مواضعات تحكمية، ولا أهواء أو مصالح شخصية مشتركة، لكن علاقات موضوعية نثبتها بمناهج تحققيه محددة."[1]

إن المنهج العلمي الذي يرفضه "**فيرابند**" يحدد القيمة العلمية في قبول النظريات من عدم قبولها ولا يترك الأمر للعناصر الذاتية لتحديد ذلك وهذا خلافاً لما ذهب إليه حيث فتح المجال لكل أنواع الأفكار والآراء للتعبير عن ذاتها، هذا الأمر ممكن في الحرية السياسية بينما في المجال العلمي فالأمر يترك للعلماء وذوي الاختصاص، فليس كل الأفكار والتصورات ترتقي إلى المستوى العلمي، فالتفكير العلمي يتميز بالموضوعية والعقلانية وحقائقه متكاملة منظمة وليست أشتاتا متناثرة مختلفة، فالذاتية والأمور الشخصية والذوق لا تؤسس للعلم بل تشكل خطورة على البناء العلمي، وتمثل عائقاً أمام أي تقدم علمي، يؤكد "شالمرز" في نقده لـ"فيرابند" "إن الأذواق الذاتية غير متماسكة، وبالتالي لا يمكنها أن تكون معطيات للعلم."[2]

فالتعددية التي يدعو إليها "**فيرابند**" غير ملتزمة بحكم أنها تتقبل كل شيء هذا لا يخدم العلم، فالأساليب والقواعد المستخدم في الكثير من التقاليد لا تراعي قواعد المنطق ولا تلتزم بالموضوعية التي يفرضها البحث العلمي، فلا يمكننا أن نجعل العلم واللاعلم في ميزان واحد بدون التفرقة بينها على أساس معايير المنطق والعلم، فالظروف الثقافية والاجتماعية التي تعكس حياة الناس والمعبرة عن الحس المشترك لا تلتزم بقواعد المنهج، بسبب تواجد اللامعقول، فالأسطورة مثلاً لا يمكنها أن تنافس العلم.

---

[1] -A. Lalande. Vocabulaire technique de philosophie (parie.puf.1972).p954.

[2]- شالمرز ألان، نظرية العلم، تر،الحسين سحبان و فؤاد الصفh، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، (بـ ط)1991م، ص 139

"لقد نصب "فيرابند" نفسه مدافعا عن العقائد والأنساق الأسطورية بالنفس الطريقة التي كان أنصار الوضعية يدافعون به عن العلم، إذ يرمى العلم بالعيوب نفسها التي تجند لها الوضعيون، لكن من أجل الدفاع عن دعاوى معارضة لدعاويهم، غير أنهم تبنوا أدوات المنطق الواضحة في الدفاع عن أرائهم بينما يفضل هو السجال الفوضوي، ويشيد بالأسطورة بوصفها بناء فكرياً مهماً، ويرى أن الأيديولوجيات العقلانية هي التي زرعت فكرة سذاجة الأسطورة في أذهان ونعتها باللاعقلانية."[1]

يؤكد "**فيرابند**" أن أطروحته القائمة على رفض المنهج تستند إلى شواهد تاريخية "مؤكدا على أن فرض "كوبرنيك" الذي دافع من خلاله على "غاليلي" يسير في اتجاه معاكس لكل القواعد المنهجية المعروفة ويقصد به المنهج الاستقرائي، فالنظرة الاستقرائية القائلة إن الثورة الكوبرنيكية قد حدثت نتيجة اكتشاف وقائع جديدة أو تفنيد وقائع سابقة، هي نظرة ساذجة ولا تعبر عن حقيقة ما حدث، ذلك أن "كوبربيكوس" اعتمد على علوم ومعارف مساعدة أخرى كقوانين البصريات وقوانين الديناميكا التي تستند إلى نظرية جديدة للمعرفة تختلف عما كان موجوداً أنداك."[2]

لكن هذه الشواهد تمثل حالات شاذة لا تخص الممارسة العلمية بقدر ما تخص الحالات العامة، وعلى العكس من ذلك فإن تاريخ العلم يبين أن ممارسات العلماء استندت إلى المنهج كوسيلة للوصول إلى المعرفة العلمية،"إذ هناك فلاسفة وعلماء في أن واحد مثل أرسطو دعوا إلى استخدام مناهج بعينها في مجال البحث العلمي، وزعموا أنهم مارسوها خلال البحث العلمي الخاصة بهم. هناك علماء تحولوا إلى فلاسفة علم مثل "غاليلو" الذي أكد على استخدام المنهج الرياضي لقراءة مجريات العالم الطبيعي، وهناك "نيوتن" الذي دافع بشدة عن المنهج الاستقرائي وأكد على أنه المنهج الوحيد الذي استخدمه في بحوثه العلمية ولا يمكن أن نتغافل دفاع "أينشتاين" عن المنهج الفرضي الاستنباطي."[3]

---

[1] -عوض عادل، الأبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص100.
[2]- فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص 95.
[3]- موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص417.

يمكن أن نؤكد مع "**فيرابند**" ضرورة تعدد المناهج في البحث، وذلك بالنظر إلى طبيعة موضوع البحث المراد دراسته، فلا يمكن دراسة الظواهر الطبيعة إلا بالمنهج التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة، والتعدد ممكن حينما يتعلق الأمر بالمواضيع الإنسانية، إن الدراسات التاريخية في ميدان العلم تبين أهمية المنهج، فالتطورات التي عرفتها الدراسات العلمية مقرونة دائماً بالمنهج العلمي، فكل التوجهات الوضعانية ابتداء من "أوغيست كونت"، وصولاً إلى "أرنست ماخ" فالوضعية التجريبية أكدت على ضرورة المنهج العلمي، فالبحث العلمي لا يرتكز على عشوائية أو فوضى وإنما هو بحث منظم وفق قواعد معينة تمكن الباحث من الوصول إلى تحقيق نتائج وأي معرفة تفتقر للتنظيم والتنسيق ليست بمعرفة علمية ، فالمنهج هو أساس البناء العلمي، "ذلك أن من بين أهم وظائف العلم الأساسية مساعدتنا على التنبؤ بما سوف يحدث في العالم الطبيعي في المستقبل من أشياء ووقائع وحوادث وظاهرات، وأن يعبر عن تلك التنبؤات بصيغ القوانين العامة، والاستقراء هو المنهج الوحيد الذي عن طريقه نصل إلى صياغة تلك القوانين"[1].

إن الانفتاح المفرط على جميع المحاولات يؤدي إلى فقدان فكرة الصرامة التي تفرضها قواعد المنهج العلمي، وبالتالي يفقد العلم أسسه العقلية وتتلاشى معايير الضبط التي يمتلكها العلم فتعم الفوضى ويتم تقويض المحاولات الجادة في حل مشكلات العلم، لذلك نجد أن الاقتراحات التي طرحها "**فيرابند**" حول التعددية لم تمارس من طرف العلماء بل كانت مجرد شطحات قائمة على النقد لا غير.

لقد اتهم "**فيرابند**" أصحاب الميثودولوجيات المختلف سواء أنصار الوضعية المنطقية أو التكذيبية البوبرية بالدوغمائية، لكن نجده يتعصب لأفكاره إلى حد وصف خصومه بأبشع الصفات وأقبحها، وهذا ما لا يليق بالباحث الذي يجب أن يتميز بالروح العلمية من تواضع وموضوعية وصدق ونزاهة.

1- زيدان محمود فهمي،الاستقراء والمنهج العلمي،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2002م، ص 183.

يعتبر "فيرابند" الموضوعية مجرد أكذوبة اخترعها العلماء لتبرير أعمالهم المظللة، فهي فكرة سابقة عن العلم ومستقلة عنه، بحيث ينفي صفة الموضوعية عن الواقع، فعوض أن نخضع الظواهر الثقافية والاجتماعية للدراسة الموضوعية العلمية نجده يدعو للتخلي عن الموضوعية وفي المقابل يمجد الذاتية متناسياً العوائق التي تشكلها عناصر الشخصية والذوق في بناء العلم، والسبيل الوحيد لإزاحتها هو اعتماد الطرق الممنهجة القائمة على المنطق والاستدلال، يقول "بوبر": إن الموضوعية تبني على البرهنة، وتتعرض للنقد العقلي."[1]

تفترض الموضوعية تحليلاً للمعرفة بالنظر إلى الخصائص المميزة لعناصر أو منظومات المعرفة التي يوجهها الأفراد في التعبير عن مواقفهم ومعتقداتهم أو الحالات الذاتية الأخرى، بتعبير أدق إن صاحب النزعة الموضوعية يتعامل مع المعرفة من حيث هي شيء خارج عن تصورات الأفراد وليس من داخل معتقداتهم وتصوراتهم الخاصة، يقول "بوبر":"المعرفة الموضوعية المتكونة من النظريات ومحتوياتها، وكذا التخمينات والفرضيات، هي تلك التي تربط بين مكوناتها علاقات منطقية، و يتم عرضها للاختبار."[2]

يقتضي البحث الموضوعي من صاحبه الاهتمام بخصائص الموضوع في حد ذاته وبالإنتاج العلمي، فالموضوعية انجاز علمي تعمل على تماسك المعرفة من خلال الإجماع والاتفاق الذي تفرضه على الجماعة العلمية بدلاً من الاهتمام بما للإفراد والجماعات من معتقدات وقناعات خاصة، فالموضوعية تجعل المعرفة العلمية أمتن وأصدق من ميادين المعارف الأخرى كالفنون والمعتقدات،"فإذا افترضنا أن الأمر يتعلق بـ"غاليلي" و"نيوتن"، فإن أصحاب النزعة الموضوعية يسألون عن دراسة العلاقة بين نظرية "نيوتن" ونظرية "غاليلي" ويجتهدون لإبراز المعني الذي يمكن أن تعد به النظرية الثانية محققة تقدماً بالنسبة للأولي، أما المواقف التي اتخذها "غاليلي" أو "نيوتن" اتجاه نظريتهما فإنهم على العكس من ذلك لم

1- قاسم محمد قاسم، كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية الفنية للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1968م،ص45.

2 -K. Popper, la connaissance objective, tra. jean jacques rosat (France ?ed Flammarion 1991) p136.

يولياها اهتماما، هل كان "غاليلي" يعتقد بضرورة صحة نظريته أم لا؟ ذلك أمر ليس بحاسم في فهم الفيزياء وتطورها، حتى وإن كان لهذا الأمر أهمية حاسمة لفهم "غاليلي."[1]

إن التحليل الذي قدمه "**فيرابند**" يسير في اتجاه معاكس لما يقتضيه البحث العلمي الموضوعي بل ينحصر كلية في المعطيات الذاتية، فهو يتكلم عن الوقائع العلمية وكأنها قصص خرافية بعيدة كل البعد عن الواقع الفعلي للعلم، مما جعله يتيه في إقرارات جزافية وعناصر ذاتية لا صلة لها بالعلم، فالطرق البدائية التي يشيد بها "**فيرابند**" ويعتبرها ذات أهمية تفوق الطرق العلمية أمر مبالغ فيه، فالطرق البدائية لم ترتقي إلى مستوى البحث العلمي، فهي تقتصر على وسائل بسيطة غرضها تلبية الحاجيات الأساسية للمعيشة.

إن المكانة المرموقة التي تحصل عليها المنهج العلمي ترجع إلى النتائج المتوصل إليها في ميدان العلم، فسواء المنهج الاستقرائي التقليدي أو المنهج الاستنباطي ورغم الاختلاف بينهما يتفقان في أن التحقيق التجريبي هو معيار صدق الفرض العلمي، وبالتالي رفض "**فيرابند**" لفكرة المنهج لا يوجد ما يبررها حتى وان كان يؤكد أن رفضه ليس عاماً وشاملاً بل يشمل فقط المنهج العلمي الذي يدعي الكلية والشمولية، لكن السؤال المطروح ماذا قدمت المناهج الأخرى للمعرفة الإنسانية، فالتعددية المنهجية التي يدعو لها "فيرابند" والتي تقبل كل شيء هي دعوى تنفتح أكثر على الفوضى والعشوائية على حساب الدقة والصرامة العلمية، يقول "بشلار": "إن الموضوعية تتحدد في الدقة، وفي انسجام الصفات، لا في جميع الموضوعات المتشابهة قليلاً أو كثيراً، وهذا شيء بالغ الأهمية إلى حد ما نجد المعرفة غالباً ما تكون أكثر أهمية بالنسبة للتقدم."[2]

يمكن القول أن نقد "**فيرابند**" للمنهج العلمي كان أكثر شراسة وعدائية مستخدماً الأدوات نفسها التي استخدمها خصومه، الفرق هو أنه اتخذ طريق الهدم، بينما اتبع خصومه طريق البناء، فكان نقده بدون الاستناد إلى دلائل وحجج مقنعة وموضوعية على ذلك، لقد استنفد

---

[1] -شالمرز آلان، نظريات العلم، مرجع سابق، ص120.

[2] - هشام محمد، تكوين مفهوم الممارسة الأيبستمولوجية عند بشلار، دار الشرق للطباعة،(بط) 2006م، ص200.

"**فيرابند**" كل قواه دون الوصول إلى نتيجة، فالغرض من البحث الإبستمولوجي وحتى وان كان قائم على النقد، فهدفه الأساسي البناء.

3-الأساس اللامنطقي لفكرة اللامقايسة:

من بين أهم الأفكار التي دافع عنها "**فيرابند**" بكل قوة فكرة اللامقايسة التي أخدها عن "توماس كون" إلا أنه تمسك بها إلى حد النخاع، وارتكز تحليله في اللامقايسة على علاقة النظرية بالملاحظة، فدلالة المفاهيم وتأويلها ومنطوقات الملاحظة، التي تستخدم هذه المفاهيم يتوقفان على السياق النظري الذي يظهران فيه، بحيث لا يمكن أن تتحدد النظرية من خلال مقايستها مع الملاحظة، ولقد تطرقنا إلى هذه الخصوصية بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث.

فاللامقايسة تجعل النظريات غير قابلة للمقارنة، فقبول نظرية علمية جديدة يتضمن تغيرات جذرية بالنظر إلى حدود والمبادئ الخاصة بها وأيضاً الحدود والمبادئ الخاصة بالنظرية السابقة لها، بمعنى لا يمكن معه المقارنة بين النظرية القديمة ووريثتها الجديدة.

لقد اعترض الكثير من العلماء والفلاسفة على فكرة اللامقايسة ذلك أن النظريات العلمية تتفاوت في درجة اليقين والدقة وفي التعامل في حل المشكلات التي تواجه البحث الميداني، بحيث نجد أن كل نظرية تدخل في علاقات جوهرية مع النظريات الجديدة، فلا يمكن أن يقع تغير جدري بين معاني النظريات فكل نظرية تستعين بالمعاني والحدود التي استخدمت في النظرية السابقة لها، لقد وضح العالم "لوردج" هذه المسألة مؤكد على أهمية المقارنة بين النظريات،" فالنظريات المتنافسة قابلة للمقارنة من نواحي عديدة، ويمكن أن تكون النظرية منافسة للأخرى أو أفضل منها، فهناك أمور ثابتة لا يستهان بها بالنسبة للتغير العلمي كالملاحظة والمعنى، فالعلماء في نظره يستخدمون الحدود العلمية نفسها"[1].

[1]- عوض عادل، منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2006م، ص318.

يرى "لوردج" أن العلم يعتمد على مبدأ ثابت حيث يستشهد بالمثال نفسه الذي استشهد به "**فيرابند**" فيما يتعلق بفيزياء "نيوتن" في علاقتها مع فيزياء "غاليلي" إذ يرى ثباتا في المعنى بين حدود النظريتين،" فيما أن فيزياء "نيوتن" يشار إليها أحيانا بالأشياء المادية القريبة من سطح الأرض وموضوع فيزياء "غاليلي" تعد فرعا لموضوع فيزياء"غاليلي"، فالأشياء التي تسير إليها بعض الحدود المستخدمة في (T1) فيزياء "غاليلي" يشار إليها ببعض حدود المستخدمة في (T2) فيزياء"نيوتن" وعند التحول من (T1) إلى (T2) يوجد ثبات في الملاحظة، ومن تم ثبات في المعني."[1]

إن فكرة اللامقايسة تجعل كل نظرية علمية مختلفة كل الاختلاف عن مثيلتها من النظريات الأخرى وكأن كل عالم له كوكب خاص به يتميز بخصائص طبيعية تختلف عن طبيعة الكوكب الأخر، فيعيش كل عالم منعزلاً عن غيره من العلماء حبيس مجموعة من المعاني دون أي اتصال، بحيث لا يستطيع أي عالم أن يفهم أو يتعامل مع النظريات الأخرى، هذا الأمر لا يؤكده الواقع العلمي، "فاللامقايسة تؤدي إلى فقدان خاصية الاتصال المعروفة في العلم بين الأنساق العلمية المتتابعة، كما يقضى على النقاش بين العلماء، فيصير كل واحد منهم أسير نسيج معانيه الخاصة"[2]، وبالتالي تستبعد النظريات العلمية عن بعضها البعض مما يستحيل المقارنة بينهما، فالحدود المتضمنة في النظرية الجديدة تستبعد معاني النظرية القديمة، بالرغم من أن الحد نفسه مستخدم في النظريتين لكن بتصورات مختلفة اختلافاً جذريا، فبالنظر إلى الحدود المعاني نجد أن النظريتين غير متناقضتين، لأن نفس الحدود المستعملة في النظرية الأولى استخدمت في النظرية الثانية، فالكتلة والطاقة والسرعة حدود واحدة سواء في الفيزياء الكلاسيكية أو الفيزياء المعاصرة، إذن فهما غير متناقضتان إذا احتكمنا لمعاني الحدود في حين أن البحث العلمي يرتكز على تبيان التناقض بين النظريات، فيبين النظرية الصحيحة من غيرها وذلك بالرجوع إلى التجربة القوية

1- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

2 - ماهر عبد القادر محمد علي، المشكلات المعرفية، مرجع سابق، ص129.

الحاسمة، وعليه لا يمكن الاحتكام إلى اللامقايسة من منطلق النظر إلى معاني الحدود واللغة المتغيرة، لكن الاختلاف بين النظريات يكون من منطلق التجربة العلمية، "وعليه لا يمكن النظر إلى اللامقايسة على أنها تصور مطلق، أو مبدأ نظري كلي بل إن الكثير من فلاسفة لا يرون في اللامقايسة أمرا واقعيا، ذلك لأن كل نشاط علمي يسعي لهدف معين ويمكن تحديد أفضلية نظرية على أخرى بقدر الاقتراب من هذا الهدف، وعلى هذا الأساس يمكن أن ننقد موضوعيا النظريات العلمية."[1]

إن فكرة اللامقايسة تهدر العلم من خلال الفصل بين النظريات بحيث لا يبقى معنى للتطور القائم على تراكم مجهودات العلماء عبر مراحل العلم المتواصلة، فينقطع الوصل العلمي والمعرفي بين مختلف الأنساق مما يفقد العلم خاصية الاتصال، فلا يمكن إهمال النظريات القديمة في أي بحث علمي، فالباحث يستند دائماً إلى معارف العلمية السابقة، لاستفادة منها أو على الأقل تفادي نقائصها، ذلك أن البحث العلمي قائم على التعرف والبحث على ما توصلت إلى الأبحاث الأخرى من نتائج التي يمكنها أن تكون منطلقات لبحث أخر أكثر عمقاً، فظهور أسلوب جديد لا يعني الإقرار بوجود تغير شامل في طريقة البحث أو اختلاف في حدود المعاني وكأننا في رحلة من عالم إلى عالم أخر يختلف عنه كلية، فالعلم يتراكم من خلال تضافر مجهودات العلماء وبإتباع سلسلة من الأساليب المتنوعة عبر الأزمنة.

إن الفصل الذي وضعه "**فيرابند**" بين النظرية والتجربة التي لا تضيف للنظرية شيء بحكم أن هذه الأخيرة تحتوي على حمولة اجتماعية تشبعت بها وأحالت بينها وبين بناء النظرية، بحيث وظف فكرة اللامقايسة للتأكيد على ذلك، فهو بذلك ينكر القواعد المنهجية والمنطقية في بناء النظريات العلمية مما يعيق الباحث في الوصول إلى أي نتيجة علمية مقبولة ومبرهن عليها من خلال استحالة اختبار أي نظرية علمية أو تكذيبها بالعودة إلى التجربة، إن إنكار "**فيرابند**" لمعطيات التجربة في بناء النظريات العلمية لا يقوم على

[1] - A. Charmers, la fabrication de la science, op cit. p15.

اعتبارات موضوعية بل يستند إلى اعتبارات ذاتية يريد من خلالها إقحام التقاليد الأخرى التي لا تستند إلى أي منطق أو منهجية مضبوطة للمشاركة في العمل المعرفي.

تختلف تطبيقات اللامقايسة من مجال معرفي لأخر، "فتزداد درجة تطبيقاتها عندما يتعلق الأمر بميادين الفلسفة والعقائد والأديان بينما تخف تطبيقاتها عند يتعلق الأمر بالنظريات العلمية وان اختلفت في طريقة تفسيريها للظواهر فهي متقاربة بحكم أن المجال العلمي الموضوعي العقلاني تتقلص فيه مجالات التأويلات، فالترابط الموجود بين مكونات البناءات العلمية أمتن من مكونات الإنشاءات المختلفة"[1].

إن فكرة اللامقايسة واقعة ثقافية مرتبطة باعتبارات شخصية، فالمجتمعات تختلف في ثقافتها وعاداتها في أنماط عيشها وفي التعبير عن أحزانها وأفراحها، لذلك نجد أن المجتمعات تختلف وقد لا تقبل المقاسية بينما الأمر يختلف عندما يتعلق بالأمور العلمية، فقواعد المنطق وأساليب المنهج توحد بين التصورات والأفكار مما يسمح بالمقارنة بينها، فالبناءات الرياضية والفيزيائية العلمية أكثر تماسكاً من تلك البناءات الأسطورية والعقائدية لكن "**فيرابند**" يخلط بين العلم والتقاليد الأخرى ويجعلهما في مرتبة واحدة.

لا يمكن الحديث عن "اللامقايسة إلا في حالة وجود أزمات كبرى تحدث في المشروع العلمي، بمعنى خلل يمس المنظومة بصفة عامة يجعل هذا المشروع خارج دائرة العلم بسبب عدم تماسكه من الناحية المنطقية والتجريبية، لكن رغم الأزمات لا يؤدي إلى إلغاء المشروع العلمي كلية بل يواجه بإيجاد حلول وتعديلات تخفف من حدة الأزمة وبالتالي فإن فكرة اللامقايسة غير مرغوب فيها في الدراسات العلمية لأنها فكرة بعيدة عن الواقع العلمي.

إن النظرية العلمية تكتسب المصداقية بالدرجة الأولى من التناسق المنطقي وليس من عملية التأويل التي تمارسها، فقد يكون التأويل ناقصاً لا يعكس حقيقة التجربة وقد تأتي نظرية لاحقة تقدم تفسير أكثر عمقاً وهكذا يتواصل العلم في التقدم والتطور دون الحاجة إلى رفض النظرية نهائياً والقول باللامقايسة، فاللامقايسة تصدق حينما يتعلق الأمر بالحقيقة

[1] - البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص323.

العلمية في مقابل التفسيرات الغيبية القائمة على الأسطورة والخرافة وليس بين مكونات البناء العلمي كما يعتقد "**فيرابند**".

المبحث الثاني: خرافة اللامعقول

استخدم "**فيرابند**" كل التحاليل الفكرية والفلسفية القائمة على النقد والشك ليناهض كل المحاولات العقلانية ويهدم البناءات العلمية لسابقيه مدافعاً عن الفوضوية واللاعقلانية، رافعاً شعار "كل شيء جائز" ويعتبره المبدأ الوحيد والكفيل بتقدم العلم، هذا المبدأ أقحم من خلاله التقاليد الأخرى اللاعقلانية، بحيث يجعل الفيزياء والدين والسحر والأسطورة والفن في نفس المرتبة، هذا الطرح المبالغ فيه دفعنا للبحث عن نقاط الغلو في فلسفة "**فيرابند**" والكشف عن قصور هذا التصور.

1-العلم وتجاوز اللامعقول:

أراد "**فيرابند**" أن يجعل من بعض المعارف العامية والساذجة منها، والقائمة على الحس المشترك التي مارستها الشعوب البدائية أن تكون في نفس مرتبة العلم، ولا تقل أهمية عن الممارسات العلمية في حين يرى الكثير من الأيبستمولوجية المعاصرين أن تطور العلم مرهون بتلك القطيعة التي يضعها لنفسه مع اللامعقول، فالمجتمعات التي تتمسك بهذه الممارسات التقليدية لم تتمكن من التقدم، لأن هذه الممارسات تشكل عائق أمام الممارسات العلمية، لقد وقف "بشلار" ضد مثل هذه الأطروحات التي تمجد الرأي العام ويعارضه بشكل مطلق لأنه يقوم على الضبابية وعدم الوضوح فهو يعيق التفكير السليم ويقف عائقاً أمام تقدمه، إذ يقول " إن الروح العلمية المعاصرة تعتمد الصرامة الموضوعية وتتماشي مع

المناهج الواضحة، لا يجب أن نثق في العادات التي نعيشها...إن القيمة الحقيقية للروح العلمية تقتضي قطيعة مع المعارف العامية."[1]

إن المعرفة العلمية لا يمكنها أن تتضافر مع اللاعلم أو تستند إليه إن البحث الفيرابندي يهتم أكثر بالجوانب الهامشية على حساب القضايا الجوهرية في العلم ويجعل منها قضايا عقلانية، "فيعتبر موقف الكنيسة التي فرضت رقابة على الأفكار الفلكية الجديدة في أوائل القرن السابع عشر موقفاً عقلانياً، في الوقت الذي يتهم فيه "غاليلي" بالعجرفة والدعاية والمكر، فكتب قائلاً" من جديد كانت إجراءات الكنيسة أكثر صراحة وأكثر نزاهة، وبالتأكيد أكثر عقلية."[2]

في حين يؤكد تاريخ العلم على المضايقات التي مارستها الكنيسة اتجاه العلماء بسبب مخالفة أبحاثهم العلمية لتعاليم الكنيسة، فهو يدافع على التنجيم والسحر، ويبين دورهما في بناء العلم، وغرضه في ذلك الإنقاص من قيمة العقلانية العلمية، "فيعتقد أن مكانة "كبلر" العلمية تمت بواسطة استعمال اكتشافات جديدة لتدعيم ممارسة التنجيم، وهذا إدعاء مغالط لأن"كبلر" مارس التنجيم لغرض الاسترزاق وتوفير ضروريات العيش، وليس انطلاقاً من اقتناع معين بجدواه أو على أنه معرفة علمية."[3]

هناك الكثير من الآراء التي تقول بأهمية التقاليد اللامعقولة في إثارة البحث العلمي، لقد استفادت علم الفلك من التنجيم وعلم الكيمياء من الخمياء لكن لكل واحد مجاله الخاص، "فالتنجيم ليس علماً ولا بحثاً عن معرفة وضعية ولا يقوم على استدلالات عقلية ولا براهين

---

[1] -Gaston Bachelard, la nouvel esprit scientifique p.u.f paris : les presse universitaires de France ,10e édition, 1968.collection: nouvelle encyclopédie philosophique,.1re édition, 1934. P105.
« L'esprit scientifique est strictement contemporain de la méthode explicite, il ne faut rien confier aux habitudes quand observe… la véritable psychologie de l'esprit scientifique serait ainsi bien près d'être une psychologie normative, une pédagogie en rupture avec la connaissance usuelle »

[2] -Feyerabend Paul ;A dieu la raison ; Op cit ; p292.
« Les procédés de l'Église étaient plus francs, plus honnêtes et certainement plus rationnels »

[3] - البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص474.

عقلية وإنما هو مجرد تأويل لوقائع تنطلق من الذات، بينما علم الفلك نشاط بنائي يعيد النظر في أحكامه على ضوء الإستدلال، كما أن الخمياء وعلم الكيمياء تقليدان مختلفان حيث تقف الخمياء عند التشابهات المظهرية للعناصر من أجل إدعاء التأثير سحرياً، بينما علم الفلك يبحث في خصائص المواد التفاعلية، و التمييز بين البناء العلمي والنشاط غير العلمي."[1]

يرى "**فيرابند**" أن اللاعقلانية هي المحرك الأساسي لتقدم العلم مشيراً إلى دور التقاليد الاجتماعية القائمة على اللامعقول ودورها في بناء العلم، فهو يرفض الفصل بين المعقول واللامعقول والمعرفة الإنسانية عنده استفادت من اللامعقول أكثر من استفادتها من المعطيات التي تدعي العقلانية، فتاريخ العلم في نظره يبين التداخل بين المعقول واللامعقول ويستحيل الفصل بينهما، فالتقدم في نظره يحدث عندما يتم انتهاك مبادئ العقلانية والمنطق ويشير إلى بعض الشواهد من تاريخ العلم، فانجازات "كوبرنيك" بنيت على أسس لا تعترف بالنسق العلمي.

قد تكون بعض التقاليد اللامعقولة سبباً في انطلاق أبحاث علمية لكن البحث لا يستمر في اللامعقول بل تتحول معطياته تماشياً مع ما يفرضه البحث العلمي من مناهج وقواعد منطقية تجعله يتجدد بأسلوب أكثر عقلانية تقربه من التفسير الموضوعي، فتتلاشى قوة اللامعقول تدريجيا وتتاح الفرصة للمعقول بالتمركز أكثر بعد أن يقدم نموذجاً علمياً راقياً مبني على العقلانية والمنطق،" يخبرنا تاريخ العلم أن عقلانية مركزية الشمس التي أبدعها كوبربيكوس، لم تثبت رقيها لأنها وقفت حصراً بموقف لا عقلاني من عقلانية مركزية الأرض، بل كاد يكلفها موقفها اللاعقلاني من السابق الشيء الكثير؟ ولكنها أثبتت رقيها لأنها صححت إحداثيات النظر إلى الخريطة الفلكية، وبالتالي إحداثيات النظرة العقلانية، فالتف حولها المناصرون لإيمانهم الشديد بهذه العقلانية الجديدة وتوالت بعدها الفتوحات العلمية من كبلر إلى غاليلي وإلى نيوتن، ولم يحرك هذه الفتوحات العلمية الجديدة شعور

[1] ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

الباحثين باللاعقلانية، بل كان حافزهم الأكبر وقوفهم بجانب عقلانية جديدة تحقق انتصارات واسعة، ويبقى الاطمئنان بالتمسك بعقلانية العلم هو الدافع للتقدم."[1]

هناك فكرة ذات أهمية بالغة أشارت إليها "رجاة العتيري" في كتاب لها بعنوان جدلية المعقول واللامعقول تشرح فيها نظرية أصناف المعقولية وشروطها عند "أبل"(K.O.Apel)، "حيث يرد فيها على أنصار اللامعقول مشيراً إلى أهمية النقد الذي يمارسه العقل على منتجاته من نظريات وظواهر، لكن لا يجب أن يقتصر هذا النقد على الفهم العلمي والوسائلي للمعقولية في معنى ضيق، يجب طرح مشكلة المعقولية بصورة معمقة وجدية للبحث عن كل الأشكال التي يمكن أن تتخذها في مجالات مختلفة وخارج ميدان العلم والتقنية، يعبر "آبل" عن ضرورة فلسفية لتحقيق نقد ذاتي للعقل بحثاً عن شروط المعقولية دون تحيز إلى نوع معين من المعقولية.

يعتبر "آبل" أن نقد العقل والمعقولية من طرف فلاسفة ومفكرين مثل "نيتشه" و"هيدغر""فوكو" و"فريد" يدخل تحت عنوان نقد العقل لذاته في المعنى الايجابي ولا في معنى تكريس اللامعقول."[2] لكن ما نلاحظه عند "**فيرابند**" هو محاولته اليائسة في فرض اللامعقول وتكريسه على حساب المعقول من خلال النقد المفرط للعقل ومقولاته الذي ألقى به في متاهات اللامعقول القائم على الفوضوية، فالنقد الذي يجب أن يوجه للعقل، يمس شروط المعقولية ذاتها ولا يبحث في البقايا التي تلاشت على هامشها.

لقد تجاهل "**فيرابند**" الإنجازات العلمية الناتجة عن تفعيل العقل عبر التاريخ، فلقد عرف العلم ديناميكية داخلية دفعت بالبحث العلمي للاستمرار ومكنته بالإطلاع عن مستجدات انجازات العلماء في ميادين مختلفة التي تؤكد على جدية البحث العقلاني العلمي، لقد تناول فلاسفة العلم العقلانيين قضايا الإبستمولوجية بطريقة أكثر عقلانية، والغرض من ذلك دفع

[1] - موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، مرجع سابق، ص415.

[2] -العتيري رجاة، جدلية المعقول واللامعقول، دار السحر للنشر،مرجع سابق، ص93.

عجلت الدراسات الفلسفية في مجال العلم إلى المزيد من النجاحات، فكانت اللاعقلانية مجرد وسيلة ومرحلة عارضة يتم تجاوزها من خلال التأسيس للعقلانية العلمية.

إن فلسفة "**فيرابند**" في اللامعقول اكتفت بترديد الخطاب النقدي نفسه على جميع التصورات التقليدية، ففي نظره يقوم التقدم العلمي على أساس الإقصاء التعسفي، فيدعي أن الأفكار لا تشيد بناءات علمية قائمة على تحليل منطقي معين وإنما تشيد طبقاً لمخطط إقصائي، وكأن الأفكار في صراع دائم، إذ يعتقد أن العلم انتصر على التقاليد الأخرى بالخداع و القمع والمكر، كما زعم أن فكرة التقدم بالصورة التي يراها لا أساس لها من الصحة، بحكم أن الكثير من المعارف السابقة كانت علمية أكثر من علمية المعارف في وقتنا الحالي، ونحن نتساءل متى كان اللامعقول علم؟ فالعلوم عرفت تطوراً من خلال رفض التصورات اللامعقولة القائمة على التفسير الخرافي، فالفيزياء المعاصرة قدمت تفسيرات عن الطبيعة أكثر مما قدمته الفيزياء الكلاسيكية، فليس من الضروري أن تفند النظرية اللاحقة سابقتها وإنما يمكن أن تحتفظ السابقة بصوابها في مجال مخصص، لكن مستوى الفهم الذي تقدمه اللاحقة يكون أفضل من ذلك الفهم الذي تقدمه السابقة، من هذا المنطلق لا يمكن مسايرة دعاوى "**فيرابند**" التي تجعل العلم والمعارف اللاعلمية، كالسحر والأسطورة، وكل التفسيرات الميتافيزيقية في نفس المرتبة، فهو يعتقد "أن الأنساق الميتافيزيقية نظريات علمية في مستواها الأكثر بدائية، إذ تناقضت مع وجهة نظر محققة جدا، فهذا يشير إلى فائدتها كبديل، وهناك حاجة إلى البدائل لغاية النقد، ومن هنا فالأنساق الميتافيزيقية التي تناقض النتائج التجريبية مرغوب فيها أكثر كبدايات لذلك النقد."[1]

إن النقد الذي قدمه "**فيرابند**" للتوجهات العقلانية ليس الغرض منه تقديم تصور يفيد العلم بل تقديم تصورات لا تقوم على التحليل المنطقي والممنهج فهو يستخدم شعارات جزافية فيشيد بالسحر والشعوذة دون تقديم الأدلة المنطقية والموضوعية على ذلك، فمعظم

[1] - البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص475.

الاستدلالات التي قدمها "**فيرابند**" سواء فيما يتعلق بالمنهج أو بالموضوعية أو العقلانية، تهدم البناء العلمي ولا تساهم في تقدمه، فتحليله للعلم قائم على مبررات سجالية تقف ضد كل التصورات العقلانية دون تقديم البديل الفعلي والحقيقي، فهو يتكلم عن التقدم بصورة مبهمة غير واضحة مستخدم شعار التعددية والاختلاف دون تحديد ملامح فلسفته بوضوح، فهو يضخم الأفكار التي يستعملها في تدعيم تصوره غير العلمي للمعارف، ونقده المتعسف القائم على المزايدات مستخدماً أسلوب التهويل، دون أن يأتي بتحليل يساهم في النقد البناء.

إن ما يميز العلم عن باقي المعارف اللاعقلية تمسكه بخاصية الموضوعية التي تكسبه مناعة تحيل بين العالم ومعطياته الذوقية وتجعله يتعامل مع الواقع دون الغوص في التأويلات الغامضة الناتجة عن الخيال و عن كل ما ينتجه المجتمع من تقاليد ثقافية مرتبطة بعناصر الشخصية، وتجعلنا نتعامل مع المعرفة من حيث هي شيء خارج عن تصورات الأفراد وليس من داخل معتقداتهم وتصوراتهم الخاصة يقول"بوبر":" إن الموضوعية هنا يعني شيئاً مثل فكرة كانط، أي للإشارة إلى أن المعرفة العلمية يجب أن تكون قابلة للتبرير، وعلى نحو مستقل عن مزاج أي كان، وأن تبرير ماهو موضوعي إذا أمكن اختباره وفهمه من قبل الجميع."[1]

إن الدراسات العلمية بينت الفرق الموجود بين المعارف العلمية القائمة على الاستدلال العقلاني والبرهان المنطقي وبين المعارف غير العلمية القائمة على الخيال، فالسحر والأسطورة وكل التقاليد القائمة على التفسير الميتافيزيقي ضعيفة وخالية من البراهين العقلية، وبالتالي لا ترتقي إلى مستوى العلم، فالدعاوي التي أطلقها "**فيرابند**" لمناصرة اللامعقول مبالغ فيها، فتاريخ العلم يؤكد على أن المجتمعات البدائية التي عرفت تفكيراً أسطورياً خرافياً لم تتمكن من بناء منظومة علمية راقية بل هي مجتمعات متخلفة مقارنة بالمجتمعات الحالية التي تطورت بفضل البحث العلمي الذي خلصها من التفكير اللاهوتي الميتافيزيقي، وهذا ما

[1] - نقلا عن: هيلي باتريك، صور المعرفة، مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، تعر، نور الدين الشيخ عبيد،المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م،ص 148.

أشار إليه "أوغيست كونت" عند قسم مراحل التفكير البشري إلى ثلاث أقسام المرحلة الأولى والثانية سادها التفكير اللاهوتي والميتافيزيقي، أما المرحلة الثلاثة هي المرحلة الوضعية.

عرفت المجتمعات القديمة سبل وأنماط ثقافية متنوعة حددت أساليب المعيشة وطرق التفكير وكيفية تعامل مع الطبيعة والانسجام معها، لكن من غير المعقول أن نعتبر ذلك التعامل والانسجام علامة تطور وابتكار، فهي مجرد ردود أفعال تقدم فهماً معيناً وتفسيراً محدوداً يقتصر غرضه على الاستئناس الروحي في مواجهة صعاب الطبيعة وليس فهمها فهماً واضحاً يمكنهم من معرفة الأسباب الحقيقية لحدوث الظواهر الطبيعية.

إن الفهم الحقيقي للظواهر الطبيعية تحقق عندما تمكن العلماء من استنطاق الطبيعة باستخدام المنهج التجريبي العقلاني والابتعاد عن كل العوائق الناتجة عن عناصر الشخصية والتقاليد الاجتماعية المبنية على الخيال، إن النتائج العلمية قائمة بذاتها ولا تدين بشيء لأية فعاليات أو نشاطات أخرى لا علمية، فالأسطورة مثلاً تتميز في سياقها التاريخي بالطابع الخرافي والتفكير الساذج، فلا يمكن لها أن تكون وسيلة من وسائل البناء.

إن الجنوح الذي أبداه "**فيرابند**" في نظر الكثير من الدارسين لفلسفته ومن بينهم "جاكوب لوكنت"(Jacob Lecomte) اتجاه التقاليد اللامعقولة ورفضه لفكرة تفوق العلم، قد يكون سببه نفسي يتعلق بالمعاناة النفسية وحتى البدنية لـ "؟فيرابند" جراء تعرضه –خلال تجنيده الإجباري– عن طريق القرعة في صفوف الجيش الألماني النازي إلى إصابة خطيرة بسبب ثلاث رصاصات استقرت في عموده الفقري، لتحيله إلى إعاقة دائمة وتجبره على استعمال عكازتين طيلة حياته."[1] وكأنه ناقم على العلم وتطوراته بسبب التكنولوجيا التي أحدثها وكانت سبباً في معاناة الكثير من البشر وكذلك عجز الطب الرسمي العلمي عن إيجاد حلول لكثير من الأمور المستعصية في ميدان الطب والبيولوجيا، ولقد قدمنا شرحاً مفصلاً في الفصل الأول من هذا البحث الخاص بالأبعاد النفسية والفكرية لفكرة اللامعقول، بيّنا من خلاله

[1] - Jacob Lecomte , p, Feyerabend , : une théorie anarchiste de la science, « philosophies de notre temps »p216.

العوامل السيكولوجية التي دفعت "**فيرابند**" للتأكيد على أهمية اللامعقول، وبالتالي فإن تحليله ليس منطقي ولا موضوعي بل نابع من دوافع نفسية، لذلك لا يمكن مسايرة ادعاء "**فيرابند**" المتحيز.

لقد اتهم "غاليلي" باستعماله الدعاية والخداع واستغلال جهل الناس، إذ يقول عنه أنه استعانة بالأمراء لغرض نشر أفكاره لأنها غير علمية وتتعارض مع الواقع، لكن لقيت رواجاً بفضل معرفته للخطابة، يقول "فيرابند":" تعتبر ألفاظ "غاليلو" في الواقع حججاً من ناحية المظهر، فقط يستخدم "غاليلو" الدعاية والحجج النفسية، بالإضافة لأية أسباب عقلانية يقدمها، هذه الحجج ناجحة جداً حيث قادته للنصر."[1]

إلا أن هذا التصور الساخر من "غاليلو" ومن العلم والعلماء لم يكن مؤسسا على حقائق تاريخية مؤكدة بل على العكس من ذلك فالدراسات التاريخية للعلم تؤكد مجهودات "غاليلو" التي لا يمكن الاستهانة بها، "فلقد ترك كراسات و مخطوطات بخط يده تبين مدى قدرته على التحليل و الدراسة العلمية، التي فتحت أفاقاً نحو عالم جديد تجاوز به العالم الأرسطي."[2]

إن العلم المعاصر يدين لأبحاث "غاليلو" فالاكتشافات التي قام بها بفضل التليسكوب لقيت اعترافاً من لدن العلماء المعاصرين له مما جعله يتربع على عرش علم الفلك بدون منازع، يقول "أمرلوليس":"إن التكتيكات التي يستعملها "فيرابند" لإنشاء قصة مضادة حول تليسكوب غاليلي، تكشف عن شعاره المتمثل في "كل شيء جائز" عوض أن يقوم بتبريره."[3]

يبدو أن "**فيرابند**" يتصيد أبسط التفاصيل في حياة العلماء، لكي يطعن في قيمة العلم، واصفاً منجزاتهم بالعشوائية إن حديثه عن "غاليلي" ليس حديث علم بل حديث يخص شخص اصطنعه من خياله ليبرر موقفه التعسفي من العلم القائم على الفوضوية، ومناصرة

---

[1] - فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص119.
[2]- جمال ميموني، ونضال قسوم، قصة الكون، من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم، دار المعرفة، الجزائر،(بط)، 1988م، ص114.
[3] - نقلاً عن البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص391.

اللامعقول، فهو لا يهتم بصيرورة وتطور الأفكار العلمية وتلاحقها وتفاعلها مع التقاليد الثقافية الأخرى وإنما يؤول الأحداث تأويلاً اعتباطياً من أجل التعتيم على عقلية العلم.

2-ذاتية الفن وموضوعية العلم:

لا يمكن إنكار التداخل الموجود بين كل مكونات الحياة الذهنية بما فيها علاقة العلم بالفن فكلاهما ينشط بأشكال متوازية داخل النسيج الاجتماعي، فكلما تطورت العلوم تناسب معها تطور في الفنون وأي تراجع للعلم يؤثر على باقي الأنشطة الاجتماعية بالتراجع وخاصة الفنون لما لها علاقة قوية بالعلم، فأي رقي علمي يمتزج بتلك الصور الجمالية الفنية، فالصور الجمالية للفن تضفي على العمل العلمي طابعاً إبداعيا، "ولعل أبرز مثال يكشف عن درجة مهمة من التداخل بين العلن والفن هو عصر النهضة الأوروبية، إذ أصبح واضحاً لدى جل المهتمين أنداك أن الفن، سواء في المعمار أو النحت أو التصوير أو الموسيقي، لا يستطيع أن يعبر عن تفاصيل الموضوعات التي يتعرض لها، إلا عن طريق اقتباس آليات هندسية وبصرية."[1] فعناصر الذوق تتلاحم مع عناصر الإدراك والاستدلال، فالفن ينشئ علاقات معينة بين موضوعات عدة، فيعبر عنها بصورة جمالية تعكس ذوق رفيع يعكس مستوى معرفي معين، لذلك ذهب "**فيرابند**" إلى اعتبار العلم فن والفن علم.

إن العلاقة التي تحدث عنها بين العلم والفن، يؤكدها تاريخ العلم وتاريخ الفن مند القدم، لكن "**فيرابند**" يتحدث عنها بنوع من المبالغة المفرطة، فيجعل العمل الفني مطابق لعمل العلمي، ويصدر أحكاماً تتنافى و الممارسات الفنية والعلمية، فالفن عرف تطوراً هاماً في عصر النهضة ولكن هذا التطور يرجع للتطور العلمي الذي عرفه هذا العصر، إلا أن هذا لا يبرر منافسة الفن للعلم، ولا يؤهله ليرتقي إلى نفس مرتبته.

يرفض "**فيرابند**" الصرامة العلمية وفي المقابل يشيد بالفن، إذ يقول:" العلم ليس عريضة محامي بل هو فن."[2] في إشارة منه للتأكيد على دور الحرية في الممارسة العلمية التي تشبه

---

[1] - عن البعزاتي بناصر، الاستدلال والبناء، مرجع سابق، ص399.

[2] -Feyerabend Paul, la science en tant qu'art. op cit .p 147
« La science n'est pas un article d'avocat, elle est un art »

العمل الفني، فالفنان يمارس عمله بكل حرية متجاوزاً كل تلك الصرامة التي تفرضها الإجراءات الشكلية.

إن الفن هو تعبير عن الذات من خلال تفعيل الذوق المبني على الميول والرغبات والخيال والعاطفة وغايته في ذلك البحث عن الصفة الجمالية، فهو ينظر للعالم نظرة ذاتية، بينما العلم دراسة موضوعية يتعامل العالم فيها مع معطيات الطبيعة، ليعكس حقيقة الظواهر دون تدخل الجوانب العاطفية، بحيث يستخدم الملاحظة والتجربة ليصل إلى قوانين عامة معتمداً في ذلك على المنهج العلمي.

إن غاية العلم وهدفه المنفعة والمعرفة والتعميم بينما غاية الفن الخلق الفني للواقع، والبحث عن الصفة الجمالية والتشخيص، فالعلم يعتمد على المنهج في التعامل مع الأشياء يبدأ من انطباعات حسية وينتهي إلى نظريات علمية بعد إخضاعها للاختبار والتجريب بينما نظرة الفن للعالم والوجود نظرة ذاتية تعتمد على الحدث المباشر والذوق الجمالي كما أن لغة العلم دقيقة كمية، أما لغة الفن كيفية ووصفية وقابلة للتأويل بمعان متعددة ومعيار الصدق في العلم خارجي موضوعي، أما الفن فمعيار الصدق فيه داخلي ذاتي وغير قابل للقياس الموضوعي، فالعلم يتناول الواقع بمختلف أصنافه سواء طبيعي أو اجتماعي أو نفسي، لكن الفن يتناول الواقع من منظار الفنان ذاته بحيث يمتزج عمل الفني بالعواطف والخيال، فينظر إلى الحقيقة بمنظار خاص، فهو لا يعكس لنا الواقع كما هو بل يعكسه من خلال عواطفه، أما العلم يسعى إلى الكشف عن حقيقة الواقع كما هي وبطريقة موضوعية، لذا لا يمكن مسايرة أطروحة "**فيرابند**" التي جعلت الفن علم، فالشاعر والرسام يرتمي في أحضان الطبيعة مشكلاً لوحات فنية تحرك خياله وتثير انفعاله وإحساسه المرهف، فالفنان أكثر إحساسا بجمال الطبيعة فهو يكشف لنا جوانب هذا الجمال كما يعكس لنا امتزاج التجربة الشعورية بالطبيعة مستخدماً مخيلته، فينقل لنا الواقع نقلاً وجدانياً بخلاف وصف العالم الفيزيائي الذي ينقلها نقلاً واقعياً مستنداً على العقل و الإستدلال المنطقي القائم على التجربة والملاحظة،

فالفيزيائي يعتمد على قواعد صارمة وقوانين حتمية في تفسير الظواهر الطبيعية فهو يسعى إلى الكشف عن الحقائق باحترام الدقة العلمية، والابتعاد عن الأحكام الذاتية البعيدة عن الواقع، فيتجرد من كل عناصر الشخصية أثناء الممارسة العلمية، إن البحث العلمي الدقيق خاصة في ميدان الفيزياء، أدى إلى التخلص من الإسقاطات النفسية والتصورات اللاهوتية والأسطورية، فاتجه الخيال الفكري نحو الإبداع العلمي، فأخذ دلالة موضوعية من خلال نزع الشوائب السيكولوجية والعاطفية والذوقية، التي تشوش على صفاء المعرفة العلمية.

لا يمكن إنكار الجانب الجمالي في الأعمال العلمية لكن هذا لا يبرر القول بأن العلم فن، فالفنون تنشئ أشكال نسيجية متعددة ومختلفة، حسب طبيعة العمل الفني وهي تختلف من عصر إلى أخر بسبب تغير الأذواق والاهتمامات بينما العلم يبني نظريات من خلال عملية التطور وبالاعتماد على مجهودات العلماء عبر العصور.

لم يولي "**فيرابند**" اهتماما لهذا الفرق الموجود بين الفن والعلم بل اهتم فقط بالنقد المباشر والتسرع في تقديم الأحكام متعسفة دون فحص لعناصر الإدماج بينهما أو تكوين تصور يقف عند تفاصيل الآليات والأغراض، فلا يستعمل الفنان آليات العلم بنفس الوظائف والأغراض التي يستعملها العالم فهو يتكلم عن التطابق بين العلم والفن وكأنه أمر مؤكد وهذا راجع للتنشئة الفنية لـ "**فيرابند**" وتأثره بالفن المسرحي "الددائي"، والغرض الأساسي من ذلك هو تدعيم أطروحته في الفوضوية لا غير.

3-مثالية المجتمع الحر عند "فيرابند":

يتكلم "**فيرابند**" على المجتمع الحر من منطلق قناعته القائمة على إعطاء الأفضلية لكل التقاليد في المشاركة في بناء المجتمع الحر، فكل التقاليد بما فيها العلم متساوية فيما بينها ولها نفس الحقوق هذا الطرح جعل من الحرية التي ينادي بها "**فيرابند**" غير متاحة واقعياً، فالتقاليد التي يتكلم عنها ويطالب بالإفصاح عنها باسم الحرية مارست قمعاً في فترات معينة من تاريخ البشرية، فلقد مارس رجال الكنيسة كل أنواع القمع والاضطهاد، ومارس السحرة الشعوذة، بينما الحرية الحقيقية هي التي تتجسد في وعي الإنسان وعقلانيته العلمية التي

حررت الإنسان من قيود الجهل، فهو يتحدث عن حرية مثالية بعيدة عن ملابسات الواقع، هذه الحرية التي تنفي كل التزام تهمل الوجه الحقيقي للحرية التي تجعل الفرد يشتغل داخل بيئته الاجتماعية ومن خلال تتبع التراتبية الاجتماعية وتجعل العلم على قمة الهرم.

لا يمكن أن نتحدث عن مجتمع حر يسير فيه المشعوذ في نفس مرتبة العالم، فهو يجعل من إمكانية تعلم السحر وإقامة مدارس لتعلمه بجانب مدارس العلم، ويعتبر ذلك ظاهرة ايجابية تمكن الجميع من المساهمة في العملية التنموية داخل المجتمع الحر فعوض أن نتكلم عن الحرية من منطلق الخيال، ينبغي البحث عن سبل التي يمكن أن تتحقق من خلالها واقعياً وفي إطار منظم، وهذا الإطار يكون بالوعي الذي يؤطره العلم، فلا يمكن الحديث عن الحرية إلا في إطار محدود ومجال خاص، فهي مرتبطة بوضع معين،" فالعالم الذي يرجو أن يقدم مساهمة في مجال العلم يجد نفسه أمام وضعية موضوعية تواجهه، كذلك يجد الفرد الراغب في تحسين المجتمع نفسه وجها لوجه أمام وضعية موضوعية."[1]

إن المجتمع الحر الذي يدعو إليه "**فيرابند**" من منطلق المبدأ القائل "كل شيء جائز"إنما هو إشارة إلى ضعف محاولته في إيجاد حلول مناسبة ومنظمة للإشكاليات الإبستمولوجية، بحيث أقحم كل التقاليد الاجتماعية وجعلها في نفس قيمة الدراسات العلمية، واعتبر العلم ظاهرة غريبة عن المجتمع ودعى إلى تحرر المجتمع من العلم،إذ كتب قائلاً:" يلح المجتمع الحر على الفصل بين العلم والمجتمع."[2]

إن هذا الفصل الذي يدعو إليه لا تؤكده الدراسات التاريخية للعلم، لقد تناسى دور العلم وأهميته في تطوير المجتمعات، فالرفاهية التي يعيشها الإنسان المعاصر والسعادة التي حققتها التكنولوجيا في واقعنا اليومي، حررت الإنسان من قيود الطبيعة وارتقت به إلى مستوى إنسانيته.

---

[1] - شالمرز آلان، نظرية العلم، مرجع سابق، ص144.
[2] - فيرابند بول، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص42.

إن القول بأن العلم ساهم في بناء المجتمع بنفس الطريقة والمستوى الذي تساهم به كل التقاليد الأخرى يعد إجحاف في حق العلم الذي غير من وضع المجتمع نحو الأحسن، بينما لم تتمكن التقاليد الأخرى رغم تغلغلها في المجتمعات منذ القدم في تطويره وتقدمه، وخير دليل على ذلك المجتمعات المتخلفة التي مازالت تخضع لعادات وتقاليد اجتماعية أبقتها على تخلفها، لذلك يقول "جون كرايج"(Krige.j):"إن القول بأن كل شيء حسن يعني عملياً استمرار الأوضاع على ما كانت عليه."[1]

يرى "**فيرابند**" أن المجتمع يسير حراً عندما يضع لنفسه قطيعة مع السيطرة التي يمارسها العلم وفي المقابل يشير إلى التقاليد غير العلمية ومكانتها في المجتمع الحر، لكن السؤال المطروح هل يمكن أن نتصور مجتمع حر بدون علم؟ وهل يمكن للتقاليد الأخرى أن تضمن الحرية داخل المجتمع ولا تمارس اكراهات تتجاوز ما يفرضه العلم من التزام.؟

إن القول بأن العلم مارس القمع والاضطهاد ضد التقاليد الأخرى أمر لا يؤكده تاريخ العلم بل على العكس من ذلك يخبرنا التاريخ العام أن هذه التقاليد لم تكن هي الأخرى بمنأى عن هذا المسعى التوسعي والقمعي ولا يخفى على أحد ما نتج عن استعمال الكنيسة للقمع ضد العلم والعلماء.

إن المجتمع الذي ينفصل عن العلم مجتمع غير قابل للتطور، ومعرض للتخلف خاصة إذا رضخ للتقاليد اللامعقولة، لقد لعب العلم دوراً كبيراً في بداية العصر الحديث حيث أنقذ أوروبا من براثن تخلف العصور الوسطى أو ما يسمى بعصور الظلام، ومن ثم في قيادة العالم، فقد انتصر العلم الحديث عن عناصر الثقافة الغربية القديمة والوسطية وبلغ أوج تطوره عندما أمكن تطبيق نظرياته عملياً في التوسع الصناعي، فغير حياة الناس نحو الأحسن.

يلاحظ على "**فيرابند**" عدم اهتمامه بمرامي عباراته فهو يلح على فصل المجتمع عن العلم في كتابات وفي مقالات أخرى يلح على الفصل بين الدولة والعلم، فتارة يدعو إلى فصل

[1] - شالمرز آلان، نظريات العلم، مرجع سابق، ص145.

المجتمع عن العلم وتارة أخرى يدعو إلى فصل الدولة عن العلم وفي كلا الحالتين يأخذ تحليله منحى تعسفي في حق العلم، سواء اتجاه المجتمع أو اتجاه الدولة، فيتهم العلم بالتواطؤ مع السلطة من خلال تسهيل مهام رجال السياسة ومساعدتهم في السيطرة على المواطنين، حيث تقدم المشاريع والمعلومات، ففي نظره " العلماء يكذبون، وينافقون من أجل تحقيق أغراض شخصية، وبالتواطؤ مع المؤسسات ضد المواطنين البسطاء، فهو يشبه الدكاترة العلماء بالدكتاتوريين الفاشيين الذين يفرضون أفكارهم حول المرض والصحة تحت غطاء العلاج، الذي هو مجرد تمرن سخيف في أغلب الحالات."[1]

لا يمكن إنكار نسبية العلم ومحدودية في معرفة حقائق الكون كلها لكن هذا لا يبرر الانتقاص من قيمته، بحيث تجعل التقاليد اللامعقولة، في نفس مرتبته، إن المعرفة البشرية وخلال مسيرتها عرفت أنواع كثيرة من التفكير، من بينها التفكير اللاعقلاني الناتج عن ممارسات شعبوية وطائفية، سياسية أو دينية أو فكرية، عملت على تقييد العقل العلمي باستخدام أساليب وطرق مشبوهة لتبرير أوضاع قائمة لصالح طبقة أو فئة اجتماعية معينة، هذه المؤسسات أرغمت العقل على التنكر لمنجزاته، مند أن تجاوز كل تقاليد اللاعقلانية.

إن دعوة "**فيرابند**" جعلت العقل ينكر ذاته وجعلت العلم داخل فقص الاتهام، رغم ما قدمه من انجازات هامة حرر بها الإنسان من مجاهل الطبيعة، لقد تجاهل الفرق الموجود بين الأنشطة المتعددة التي يقوم بها الإنسان، وجعلها متطابقة بكيفية اعتباطية تتحكم فيها علاقات اجتماعية ومناورات إيديولوجية، لا يمكن أن نجعل العلم حبيس تقاليد زائفة، إن المجتمع الحر هو الذي يختار ماهو صائب، ويتماشى مع معطيات الواقع الحضاري والعلمي، بحيث يتجاوز كل الصعوبات التي تواجهه في مرحلة ما ولا يلجأ إلى الخرافة والأسطورة والشعوذة، وبما أن المجتمع هو الذي يختار من الشتات المتنوع من التقاليد مع تحمل تابعيات اختياره يبقى العلم هو الإنارة اللازمة والورقة الرابحة في عملية الاختيار، لأنه يمثل السجل الذي يوثق كل المعارف المتاحة في الواقع، ويضمن كل الإنجازات المادية

[1] - البعزاتي بناصر، الإستدلال والبناء، مرجع سابق، ص379.

لعملية التطور، إن المعرفة العلمية هي الوسيلة الوحيدة التي تحرر المجتمع من قيود التقاليد اللامعقولة وتفتح أفاق نحو معرفة أفضل بإتباع التصويب الممنهج القائم على العقلانية.

4- في علاقة الدين بالعلم

من المتعارف عليه أن الإنسان بحاجة إلى معتقد حتى يحافظ على توازنه الروحي والنفسي خاصة مع التطورات التي عرفتها البشرية التي أنتجت في جانبها السلبي أخطار وصعوبات هددت حياته واعترضت مسيرته وجعلت الإنسان يقف حائراً أمام الكثير من الظواهر التي لم يستطع العلم الإجابة عنها، فتساؤلاته المستمرة عن مصيره وعن الموت وهل هناك حياة بعد الموت، دفعته للاستئناس بالدين لعله يجد ضالته من خلال سعيه للكشف عن بعض الأسرار دون البرهنة عليها، المهم عنده الاقتناع بها ووضع حد لعناء البحث المتواصل عن الحقيقة، لقد عجز العلم عن إعطاء تفسير مقنع عن الوجود وهذا ما أشارة إليه "**فيرابند**" مبيناً محدودية المناهج العلمية ودورها السلبي في إعطاء تفسير قويم للوجود والإنسان.

لا يمكن النظر إلى العلاقة القائمة بين الدين والعلم على أنها علاقة عداء وتناقض، بقدر ما هي علاقة تكاملية لأن كل واحد منهما يعمل في مجاله ويحدد مساحته، فالعلم يهتم بالجوانب المادية الموضوعية للعالم ويبحث في الظواهر بمختلف أنواعها، بمعنى يبحث فيما هو كائن ومعيار الصدق فيه الالتزام بقواعد المنطق في تحديد الصواب من الخطأ، بينما يبحث الدين في معطيات الروح القيم ويبحث فيما يجب أن يكون، ومعيار الصدق فيه الخير والشر، الحلال والحرام، لتحديد معنى الحياة بالبحث عن معنى سؤال الوجود والماهية والجوهر والروح، لذلك فالتفاعل الإيجابي بين الدين والعلم أصبح أكثر من ضرورة، فالانفتاح على بعضهم البعض يرسم طريق التقدم ويعيد بناء تصورات جديدة، قائمة على أساس التعدد وإعطاء الفرصة لكل التقاليد بما فيها الدين للمشاركة في بناء صرح الفكر الإنساني.

إن العقل لوحده عاجز عن إدراك الحقيقة وإنما الحقائق يكتشفها الإنسان داخل النسيج الثقافي العام للمجتمع في تعامله مع الواقع في ظل تشابك كل الصيغ الأسطورية والدينية

والأيديولوجية والعلمية، حيث "يبرز الدين متحركاً بالأيمان ومحركاً لمعتقدات قد تساند العقل وتتعاون معه بغير عدائية أو مشاعر سلبية، من أجل الكائن في هذا الوجود، وضمن مأساة وأمام مصير وإشكاليات ماورائية غير قابلة للتوضح."[1]

إن النظرة الأحادية التي يقدمها العلم للوجود أصبحت تشكل أزمة رئيسية وهذا بسبب التوجه المادي المنغلق التي أدى إلى تراجع القيم الروحية، وبدأ البحث عن السعادة من جديدة بعد أن عجزت الجوانب المادية في تحقيقها، "ولما اختلف الناس في مستوياتهم العقلية اختلفوا في معتقداتهم وتعددت مللهم كيفما كانت هذه الملل المهم هو أن كل طائفة عثرت على تلك القوى التي كانت تبحث عنها حتى ولو تمثلت هذه القوى في تمثال أو كوكب أو أي شيء من الأشياء المادية التي لا يستطيع أن تغير شيئاً، ومع ذلك أصبحت تطمئن وتلجأ إليها عند الضرورة بالرغم من عدم فعاليتها، ومن هذه الناحية يكون لها دور ايجابي لأنها تدخل على النفوس الطمأنينة لا غير."[2]

لكن بالرغم من هذه الجوانب الإيجابية للدين تناسى "**فيرابند**" الجوانب السلبية والمتمثلة في ممارسات رجال الكنيسة داخل الحياة الاجتماعية عندما جردوا الدين من قيمه السامية وجعلوا منه وسيلة لتحقيق مصالحهم، فقيدوا الفكر وكبلوه بسلاسل الجهل وسيطرة الكهنة على السلطة وأصبحوا يتكلمون باسم الآلهة، بل ذهب بعض رجال الكنيسة إلى اعتبار أنفسهم أبناء الله في الأرض، وأن لهم العناية الإلهية التي تمكنهم من السيطرة على المجتمع، فأصبح أفراد المجتمع يخضعون لتعاليم رجال الدين تقرر مصيرهم وتتحكم في مستقبلهم، وجعلت منهم عبيد ينفذون أوامر وتعاليم الكهنة ورجال الكنيسة عنوة رغم اختلافها مع تعاليم قيم الدين الحقيقية.

أصبحت التعاليم الدينية القائمة على تأويل المقدس تقيد العمل الفكري وتثبط عزائم العلماء في البحث، فالكثير من الأبحاث العلمية توقفت بسبب تعاليم رجال الدين المنغلقة،

---

[1]- علي زيعور، ميادين المدرسة العربية الراهنة في الفلسفة والفكر، دار النهضة العربية،بيروت، لبنان،ط1،2005م،ص135-136.

[2] - خضير ادريس، دعائم الفلسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط3، 1986م، ص310.

فلقد قاد رجال الدين الكاثوليك حرباً شرسة ضد العلم والعلماء في القرون الوسطى وسيطروا على المجتمع الأوروبي لمدة طويلة اتسمت بعدم التسامح والعنف ضد كل من يخالف تعاليم الدين المسيحي، فتراجعت الأبحاث العلمية واتهموا العلماء بالهرطقة والشعوذة والسحر وأقيمت لهم محاكم وحدث ذلك مع "جيرانيو برونو"(1548–1600) الذي كشف في أبحاثه عن معطيات جديدة يؤيد فيها التصور الكسمولوجي لـ "كوبربيكوس" القائل بمركزية الشمس وأن الكواكب كلها بما فيها الأرض والنجوم تدور حول الشمس مخالفاً ما قالت به المسيحية، والتي اعتبرت أن الأرض هي مركز الكون، وبذلك يكون برونو قد مهد لتصور كوسمولوجيا جديد فتح أفاقا للفكر الأوروبي، حيث بين من خلال مؤلفاته العلمية خاصة كتابه"من اللانهائي الذي لا يقاس" الذي يعيد فيه النظر في مسائل فلكية وفيزيائية هامة ويبين فيه ما توصل إليه العلم التجريبي الدقيق."[1]

---

[1] – زيغريد هونكه، العقيدة و المعرفة، ترجمة عمر لطفي العالم،دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987م، ص215.

هذا الطرح الجديد الناتج عن الأبحاث العلمية أغضب رجال الكنيسة، "وثم القبض على "برونو"سنة 1594م، وأودع السجن من قبل الكنيسة لمدة ستة أعوام في انتظار تقديمه للمحاكمة وفي سنة 1600م قدم إلى المحاكمة، فأدانته بتهمة ما كان يعرف آنذاك بالهرطقة و الزندقة، رفض مبدئياً أمام المحكمة نوع الخطيئة الموجهة إليه تم حكم عليه بالإعدام حرقاً، وربط لسانه وتم تجريده من ملابسه وقيدت يداه وقدميه بقضيب من حديد تم جيء به إلى ميدان الزهور وسط روما، تم بدأ منفذوا الإعدام بحرقه حياً وسط حشود كثيرة من المؤمنين بالكنيسة الذين كانوا يهتفون بالموت للكفار مثل "برونو".[1]

هذه الأحداث وغيرها كافية بالرد على "**فيرابند**" عندما دعى إلى جعل الدين في نفس مرتبة العلم واتهم العلم بممارسة مضايقات دعائية على التقاليد الأخرى بما فيها الدين.

[1]- م عبد الفاتح بن عمار ،جرائم الكنيسة في حق العلم والعلماء موقع مقالاتي، للكتابة والنشر، تاريخ النشر، 2012/03/06، تاريخ الاقتباس، 2017/10/07.على الساعة الحادية عشرة صباحاً، الرابط الكتروني، http://www.maqalaty.com/9439.htmp.،

لقد أثبت الأبحاث العلمية التي قام بها "غاليلو" عن مدى صدق العلماء الذين اتهمتهم الكنيسة بالزندقة ومن بينهم "برونو"، وكاد أن يلاقي "غاليلو" نفس المسير لولا رواج أفكاره وشهرته واتساع دائرة معارفه في أوروبا بكاملها، ورغم ذلك أرغم على التخلي عن أفكاره والاعتراف بخطيئته والندم أمام المحكمة وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته وانعزاله عن الناس."[1]

إن الأسطورة والخرافة التي دعى إليها "**فيرابند**" لم تمارس من طرف العلماء بل تجسدت فيما قاله رجال الكنيسة عن الظواهر الطبيعية التي كانت تهدد البشرية، لقد أرجعت الكنيسة أسباب حدوث الصواعق والبرق بإعراض الناس عن دفع الزكاة والتخلي عن بناء الكنائس، وأن الأعاصير والرياح العاتية تصنعها الشياطين، واعتبروا أن الكائن الحي كائن مقدس لا يمكن المساس به، شكلت كل هذه التصرفات عائقاً حقيقياً أمام تقدم العلم وتطور المجتمعات.

---

[1]- أبودية أيوب، العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيك إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت،لبنان، ط1، 2009م، ص129.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل مارس رجال الدين في الإسلام ممارسات مشابهة لتلك التي قام بها رجال الدين في الكنيسة؟ والحديث هنا دائما ليس على المقدس في حد ذاته بل الحديث يقتصر عن الممارسات الناتجة عن التأويل للمقدس من رجال السياسة المتدينين.

لعب الإسلام دوراً هاماً في تغيير حياة الناس نحو الأحسن وعلى جميع الأصعدة، الأدبية والغوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية، حينها تمكن المسلمين من بناء حضارة استفادت منها الإنسانية جمعاء من خلال الأفكار السامية المبنية على قيم التسامح الإنساني والمفاهيم القيّمة التي سادت العالم الإسلامي لفترة لا تقل عن سبعة قرون، لكن بمجرد تخليهم عن هذه المبادئ، وبسبب الفهم الضيق للنص المقدس والأنانية المفرطة الناتجة عن المصلحة وحب السلطة، واستغلال الإسلام من طرف رجال السياسة وتخليهم عن العلم وتقربهم من الخرافات والأوهام، أصبحت ممارساتهم أكثر عنفاً وشبيهة بممارسات رجال الكنيسة في العصور الوسطي،" فابن المقفع الذي كانت عقيدته مزيجاً بين فلسفات الشرق والغرب ووصلت تصرفاته إلى حد إغضاب الخليفة المنصور إبان الدولة العباسية، فاتهمه حينها بالكفر تم قتل وقطعت أطرافه وألقي في النار، وما حدث للإمام ابن حنبل الذي تعرض إلى الكثير من المضايقات وتم سجنه من قبل الخليفة المعتصم، وقد عذب في السجن، وما حدث للكندي الذي جرد من ملابسه وهو في الستين من عمره وجلد ستين جلدة، وذلك نزولاً عند طلب الحكم وسط تهليل الناس، وهو ما حدث للرازي الذي ضرب على رأسه حتى فقد بصره، وابن رشد الذي جلبت له فلسفته العقلانية هموماً كثيرة، وحرقت داره وكتبه واتهم في إيمانه والكثير من الفلاسفة التي وجهت لهم تهم الزندقة."[1]

[1] - عبد الفاتح بن عمار، جرائم الكنيسة في حق العلم والعلماء الموقع السابق، تاريخ النشر، 2012/03/06، تاريخ الاقتباس، 2017/10/07.على الساعة الحادية عشرة ونصف صباحاً، الرابط الكتروني، http://www.maqalaty.com/9439.htmp

لقد أفرزت التأويلات الخاطئة والفهم الضيق للنصوص صراعات مسلحة بين الطوائف التي تدعي كلها امتلاك الحقيقة المقدسة، فانتهكت الأعراض وقتل الآلاف الرجال والنساء والأطفال وحطمت مدن ودول بأكملها باسم الشرعية الدينية، إن هذا التأويل عمل على تقويض وسائل الحوار وأدى إلى جمود الفكر وتحجره و تسبب في تخلفت المجتمعات وتقهقرها.

إن السبيل الوحيد للخروج من ضائقة ظاهرة التأويل السلبي لنصوص الدينية، هو إقحام المجتمع في حركة علمية صحيحة نتجاوز من خلالها الانطباعات الإعتقادية الخاطئة والإبقاء على الجوانب الإيجابية منه، فعملية الانتقاء القائمة على القياسات والمعايير العلمية ضرورية للتميز بين مظاهر الاعتقاد والأفكار الدينية، سواء تلك التي تخالف قيم الإنسانية أو تلك التي تتماشى معها، وهذا خلافاً لشعار "**فيرابند**" القائل "بأن كل شيء جائز."

إن ضرورة التميز تدفعنا للحفاظ على الجانب التعبدي المتعلق بالوجدان بينما الجانب الفكري والعملي أصبح أكثر اتصالاً بالمفاهيم العلمية فعلى الدين أو بالأحرى رجال الدين، أن يستفيدوا من الإنتاج العلمي ويسايرونه حتى يتم تصحيح مسار البحث الديني ليتماشى مع متطلبات العلم.

لقد عكس "**فيرابند**" الوضع ودعى إلى تحرر المجتمع من العلم عوض أن يدعو إلى تحرر المجتمع من الدين، ليس الدين كجوهر مطلق ثابت متعالي مقدس قادم بواسطة النقل بل الدين المتحول إلى ممارسة الحاضر في سلوك المتدين بالعادة، "إنه لمن الصعب على مجتمع منغلق بسبب التدين المتطرف، أن يخرج من الوضع الذي يعيش فيه، ويدخل في

وضع جديد، قائم على التفكير العلمي، نظراً لتلك الأصفاد التي تكبله والحواجز الموضوعة في طريقه من قبل العرف الاجتماعي النابع من العقيدة التي يعتنقها."[1]

إن النقد الذي يقدمه "**فيرابند**" للعلم ويشيد في نفس الوقت بأهمية الدين غير مؤسس خاصة وأنه يستشهد بتاريخ العلم من زاوية معينة تخدم النقد أكثر من البناء، "فمن الخطأ ادعاء أن ذلك الاندماج علامة على ابتكار الناس وقدرتهم على الفهم، إن تلك السبل المليئة بثغرات في تفسيراتها وفهمها للظواهر، تستطيع الرقي إلى مستوى الفهم العلمي، ويبالغ "فيرابند" في امتداح تلك الأزمة الغابرة وكأنها جنة مفقودة، وبؤرة لعلاقات إنسانية بريئة قبل أن تتعرض للهجمة العلمية، فهذا تصور رومانسي للتاريخ بعيدة عن الواقع التاريخي، إذ ليست الثقافات الأخرى بريئة ووديعة وليس العلم ذلك المارد المتربص بالضعفاء."[2]

لقد عرف المجتمع الحديث تطوراً هائلاً بفضل العلم وذلك من خلال تحرير العقول من التعصب الديني التي فرضته المسيحية، وعندما وقع الفصل بين العلم وسيطرت الدين تحرر العقل واندفع للبحث فكشفت أسرار واخترعت مصنوعات، ولوتم هذا التحرر سابقاً لعرفت البشرية تطوراً قبل العصر الحديث، وقد يكون سبب تخلف المجتمعات القديمة تمسكها بالوثنية وإعراضها عن تفعيل العقل في مجالات الحياة، فالعلم مجاله العقل المدعم بقواعد المنطق والتجربة والاستدلال البرهاني، وحقائقه نسبية متغيرة محدودة بينما الدين مجاله القلب والإيمان المطلق بالخالق وبالآخرة، وبمعجزات الأنبياء ونبوءتهم وبالجنة والنار هي أمور نؤمن بها غيبياً، وبالتالي لكل واحد منهما مجاله الخاص، فالعقيدة ثابتة ومطلقة تتعلق بالوظيفة القلبية والفضائل المتعالية ومتى خرج الدين عن هذه الوظيفة تحول إلى وسيلة في يد أصحاب السلطة تمكنهم من التسلط وإضعاف الشعوب، فلا يمكن للدين أن يحل محل العلم.

---

[1]- خضير ادريس، دعائم الفلسفة،مرجع سابق، ص311.
[2]- البعزاتي بناصر، الإستدلال والبناء، مرجع سابق، ص397-398.

خاتمة

خاتمة:

بناءاً على ما تقدم من دراسة تحليلية نقدية للأهم عناصر الإشكالية المطروحة في البحث، والمتعلقة بفلسفة اللامعقول عند فيرابند ومدى قدرتها على اقتحام أسوار الدراسات العلمية المحصنة بقواعد المنطق ومنافسة العلم بل دفع البحث العلمي ليقتحم هو بدوره مجال اللامعقول، نحاول في خاتمة هذا البحث أن نحدد أهم النتائج المتوصل إليها.

بداية يبدو أن أهم نتيجة متوخات من هذا البحث، فتح أفاقا للمهتمين بالدراسات الأيبستمولوجية من خلال محاولة تسليط الضوء على موضوع يعالج فلسفة اللامعقول، خاصة وأن العلم يرفض هذه المواضيع بحكم أنها لا تخضع للدراسة العلمية التجريبية، ولا يمكن الحكم على مصداقيتها بالاحتكام للقياسات المنطقية، وبحكم أن المعرفة العلمية لا تعرف الثبات فكشوفاتها متوالية تحمل دائماً عنصر المفاجئة، من هنا يمكن التأكيد على أهمية البحث العلمي في مجال اللامعقول، فلا يمكن حصر البحث العلمي في حدود الملاحظة والتجربة والمنهج وفي الخواص الفيزيائية والكيمائية للمادة، بينما هناك مجالات تفيد البحث العلمي أكثر، ويتم ذلك من خلال الالتفات بالشروط الاجتماعية والثقافية والنفسية التي تتحرك بإيعاز من مقومات اللامعقول كالدين والفن والأسطورة والخيال والعادات والتقاليد...الخ.

إن فلسفة "**فيرابند**" لا تقف ضد العقل بل تدعوه للتفتح على جوانب أخرى لها أهمية بالغة في حياة البشر والمرتبطة مباشرة بممارساتهم اليومية، فلا يمكن أن يقتصر العقل على التفسير الآلي للسلوك البشري بالنظر إلى الدوافع والغرائز والضروريات البيولوجية، بل لا بد أن يمتد إلى البحث في القيم الأخلاقية والفنية الجمالية والجوانب الروحية والنفسية والفكرية التي تعبر عن البعد الحقيقي للإنسان، لقد أثبت "**فيرابند**" أن النظريات العلمية لا تحمل دلالة علمية بقدر ما تحمل حمولة ثقافية واجتماعية وإيديولوجية، بحيث تتحدد دلالاتها مسبقاً،

وتحت تأثير السياقات النظرية العامة التي نشأت فيها، فهي ليست دقيقة ولا تعبر عن حقيقة العلم، بقدر ما تعكس الجوانب الخفية للتوجهات اللامعقولة في المجتمع.

لقد جعل "**فيرابند**" من النظريات العلمية طرائق للنظر إلى العالم من خلال ما تحمله من اعتقادات تنعكس على العمل العلمي، فغدت مجرد تأويلات لا تفسيرات لحقيقة الواقع، فالحد الذي وضعته الوضعانية التفنيدية للتمييز بين العلم واللاعلم أصبح غير مبرر، مما يمنع أي محاول إقصائية لأي نوع من المعرفة.

إضافة إلى ذلك اعتراف العلم بحدود المعرفة العلمية واختلاف وجهات النظر في مجال الدراسات الفيزيائية، فالتصور الكلاسيكي للمادة وللكون يختلف عن التصورات المعاصرة، فمبادئ الالتباس والإبهام والتعدد والتداخل إزاء التنوع العلائقي الهائل في بنية المادة ذاتها أصبح أكثر من حتمية، هذا ما دفع بـ"**فيرابند**" إلى التأكيد على ضرورة البحث في مجال اللامعقول.

لا يفهم من النظرية الفوضوية في الإبستمولوجيا لـ "فيرابند" هو التوجه نحو العدمية والتأسيس للعشوائية والفوضى بل غرضه في ذلك عدم التقيد المفرط بقوانين العقل الجاهزة التي تفرض مقولاتها بشكل متعال، فتصدر أحكاما قطعية على اللاعقل وتضع حاجزا وهمياً بين المعقول واللامعقول، بحيث يتسبب هذا الحاجز في إقصاء الكثير من المعارف التي توصف باللامعقول بدلاً من معاينتها والتفكير فيها واستحضارها في دائرة المفكر فيه.

من النتائج المهمة في هذا البحث، تجلى النزعة الإنسانية في الدراسات المعاصرة لفلسفة العلم، بحيث كثرت دعاوي العودة إلى رحاب الخيال العلمي وتفعيل الطاقات النفسية الذاتية وفسح المجال أمام الإرادات الحرة للأفراد في المزيد من البحث عن خبايا الكون والإنسان، ليس بالاعتماد الطرق العلمية الصارمة بل من خلال استحداث طرق بديل تراعي المعطيات الخفية والجوهرية للوجود.

يميز "**فيرابند**" بين العلم وممارسة الإنسان لهذا العلم، لذلك لا يخفي موقفه السلبي من الحضارة الغربية، إذ يتهمها باستغلال العلم لغرض السيطرة لا غير ونحن نشاطره الرأي في ذلك لقد استعملت التكنولوجيا الحربية ضد الإنسان في اليابان والفيتنام والعراق وسوريا باسم الشرعية الدولية واستعمرت دول واستغلت ثرواتها باسم التحضر، فأصبح العلم وسيلة قمع وذريعة للهيمنة والاستعمار.

إن الرفض الذي ألح عليه "**فيرابند**" للمنهج الكلي الشامل لم يكن اعتباطياً بل الهدف منه هو إخراج الباحث من ضيق المنهج الصارم إلى سعة التعددية المنهجية، فهو يؤكد على عدم وجود منهج واحد قادر على التمييز بين المعرفة العلمية عن غيرها من المعارف الأخرى، فالممارسات العلمية تؤكد على وجود أنظمة متعددة تساعد على تفسير الظواهر، فمعالجة أزمة المنهج تستدعي منا الخروج عنه نهائياً، فالوهم الذي يفرضه بحكم اللغة المنطقية والرمزية الشائعة القائمة على الاهتمام بالشكل على حساب المضمون، من هنا شكل المنهج عائق أمام الباحث في الغوص في قضايا اللامعقول، ما نستنتجه من ذلك، هو أن الإقصاء الممارس ضد اللامعقول من طرف الاتجاهات العقلانية هو إقصاء تعسفي بحكم عدم انقياد اللامعقول لصارمة المنهج العلمي.

لقد تخلت المعرفة عن وهم اليقين الذي فرضته التصورات المادية، وبدأ البحث ينحصر في حدود الاحتمالية والتقريب وتحول ما كنا نعتقد أنه جهل إلى منظومة تنافس العلم، فالكثير من الأفكار والتصورات التي كانت وهمية أصبحت حقيقة، وتحول الخيال إلى واقع وصار العلم يسلم بتجليات اللايقين واللاتحديد واللادقة، وأصبحت أسس العلم من موضوعية وعقلانية واتساق ومنطقية لا تميز المنظومة العلمية، وأصبح الحديث عن اللامعقول في العلم أمراً مشروعاً، وكثرت دعاوى الحديث عن ضرورة تفتح العقل على العالم الغيبي، وأصبح من الضروري كذلك على أي باحث أن يولي اهتمام للبحث من خلال توسيع حدود العقل على مجالات متعددة ومراعاة التداخل بين ماهو مرئي وغير مرئي عقلي ولاعقلي

لخلق منظومة معرفية شاملة تشمل كل المفاهيم، فأصبحنا اليوم نسمع عن مفهوم الفوضى المنظمة، (Chaos) وعن مفهوم الكلية (Holism) وغيرها من المفاهيم المعقدة والمتشابك كاللاتحديد والغائية الجديدة.

وفي الأخير يمكن القول أن هذا البحث مكننا من الإطلاع على بعض أسس فلسفة العلم المعاصرة، من خلال النقد الذي مارسه "**فيرابند**" على أسس البناء العلمي للعقلانية المعاصرة سواء الوضعانية أو التفنيدية، أو المؤسساتية والتي كشفت عن تعدد مجالات البحث عن الظواهر الطبيعية، فالقوانين تقبل التطبيق على الجانب العقلي واللاعقلي كذلك، وعلى حسب "فليب فرانك" ففهم مبادئ العلم سواء في الفيزياء والبيولوجيا لا يتطلب فحسب فهماً للأدلة المنطقية بل وكذلك فهماً للقوانين النفسية والاجتماعية، وإن شئنا الإيجاز، نحن في حاجة إلى إكمال علم الطبيعة بعلم الإنسان.

أصبح اليوم من الضروري إقحام التصورات اللاعقلانية للإنسان واعتماد القيم النفسية والاجتماعية والعقائدية داخل الدراسات العلمية والاهتمام بها، لعلها تفتح أفاق جديدة تمكن الباحثين من الكشف عن أسرار العالم الخفي، عالم الروح والنفس وما وراء الطبيعة.

يتضح أن ما جاء به "**فيرابند**" من موقف إنساني يتماشى مع التصورات المعاصرة في الفلسفة، متناغم تماماً مع فكر ما بعد الحداثة التي ترفض تقديس العلم على حساب قيم الإنسان، بل تجعل العلم يسير في سياقه الإنساني، ويبقي أي عمل ابستمولوجي غير مكتمل ما لم يحترم الإنسان وتحترم الأسس الثقافية، فالعلم ليس نتاج لمجهود العلماء فقط، بل تتداخل فيه قوى المجتمع وعناصره الثقافية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع

أولا المصادر

المصادر باللغة الأجنبية

1. Feyerabend Paul .la science en, tant qu'art tra.de l'allemand par Françoise périgant. Traduction française Edition Albin Michel S.A. 2003.
2. Feyerabend Paul .tuer le temps.une autobiographie.tra .de l'anglais par Baudouin jurdant. Editions du Seuil, Octobre. 1996. pour la traduction française.
3. Feyerabend Paul adieu la raison tra .De l'anglais par Baudouin jurdant .édition du seuil, octobre 1989.
4. Feyerabend Paul Réalisme. Rationalisme .et Méthode Scientifique Traduction et présentation, d'Emmanuel Malolo dissaké, Editions Dianoia pour la traduction française, première édition, Décembre 2005.
5. Feyerabend Paul : la tyrannie de la science :éditions du seuil 25 bd romain Rolland paris xiv^e présenté et édité par Eric Oberheim :tra de l'anglais et préfacé par Baudouin jurdant ,Septembre 2014.
6. Feyerabend Paul ; Dialogues sur la connaissance. Traduit de l'anglais par Baudouin Jurdant. Editions du seuil, Octobre 1996, pour la traduction française
7. Feyerabend Paul ; philosophie de la nature ; tra de l'allemand par Matthieu Dumont et Arthur Lochmann ; édition du seuil ; Septembre 2014, pour la traduction française.
8. Feyerabend Paul ;contre la méthode ;esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ; traduit de l'anglais par Baudouin jurdant et Agnès schlumberger,éditions du seuil,1979.
9. Feyerabend Paul. Une connaissance sans fondements. Introduction ; traduction ; notes ; bibliographie et index par Emmanuel Malolo Dissaké, éditions Dianoia, janvier 1999.

10. Feyerabend paul: How to be a good empiricist aplea for tolerance in matters pistemological.In nidditch.p.h.ed.the philosophie of science.oxford university press.

11. Feyerabend paul: problems of empiricism in : philosophical papers vol : Cambridge univ press london 1980.

المصادر باللغة العربية

1. فيرابند (بول) ,العلم في المجتمع الحر, ترجمة السيد نفادي و سمير حنا صادق, المجلس الأعلى للثقافة مصر (بـ ط) 2000م .

2. فيرابند (بول), ثلاث محاورات في المعرفة, ترجمة محمد أحمد السيد الإسكندرية منشأة المعارف(بـ ط)(بـ ت).

3. فيرابند (بول), ضد المنهج ترجمة ماهر عبد القادر محمد على ,طبعة للطالب،الإسكندرية 2005م.

ثانيا المراجع

المراجع باللغة الفرنسية

1. A.Charmers : la fabrication de la science, trad., Marie Brigitte Foster (la découverte, Paris 1993.

2. Emmanuel Malolo Dissaké. Feyerabend .épistémologie anarchisme et société

3. flammarion.) .1991.

4. Gaston Bachelard, la nouvel esprit scientifique p.u.f paris 1935

5. Hanson .norwood russel. patterms.of discoverys an inquiry into the conceptuel fondations of science Cambridge ; the university press :1965.

6. Jacob Lecomte , p,feyerabend , : une thèorie anarchiste de la science, « philosophies de notre temps »

7. K.popper.la connaissance objective .tra.jean jacques rosat (France : ed. Libre .paris pul 2001.

المراجع باللغة العربية

1. أبودية أيوب، العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت،لبنان، ط1، 2009م

2. إتراكسون واليتر،أينشتاين حياته وعالمه،ترجمة هاشم أحمد محمد، نشر دار كلمة وكلمات عربية،ط3،2011م

3. أحمد أنور أبو النور وآخرون، إشراف وتقديم يوسف زيدان،قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

4. ألبرت اينشتاين، أفكار وآراء، تر رمسيس شحاتة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986م

5. إيان هاكينج، الثورات العلمية،كيف ندافع عن الامجتمع ضد العلم، ترجمة وتقديم، السيد نفادي دار المعرفة الجامعية،(د ط) 1996م.

6. باشلار (غاستون) .العقلانية التطبيقية, ترجمة .بسام الهاشم, دار الشؤون الثقافية العامة, الطبعة الثانية,1987م.

7. البعزاتي (بناصر) . الاستدلال والبناء (بحث في خصائص العقلية العلمية)، دار الأمان, الرباط (بـ ط)1999م

8. البكاري كمال، ميتافيزيقا الإرادة،أرخياء المعني في الذات والسلطان،دار الفكر العربي، بيروت، ط1،200م.

9. بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه ومهمة الفلسفة، قلب تراتيب القيم و التأويل الجمالي للحياة،دار العربية للعلوم ناشرون،ط1، 2010م.

10. بن مسيس (عبد السلام) قضايا الإبستيمولوجيا و المنطق الطبعة الأولى ,الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع للمدارس(بـ ط) 2000م.

11. بنعبد العالي(عبد السلام), العقلانية وانتقاداتها الطبعة الأولى ودار توقبال , الدار البيضاء (بـ ط)2004 م.

12. بوبر (كارل) منطق الكشف العلمي, ترجمة ماهر عبد القادر محمد على,دار المعرفة الجامعية, الإسكندرية(بـ ط)1988م.

13. بوبر (كارل)، أسطورة الإطار،في الدفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة يمني طريف الخولى، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت،(د ط)، 2003م.

14. بوبر (كارل)، الحدوس الافتراضية والتفنيدات، ترجمة عادل مصطفي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2002؟1م.

15. بوبر (كارل)، الحياة بأسرها حلول لمشاكل، تعر بهاء درويش، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1994م.

16. بوترو إميل، العلم و الدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة احمد فؤاد الأهواني،الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ب ط)، 2009م

17. بوش جيرد فريدريك وجير دافيد، أساسيات الفيزياء ج5 ، الخاص بالفيزياء الحديثة، تر، سعيد الجزيري وأيمن سليمان، دار الدولية لاستثمار الثقافي، مصر القاهرة، (بـ ط)(بـ ت).

18. توماس كون، تركيب الثورات العلمية، ترجمة وتقديم الدكتور ماهر عبد القادر محمد علي، دار النهضة العربية،للطباعة والنشر ،(بط)،1988م

19. الجابري(محمد عابد), المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي, الجزء الثاني, دار النشر المغربية ,دار البيضاء. (بـ ط)(بـ ت).

20. جمال(ميموني) و نضال (قسوم),قصة الكون من التصورات البدائية إلى الانفجار العظيم, دار المعرفة الجزائر(بـ ط) 1998م.

21. جون ستوارت مل،أسس الليبرالية السياسية،تر،إمام عبد الفتاح امام وميشيل ميتياس،مكتبة مدبولي، القاهرة،(ب ط) 1996م،ص135

22. خضير ادريس، دعائم الفلسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط3، 1986م

23. خليل ياسين، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دراسة تحليلية ونقدية للاتجاهات العلمية في فلسفة القرن العشرين، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان_الأردن/راما لله_فلسطين،2012 ص244 .

24. الخولي(يمني ظريف).فلسفة العلم في القرن العشرين (أصول–الحصاد–الأفاق المستقبلية) سلسة عالم المعرفة.الكويت(بـ ط).2000م.

25. روبرت م.أغروس وجورج ن.ستانسيو،العلم في منظوره الجديد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب–الكويت، 1989م

26. رورتي (جان فرانسوا) فلسفات عصرنا, تياراتها, مذاهبها, أعلامها و قضاياها, ترجمة إبراهيم صحراوي, دار العربية للعلوم, منشورات الاختلاف, الجزائر, الطبعة الأولى,(2009م).
27. ريشنباخ (هاينز)، نشأة الفلسفة العلمية , ترجمة، فؤاد زكرياء، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر الإسكندرية،(بـ ط)(بـ ت).
28. زقزوق حمدي محمود, دراسات في الفلسفة الحديثة, دار الفكر العربي,الطبعة الثالثة و القاهرة1993.
29. زيتوني (الشريف), مشروعية الميتافيزيقية من الناحية المنطقية, تصدير اليعقوني, ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون, الجزائر 2006م.
30. زيدان (محمود فهمي) الاستقراء و المنهج العلمي الطبعة الأولى دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية.(بـ ط)2002م.
31. زيدان (محمود فهمي).من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية .الجزء الثاني, الطبعة الثانية و دار النهضة العربية للطباعة و النشر .بيروت– لبنان.1982م.
32. زيغريد هونكه، العقيدة والمعرفة، ترجمة عمر لطفي العالم، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط1، 1987م
33. سامي (خشبة) مصطلحات فكرية الجزء الثاني, مصطلح تضافر, تكامل. الهيئة المصرية العامة للكتاب (ب ط)(ب تا).
34. سامية عبد الرحمن، المتافيزيقا بين الرفض والتأييد، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط1993،1م
35. سهام النويهي، تطور المعرفة العلمية،مقال في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر التوزيع،القاهرة(بط)1988م
36. شالمرز (ألان). نظريات العلم, ترجمة .الحسين سبحان, وفؤاد الصفا.الطبعة الأولى دار توقبال للنشر.المغرب 1991م.
37. شحاتة (صيام).علم الإجماع المعرفة و صراع التأويلات, دار مرين (بـ ط) 2000 م.
38. طريف الخولى يمنى، فلسفة العلم في القرن العشرين،الأصول –الحصاد–الأفاق المستقبلية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط1، 2009م.

39. عبد الحسين (صالح), التنبؤ و مستقبل الإنسان ,سلسة عالم المعرفة الكويت, (بـ ط) (1981م).

40. عبد السلام بنعبد العالي، العقلانية وانتقاداتها، "وداعاً للعقل، عن بول فيرابند، دار توقبال دار البيضاء، 2004م.

41. عبـد السـلام صـفاء علـي جعفـر، محاولـة جديـدة لقـراءة فريـدريك نيتشـه،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، مصر (د ط)1999م

42. عبد الفتاح بدوى محمد، فلسفة العلم، العلم ومستقبل الإنسان...إلى أين، دار قباء الحديثة، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (د ط)،2007م،

43. العتيري رجاة، جدلية المعقول واللامعقول، دار سحر للنشر،تونس(بط)2001م.

44. عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت،(ط 1)،2010م،

45. علي حسين كركري، الأبستمولوجيا في طور الفكر العلمي الحديث، المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، (د ت)،ص33.

46. علي حسين، العلم والإيديولوجية، بين الإطلاق والنسبية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت – لبنان(بط)،2011م

47. علي زيعور، ميادين المدرسة العربية الراهنة في الفلسفة والفكر، دار النهضة العربية،بيروت، لبنان،ط2005?1م

48. عوض (عادل), منطق النظرية العلمية المعاصرة و علاقتها بالواقع التجريبي, دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر, الإسكندرية, الطبعة الأولى 2006م.

49. عوض (عادل). الإبستيمولوجيا (بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز).الطبعة الأولى.دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر.الإسكندرية. 2004م.

50. فتغنشتاين لودفيك، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق، عبد الرزاق بنور، مركز الدراسات الوحدة العربية بيروت، ط2007?1م.

51. فرانك فيليب، فلسفة العلم،الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1، 1983مص33.

52. قاسم (محمد قاسم), كارل بوبر, نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي, دار المعرفة الجامعية الإسكندرية, (بـ ط) 1986م.

53. قنصوه (صلاح) فلسفة العلم, دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع, (بـ ط) 1998م.

54. كارناب رودولف، الأسس الفلسفية للفيزياء، ترجمة وتقديم، السيد نفادي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 1993م،

55. كلي رايت وليم،تاريخ الفلسفة الحديثة،تر،محمود سيد أحمد،تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام، دار الفارابي،بيروت،لبنان (ط 1)2010م،

56. كونتفهام (جون), العقلانية, ترجمة محمود منقد الهاشمي, مركز الإنماء الحضاري,حلب سوريا, الطبعة الأولى, 1997م.

57. ليفيج (فتجشتاين).رسالة منطقية فلسفية، ترجمة عزمي إسلام, المكتبة الإنجليزية المصرية (ب ط) 1968م.

58. المالكي علي، الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند "ألبار أينشتاين"مرا جعة وتقديم أ د عبد القادر بشته، الدار التونسية للكتاب،الطبع الأولى تونس،2013م

59. ماهر (عبد القادر) مشكلات الفلسفة, دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت,(بـ ط) 1985م.

60. ماهر (عبد القادر), فلسفة العلوم, المنطق الاستقرائي, دار النهضة العربية للطباعة والنشر(الجزء الأول) بيروت,(بـ ط)'1983م.

61. ماهر(عبد القادر) نظرية المعرفة العلمية, دار النهضة العربية للطباعة والنشر،(بـ ط) 1985م

62. ماهر(عبد القادر) فلسفة العلوم الطبيعية، دار المعارف الجامعية الإسكندرية(ب ط) 1990م.

63. محمد (أحمد السيد) التميز بين العلم و اللاعلم , دراسة في مشكلة المنهج , منشأة المعارف الإسكندرية .(بـ ط)(ب ت).

64. محمد عثمان الخشت، العقل وما بعد الطبيعة، تأويل جديد لفلسفتي هيوم وكانط، دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع،(د ط)، 2008م،

65. مذبوح لخضر، فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، دار العربية للعلوم بيروت، ط 1، 2009م

66. مذبوح لخضر، فلسفة كارل بوبر، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2011م

67. مصطفي(إبراهيم) , في فلسفة العلوم , دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر , الإسكندرية , الطبعة الأولى , 2000م .

68. موسي كريم، فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت لبنان ط 1، 2012م

69. نيتشه فريدريك، إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة و تقديم محمد الناجي، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط) 1991م.

70. نيتشه فريدريك، ما وراء الخير والشر، تباشير فلسفية للمستقبل، دار الفارابي، (د ط)1885م.

71. هشام (محمد), تكوين مفهوم الممارسة الإبستمولوجية عند بشلار, دار الشرق للطباعة(بـ ط) 1981م.

72. واي بيدر، مصادر وتيارات الفلسفية المعاصرة في فرنسا،ترجمة عبد الرحمان بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1980؟2م.

73. وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، دار النفائس، بيروت، ترجمة ظفر الإسلام خان، مراجعة عبد الحليم عويس، ط4، 1978م

74. ومنيس رولان، فلسفة الكوانتم، ترجمة أحمد فؤاد باشا، ويمني طريف الخولى،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،(ب ط)2008م.

75. يحي الرخاوي، مراجعات في لغة العلم، دار المعارف، (ب ط)،1997م،

76. يفوت (سالم).فلسفة العلم المعاصر و مفهومها للواقع, دار الطليعة للطباعة و النشر بيروت الطبعة الأولى، 1986م.

ثالثا المعاجم و الموسوعات

<u>المعاجم باللغة الفرنسية:</u>

1. A.lalande. vocabulaire technique de philosophie (parie.puf.1972).

2. Julia Didier.dictionnaire.de la philosophie.la rousse librairie la rousse paris.(1964).2-Encyclopédie la rousse .librairie la rousse. France (1964).

المعاجم باللغة العربية:

1. بيلي فرانك، معجم بلاكويل للعلوم السياسية، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث، ط1، 2004م

2. الخفي(عبد المنعم),المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية ,مكتبة مدبولى ,القاهرة,الطبعة الثانية, 2000م.

3. دليل أكسفورد للفلسفة ,تحرير(تدهوترتش),ترجمة نجيب الهادي ,الجزء الثاني ,من حرف (ط) إلى حرف (ي).المكتبة الوطنية للبحث و التطوير, ليبيا.(بـ ط)(بـ ت).

4. صليبا (جميل), المعجم الفلسفي, دار الكتاب البنان, الجزء الثاني, من حرف(ط)إلى حرف(ي) بيروت لبنان(بـ ط) 1979م.

5. كونزمان بيتر وأخرون أطلس الفلسفة، تر جورج كاتورة، المكتبة الشرقية،ش.م.ل ط 1 ،بيروت لبنان،2001م

6. لالاند (أندريه) موسوعة لالاند الفلسفية , المجلد الأول,تعريب خليل أحمد خليل ,تعهد و أشرف عليه أحمد عويدات, منشورات عويدات بيروت–باريس.الطبعة الأولى1996م.

7. موسي خليل (توفيق),معجم معاصر ,دار الإرشاد للنشر, الطبعة الأولى 2001م

8. نور(على) قاموس عربي يوناني مكتبة لبنان بيروت(بط) (1990م).

9. وهبة (مراد),معجم المصطلحات الفلسفية ,دار توقبال للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة, الطبعة الثانية 1971م.

رابعا المجلات:

المجلات باللغة الأجنبية:

1. Feyerabend Paul, explanation, rèduction and empiricism, minnesota studies in the philosophy of science,n 111, h.Feigle and G.Max well ed, (Minneapolis :university of Minnesota press,1962)

2. Henri guènin paracini Feyrabend.Paul ;contre la méthode ;esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ; université de paris IX Dauphine ; DEA n 124 séminaire de recherche :philosophie et management professeur responsable :Yvon Pesqueux 2002

3. revue tracès des sciences humaines, faut-il peur du relativisme n 12, article de Jean Luc ; Gautero ;Feyerabend ; relativiste et rèaliste ;université de Nice- Sophia ;Antipolis

4. science, religion, philosophie une consalutaire, article de Bernard jolibert, revue et corrigée, octobre 2001

5. Trembley marcel-quinze théorie on philosophie .avec les auteurs contemporains canao ;press universitaire de le level.2002.

المجلات باللغة العربية:

1. ادغار موران: من أجل عقل متفتح، نقلاً عن : محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: دفاتر فلسفية، نصوص مختارة،العقلانية العلمية وانتقاداتها، دار توقبال الدار البيضاء، المغرب،ط2004،1م.

2. الجابري (محمد عابد), العولمة و الهوية الثقافية,عشر أطروحات,مجلة المستقبل العربي, عدد 228 1998م.

3. حاج إسماعيل، حيدر، بنية الثورات العلمية، دراسة منشورة في مجلة العرب والتفكير العلمي، العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون،بيروت،2008م.

4. ستيفن (واينروج), هل ستتوحد الفيزياء بحلول عام 2050,مجلة العلوم, الترجمة العربية لمجلة سيانتيفك أمريكان , المجلة 19 العدد الأول 2003م.

5. مجلة عالم الأفكار، العدد2 المجلد14 أكتوبر ديسمبر 2012، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –الكويت– مقال د.مجدي عبد الحافظة، بعنوان، "موقع العقل في الفلسفات ما بعد الحداثة".

6. نجيب (زكي محمد) العلاقة بين العلم و الفن, جريدة الأسبوع الأدبي, العدد1025, 2006/09/30

7. نور (أحمد) ضد المنهج, إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة, قضايا العلوم الإنسانية إشكالية المنهج, العدد الأول, الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة 1996م.

8. نور أبو النور (أحمد) سلسلة الفلسفة و العلم, الهيئة العامة لقصور الثقافة.

الأطروحات الجامعية:

1. أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران 2، السنة الجامعية 2014/2013، بعنوان "العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها" "بول فيرابند" أنموذجا" للباحث بوصالحيح حمدان.

المواقع الالكترونية:

1. Feyerabend.Paul. Thèse sur l'anarchisme épistémologique, (revue alliage numéro 28,1996) texte publié sur le site bibliolib, confié par m.g.ruiz, p4 :

https://raforum.info/spip.php ?article 7065.publié le 23avril 2015 Consulté le 21 dècembre2017.

2. FrançoisJacob, mythe-science-rationalité « l'évolutionsans projet »entretien avec François Jacob le darwinisme aujourd'hui, le seuil, col. Points, 1979, p145 :

https://www.ac-grenoble.fr/philosophie/textes/textesm/jacob1 m.htm

3. pierre-Antoine,Pontoizeau « Paul Feyerabend et les chemins de la liberté » les cahiers psychologie politique article n 28 janvier 2016 ,url :

http://lodel .irevuesinist. fr/cahierspsychologie politique/index, php ?id=3192

4. Thierry Hoquet « Feyerabend anarchiste des science » la vie des idées, 7avril 2015,Issn :2105-3030,url :

http://www.laviedesidèes, fr/Paul-Feyerabend-anarchiste-des sciences html.

5. موقع الكتروني ابحث في المعرفة، مقال بعنوان الوضعية المنطقية، لـ سوسن بيطار، تاريخ النشر 14 ديسمبر 2011، تاريخ الإقتباس 2017/08/06.على الساعة العاشرة صباحاً الرابط الإلكتروني :

-https//www marefa.org.

6. موقع مقالاتي، للكتابة والنشر، مقال بعنوان، جرائم الكنيسة في حق العلم والعلماء، للأستاذ، عبد الفاتح بن عمار، تاريخ النشر، 2012/03/06، تاريخ الاقتباس، 2017/10/07.على الساعة الحادية عشرة صباحاً، الرابط الكتروني :

http://www.maqalaty.com/9439.htmp.

فهرس المحتويات

المقدمة أ

الفصل الأول: منطلقات و أسس فلسفة اللامعقول عند فيرابند

مدخل 17
المبحث الأول: الأبعاد النفسية والفكرية لظهور فكرة اللامعقول 18
1- تراجيديا الأحداث 18
2-المسار الفكري الأكاديمي وظهور فكرة اللامعقول 21
المبحث الثاني:الخلفية الفلسفية للامعقول عند فيرابند 30
1-الشك السفسطائي واللامعقول الفيرابندي 31
2-فلسفة الحرية عند جون ستيوارت مل واللامعقول الفيرابندي 35
3-من لاعقلانية نيتشه إلى لاعقلانية فيرابند 39
المبحث الثالث:الخلفية العلمية لفكرة اللامعقول عند فيرابند 52
1-الفلسفة العلمية لأرنست ماخ 53
2-نظرية الكوانتم ومجال اللامعقول 59
3-النظرية النسبية والتفتح على اللامعقول 71
4-تاريخ العلم والكشف على اللامعقول 77

الفصل الثاني: نقد فيرابند للعقلانية المعاصرة والتفتح على اللامعقول

مدخل 84
المبحث الأول: الوضعية المنطقية 85
1-نشأتها 85
2-أسس ومبادئ الوضعية المنطقية 88
2-1- النزعة التجريبية الاستقرائية 88
2-2- الفلسفة التحليلية 94
2-3- معيار القابلية للتحقق 96
2-4- رفض الميتافيزيقا 101
3-موقف فيرابند النقدي من عقلانية الوضعية المنطقية 103
3-1- محدودية الملاحظة في بناء النظرية العلمية 104
3-2- النظرية العلمية والتحليل اللغوي 110
3-3- حدود منطق التبرير الاستقرائي 115
3-3-1: شرط الاتساق 121
3-3-2 شرط التماسك المنطقي 123
3-3-3: شرط زيادة المحتوى 126
4-استحالة المقارنة بين النظريات العلمية "اللامقايسة" 127
المبحث الثاني: نقد "فيرابند" للعقلانية النقدية 133
1-الكشف العلمي بواسطة المنهج الاستنباطي 134

2-القابلية للتكذيب معيار التميز بين العلم واللاعلم	138
3-حدود النزعة التكذيبية	142
المبحث الثالث: فلسفة توماس كون والموقف النقدي لفيرابند	149
1-تطور العلم في نظر كون	150
2-موقف فيرابند النقدي من كون	154
المبحث الرابع: نقد فيرابند للعقلانية الميتودولوجية "إمري لاكاتوس	158
1-ميثودولوجيا برامج البحث العلمي	159
2-موقف فيرابند من ميثودولوجيا برامج البحث	161
الفصل الثالث: الفوضوية وتفتحها على اللامعقول.	
مدخل	167
المبحث الأول: محدودية العلم والتعدد المعرفي	168
1 - العلم باعتباره تقليد	168
2-التعدد المعرفي ودوره في بناء العلم.	173
3-تطوير العلم عن طريق الاستقراء المعاكس	178
المبحث الثاني : الفوضوية الإبستمولوجية ودورها في تقدم العلم	181
1-النزعة الفوضوية لدي فيرابند	182
2- نزعته النسباوية	188
3- ضد المنهج	194
المبحث الثالث: التفتح على اللامعقول	199
1-المنهج الأنثروبولوجي وعلمية الأسطورة	199
2-العلم والفن	**209**
3-الدين وحدود العلم	**217**
4-العلم والإيديولوجية	**225**
الفصل الرابع: حدود فلسفة اللامعقول	
مدخل	**235**
المبحث الأول: تهافت النقد الفيرابندي لأسس العلم الوضعي	**235**
1- في بناء النظرية العلمية	**235**
2-في دور المنهج في بناء العلم	**242**
3- الأساس اللامنطقي لفكرة اللامقايسة	**248**
المبحث الثاني : خرافة اللامعقول	**252**
1- العلم وتجاوز اللامعقول	**253**
2- ذاتية الفن وموضوعية العلم	**260**
3- مثالية المجتمع الحر عند "فيرابند"	**263**

4–في علاقة الدين بالعلم	267
الخاتمة	275
قائمة المصادر والمراجع	280
فهرس المحتويات	292

Résumé : " la philosophie irrationnelle de Feyerabend"

La pansée rationnelle s’est, toujours, basée sur des démarches fixes et déterminées en écartant, d’une manière violente et non objective, les méthodes irrationnelles.
Cette vision archaïque et réductrice a classé les connaissances humaines en deux catégories : rationnelle et irrationnelle.
Ceci a amené "Feyerabend" à remettre en cause le pouvoir des connaissances rationnelles imposé par la science et la logique, en valorisant la notion de la diversité des connaissances dans une démarche qui exploite l’expérience humaine :art ; religion ; mythe, pour contribuer au processus de l’évolution humaine.
Feyerabend à souligné l’importance des résultats obtenus par les études anthropologiques valorisant l’expérience humaine dans ses dimensions émotionnelles, spirituelles, morales et sociales, bref retour au monde de l’homme.

***Mots clés** : rationalité, irrationalisme, anarchisme, contre induction, vérifiabilité, incommensurabilité, réfutabilité.*

Abstract : **"The Irrational Philosophy of Paul Feyerabend"**

The rationality, with all its various kinds, has set itself a course of thinking that is rigid and absolute. It has led to the displacement of irrational thinking methods and in an arbitrary way inciting a fictional struggle between the rational and the irrational. This rationality has given itself the status of governance that separates the issues of knowledge. This proposition does not fall outside the scope of narrow understanding of reasoning of the absolute classical rationality. Thus, the rationality cannot be confined to a limited discourse claiming to be a science or a certain knowledge asserting to be superior to the rest of other knowledge. Therefore, Feyerabend rejected the cognitive authority in the name of rationality and stood against all the standards imposed by science and logic as if they are pure science. As opposed to this, he also calls for pluralism of knowledge and the opening of research to all human traditions, art, religion and myth to contribute to the process of scientific development. Moreover, he praises the importance of the anthropological study, which revealed many facts related to the realm of the irrational and showed the true value of the topics related to the human dimension and the world emotions, feelings, moral and social values. In a word, it should return to the world of human being.

Keywords: rationality, irrationality, anarchism, indirect induction, incommensurability, verifiability, replicability

"فلسفة اللامعقول عند فيرابند "

الملخص:
إن العقلانية بمختلف أنواعها وضعت لنفسها دروباً يسلكها التفكير بنسقية صارمة ومطلقة، كانت سبباً في إزاحة أساليب التفكير اللاعقلاني وبطريقة تعسفية مؤججتاً صراعاً وهمياً بين العقلاني واللاعقلاني، هذه العقلانية أعطت لنفسها صفة الحكم الذي يفصل بين قضايا المعرفة، هذا الطرح لا يخرج عن إطار الفهم الضيق للعقل الكلاسيكي المطلق، فالعقلانية لا يمكن حصرها في خطاب محدود يدعي أنه العلم أو في معرفة معينة تدعي لنفسها التفوق عن باقي المعارف الأخرى، لذا رفض "فيرابند" السلطة المعرفية باسم العقلانية ووقف ضد كل المعايير التي يفرضها العلم والمنطق على اعتبار أنها تمثل اليقين، ويدعو في مقابل ذلك إلى التعددية المعرفية وفتح مجال البحث أمام جميع التقاليد الإنسانية "فن""دين"أسطورة" للمساهمة في عملية التطور، كما يشيد بأهمية الدراسات الأنثروبولوجية التي كشفت عن الكثير من الحقائق المرتبطة بمجال اللامعقول وبينت القيمة الحقيقية للمواضيع التي تتعلق بالبعد الإنساني وبعالم العواطف والمشاعر والقيم الأخلاقية والاجتماعية، باختصار العودة إلى عالم الإنسان.

كلمات مفتاحية: العقلانية- اللامعقول- الفوضوية- الاستقراء المعاكس- اللامقايسة- القابلية للتحقق- القابلية للتكذيب.